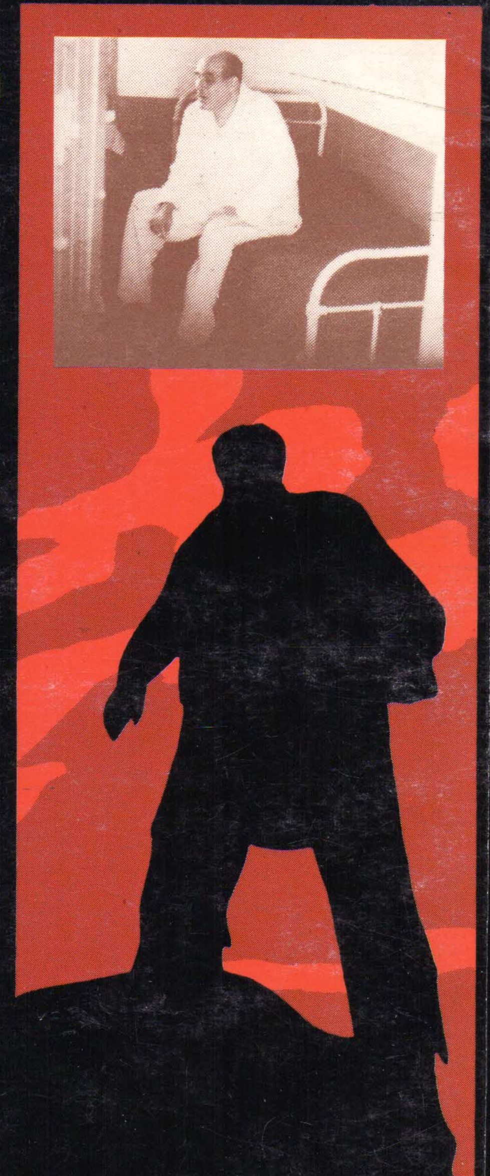
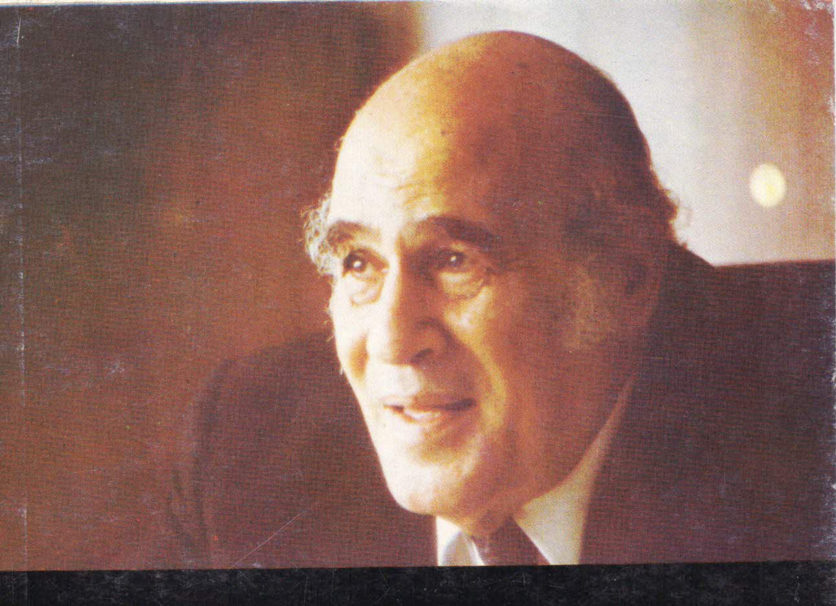
كتاب

الشرق الأوسط

سنة ثالثة سجن



مصطفى أمين



مصطفى أمين

- ولد في القاهرة في ٢١ فبراير سنة ١٩١٤م.
- عين نائب رئيس تحرير مجلة روز اليوسف سنة ١٩٣١م وعمره ١٧ سنه.
- عين رئيس تحرير مجلة آخر ساعة سنة ١٩٣٤م وعمره ٢٠ سنة.
- أصبح مراسل جريدة المصري ومجلة آخر ساعة في أمريكا
- حصل على شهادة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة جورج تاون بأمريكا عام ١٩٣٨م
- عين رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة سنة ١٩٣٤م.
- عين رئيسا لقسم الاخبار بجريدة الاهرام سنة ١٩٣٩م بجانب آخر ساعة
- عين رئيسا لتحرير مجلة الاثنين سنة ١٩٤١م بجانب رياسة الاخبار في الاهرام.
- أصدر جريدة أخبار اليوم سنة ١٩٤٤م وأصبحت من العدد الاول أوسع الصحف انتشارا في الشرق الاوسط.
- اشترى هو وعلي أمين مجلة آخر ساعة وصدرت من دار أخبار اليوم سنة ١٩٤٦م
- أصدر وعلي أمين مجلة الجيل سنة ١٩٥٢م وكتاب اليوم.
- أصدر وعلي أمين جريدة الاخبار اليومية سنة ١٩٥٢م.
- أممت الصحافة سنة ١٩٦٠م وعين نائبا لرئيس مجلس ادارة أخبار اليوم سنة ١٩٦٠م
- منح اجازة اجبارية لمدة ستة شهور سنة ١٩٦٠م، وفي سنة ١٩٦١ عين عضوا في مجلس ادارة دار الهلال ثم رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال
- عينه الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا لمجلس ادارة أخبار اليوم في سنة ١٩٦٢م.
- قبض عليه وحكم عليه بالسجن المؤبد سنة ١٩٦٥م.
- أفرج عنه الرئيس أنور السادات سنة ١٩٧٤م.
- عين رئيسا لتحرير أخبار اليوم سنة ١٩٧٤م
- حكمت محكمة الجنايات بمعاقبة صلاح نصر بالاشغال الشاقة مدة عشر سنوات عن تهمة تعذيب مصطفى أمين.

شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر

مصطفى أمين

سنة ثالثة سجن

الناشر



الشركة السعودية للأبحاث والتسويق

ناشر كل من :

« الشرق الأوسط » جريدة العرب الدولية

« المسلمون » جريدة المسلمين الدولية

« عرب نيوز » أول جريدة سعودية بالانجليزية

« الرياضية » جريدة الشباب العربي

« المجلة » مجلة العرب الدولية

« سيدتي » مجلة الأسرة العربية

« مجلة الشرق الأوسط » أسبوعية ملونة مع جريدة العرب الدولية

« باسـم » مجلة الجيل الجديد

تقديم الناشر

عندما ياتي ذكر مصطفى امين تبرز فورا أمامنا شواهد كثيرة عليه ، لعل أبرزها في نظرنا .. المخبر الصحفي الذي لا يشق له غبار ، الصحفي المتمكن الذي شارك توأمه المرحوم علي امين في القيام بقلب كل الموازين الصحفية السائدة قبل أكثر من ثلاثين عاما عندما أصدرا جريدة « أخبار اليوم » الأسبوعية ، التي اعتبرت عند صدورها جريدة مختلفة عن كل الجرائد التي تصدر وتطبع في طول العالم العربي وعرضه ، وأصبحت على مر الأيام المدرسة الصحفية العربية الحديثة .

عندما يأتي ذكر مصطفى أمين تبرز بعض تلك الشواهد الدالة عليه ، وعندما يأتي ذكر مصطفى أمين فلا بد من أن يأتي ذكر المرحوم علي أمين ، فالاثنان توأم ، وإن كان مصطفى أمين أكبر من علي أمين بدقائق ، إلا أن الاثنين يتشابهان في كل شيء... في الشكل والصوت والطول والعرض حتى ان أحدنا وهو طالب في قسم الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة في الستينات - ومصطفى أمين يأتي أسبوعيا ليحاضر في قسم الصحافة - لم يتمكن هو وزملاءه من التفريق بين مصطفى وعلي عندما حضر علي أمين بدل الأول فحاضر الطلبة وكأنه مصطفى ، ولم يتمكن اي من الطلبة معرفة أن الذي يحاضر هو علي وليس مصطفى إلا عندما قال

الأول في نهاية المحاضرة انه علي وإن مصطفى سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مهمة رسمية .

وعندما يأتي ذكر الإخوة أمين يبرز : مشروع ليلة القدر ، وأنت لست وحدك ، وجوائز مصطفى وعلي أمين الصحفية ، ودار أخبار اليوم وأشياء أخرى كثيرة وضع الاثنان بصماتهما السحرية عليها جميعها .

وعندما يأتي ذكر الإخوة أمين فلابد أن نتذكر النفي والسجن : علي امين - في أواخر عصر الطاغية جمال عبد الناصر - كتب عليه النفي الإجباري بين أوروبا ولبنان ، أما مصطفى أمين فقد أدخله الطاغية السجن الذي مكث فيه تسع سنوات متصلة .

مصطفى أمين كتب خمسة كتب عن تجربته في السجن : الأول أسماه « سنة أولى سجن » ، وهذا الذي بين أيديكم هو « سنة ثالثة سجن » ، إلى أن وصل إلى السنة الخامسة .

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يطيل في عمر مصطفى أمين ويمنحه الصحة لكي يكتب سنة سادسة إلى سنة تاسعة سجن .

والله الموفق ،،،

هشام ومحمد علي حافظ

الهزيمة .. في سنة أولى !

هذه سنة ثالثة سجن ، بدأت عقب الأيام التالية للهزيمة ، أعصاب الحكام مشدودة . أرواحهم محطمة . شعاراتهم ممزقة وملقاة في صحراء سيناء مع الجثث المشوهة والأسلحة المبعثرة . البطش يشتد داخل السجن ، كان الحكام المهزومين لم يستطيعوا أن يهزموا عدوهم الحقيقي فاستداروا الى خصومهم يقهرونهم وينتصرون عليهم بلا معركة ، ويعتبرون المسجونين السياسيين أسرى أسروهم في لا حرب ، ويعتبرون زنازينهم قلاعا استولوا عليها بلا معارك !

كل شبح يحسبونه رجلا ، وكل صفقة باب يتوهمونها فرقعة قنبلة . وكل همسة مسجون يسمعونها زئير اسد ، وكل كلمة حق يخافون أن تكون مقدمة مؤامرة لقلب نظام الحكم . تشعر وانت داخل السجن بأن كل شيء خائف يهتز . الأوامر تجيء كل يوم الى السجان بأن يزيد قبضته على المسجونين السياسيين .. يراقب خطواتهم .. يستمع الى همساتهم .. يفتش جيوبهم .. يقلق منامهم . اوامر متوالية تحض على العنف والشدة والبطش والقمع وهذه دائما هي لغة الخائفين لا لغة الواثقين .

هذا الرعب يظهر في منعهم للزيارات الا من السلك ، في تاخيرهم لتسليمنا خطاباتنا ، في تلكئهم في الموافقة على ارسال خطابات لأهلنا . في منعهم السجائر والأطعمة . كأن علبة السجائر هي منشورات تحرض على الثورة ، وكان طعام المسجونين فيه قنابل وديناميت !

واطاعة الأوامر الظالمة هي نوع من رياضة النفس وامتحان لقدرة المرء على الاحتمال . وكلما وجد المسجون السياسي نفسه قادرا على احتمال ما لايحتمل شعر بسعادة غريبة . فليست القوة

ان يصرخ الانسان عندما يشعر بمطرقة تنهال على رأسه ، وانما القوة أن يحتمل الضربة ولا يكف عن الابتسام . وعندما يصبح الانسان قادرا على أن يتحمل الضربة الضخمة تصبح الضربات التالية نوعاً من الدعابة والهزار ! وفي هذه السنة كثرت الضربات فوق رؤوسنا ، ولم تكن ضربات قاتلة لأن المطارق كانت في أيد مهزوزة خائفة مهزومة ـ الهزيمة البشعة ، وماحدث للطغاة الصغار من شلة المشير عبدالحكيم عامر جعل بقايا الفراعين الصغار تضرب وهي خائفة .. تبطش وهي ترتعش رعبا ، ترتدي أثواب الجبابرة وتطل من داخلها الفئران .

هذه الرسائل كتبتها وهربتها في السنة الأولى للهزيمة ، وقد تميزت هذه السنة بان الحكام بدأوا يمشون في طريق الضعف والهزال ، والشعب يمشي في طريق الشجاعة . أصبح الناس أكثر جراة مما كانوا وأقل خوفا وهلعا . سقط الديكور الذي كان يغطي خرائب الحكم ولا يظهر الا الألوان الزاهية البراقة . أصبحنا لأول مرة نسمع الجنود والضباط ينتقدون الحكام علنا ، يهاجمونهم ، يسخرون منهم ، ينقلون الينا النكت والنوادر التي تقال عنهم . يهملون في تنفيذ الأوامر الصارمة اليومية التي كانت تطالب بالبطش بنا وتنكيد الحياة علينا !

ولقد زاد عدد الذين يشاركونني في تهريب هذه الرسائل الى خارج السجن ، ثم الى خارج الحدود فتسلم الى على امين في لندن .. وتضاعف عدد الذين يتشجعون ويحملون الى رسائل من جميع انحاء العالم ، ويقتحمون الحصار المفروض .

وكنا نلعب مع حراسنا كل يوم لعبة عسكر وحرامية !

ولا اعرف « من كانوا العسكر ومن كانوا الحرامية » .

كل الذي اعرفه انهم لم يمسكوا خطابا واحدا .

مصطفى أمين

عبدالناصر ساعة الهزيمة

ليمان طرة ٢٤ يوليو سنة ١٩٦٧

يا عزيزتي ...

ان أصدقائي وتلاميذي خارج السجن يريدون أن أشعر وأنا في زنزانتي أنني مازلت في مكتبي رئيس تحرير أخبار اليوم . أعرف كل مايجري من أحداث وأسرار . وهم يتبارون في تهريب الرسائل لي عما يدور وراء الكواليس ، وكأنهم يبحثون عن خبطات صحفية تنشر في صدر الصفحة الأولى في مانشيتات !

وللأسف فإنني لا أستطيع أن أنشر كل مايصلني ، فأنا الآن القارىء الوحيد !

كتب لي أحد اصدقائي يقول : قابلت السيد عبداللطيف بغدادي فترة طويلة . قال لي انه لما أحس أن أزمة سحب البوليس الدولي من شرم الشيخ واحتلالها سوف يؤدي الى حرب ، كتب مع حسن إبراهيم مذكرة « تقدير موقف » أرسلها الى الرئيس جمال عبدالناصر ، وحذره من عواقب اشتراك الجيش المصري في معركة مع اسرائيل ، واقترح عليه أن تتحرك بعض قوات الطيران وحدها دون باقي الجيش . وأبدى الاثنان استعدادهما لوضع نفسيهما تحت تصرف القوات المسلحة أو في أي مكان يعتقد عبدالناصر أنهما يستطيعان فيه خدمة بلدهما .

وحدث أن قابل الدكتور عبدالرحمن البزاز ، السياسي العراقي الكبير بعد ذلك الرئيس عبدالناصر ، فأشاد الرئيس أمامه بموقف بغدادي وحسن إبراهيم ، وشكا من أن كمال الدين حسين لم يبد أي استعداد للمساهمة في المعركة .

وذهب الدكتور عبدالرحمن البزاز الى كمال الدين حسين ، وروى له حديثه مع عبدالناصر ، فكتب كمال الدين حسين خطابا الى عبد الناصر يرجو فيه إعادته الى الجيش ، وإسناد أي عمل له حتى يساهم في المعركة .

واستدعى عبدالناصر الثلاثة ..

ولاحظ بغدادي أن عبدالناصر « يتطلع » طويلا الى رأسه فسأله :

لماذا « تتطلع » الى رأسي ؟ هل أدهشك المشيب الذي علاه ؟

قال عبدالناصر : نعم ..

قال بغدادي : عجزنا ..

قال عبدالناصر : أنا لسه ما عجزتش ..

قال بغدادي : أنا أصلي « خرع » زي ايدن (وكان هذا هو الوصف الذي أطلقه عبدالناصر على ايدن رئيس الوزارة البريطانية في عدوان ١٩٥٦) .

وضحك عبدالناصر طويلا وشكرهم على موقفهم ، وقال انه لم يدهش لهذا الموقف ، لأنه يعرف وطنيتهم وحبهم لبلادهم ..

وهنا سأله بغدادي : أحب أن أعرف ما هي معلوماتك عن دخول اسرائيل الحرب ؟

فقال عبدالناصر : المعلومات المؤكدة التي عندنا هي أن اسرائيل لاتفكر في الهجوم ، وأنها لاتستطيعه قبل ٨ أشهر على الأقل .

وسأل بغدادي : وماهو موقف روسيا ؟

قال عبدالناصر : ان شمس بدران وزير الحربية عاد منذ يومين من موسكو ، وقد أكد له الروس أنهم سيؤيدوننا على طول الخط ولو أدى ذلك الى قيام الحرب العالمية الثالثة .

واستطرد السيد عبداللطيف بغدادي يقول :

ـ ثم بدأت المعركة في ٥ يونيو .

وكنت مع الرئيس عبدالناصر في مركز القيادة وأبلغنا عبدالحكيم عامر ان اسرائيل حطمت كل الطائرات المصرية ـ

والتفت الى عبدالناصر وقلت له :

ـ وماهو موقف الروس اليوم ؟

فأجاب عبدالناصر : انهم في فزع من أمريكا ! ولا يريدون أن يقوموا بأي عمل يعرضهم للاشتباك مع الأمريكان .

وقلت لعبد الناصر : ولكنهم قالوا لشمس بدران انهم سيؤيدوننا على طول الخط ، حتى ولو أدى ذلك الى قيام الحرب العالمية الثالثة .

وسكت عبد الناصر ولم يرد .

وهنا سألت الرئيس عبد الناصر : ولماذا لم يرسل الروس لنا طائرات بدل الطائرات التي فقدناها ؟

قال عبد الناصر : قالوا انهم يخشون من الأسطول السادس ولذلك لا يستطيعون ارسال الطائرات الى مصر ، واقترحوا أن يسلموها لنا في يوغوسلافيا ، بشرط أن يوافق تيتو ، فأبرقنا الى تيتو الذي وافق على هبوط الطائرات في بلاده ، واستدعى السفيرين المصري والروسي في بلغراد معا وأبلغهما هذا القرار .. ولكن روسيا عادت وخافت وقالت انها تريد أن تسلمنا الطائرات في الجزائر ! ومعنى ذلك أننا لن نستلم الطائرات الا بعد أشهر .

وقال بغدادي : انه من الممكن أن ترسل روسيا الى مصر الطائرات الحربية داخل طائرات اليوشان ، وان كل طائرة اليوشان تتسع لأربع طائرات ميج ..

قال عبد الناصر : وكم يستغرق تركيب كل طائرة ؟

فأجاب بغدادي : ٨ ساعات . وإذا أرسلوا لنا عشر طائرات اليوشان محملة بالطائرات كل يوم فسيصبح عندنا ٤٠ طائرة كل يوم و٤٠٠ طائرة في ظرف عشرة أيام .. وانتا نستطيع بهذه الطائرات أن نقلب المعركة على رأس اسرائيل .

فأجاب عبد الناصر : ان الروس يرتعشون من الأمريكان .

وذكر لي بغدادي بالحرف الواحد :

ـ بعد أن تأكدت الهزيمة لاحظت ان عبد الحكيم عامر كان يتطلع بكراهية وحقد نحو عبد الناصر . وكانت نظراته تقول له : أنت الذي أوصلتنا الى هذه الكارثة !

وبقي عبد الناصر في مركز القيادة فترة طويلة ، ومع ذلك لم ينتقل اليه عبد الحكيم عامر مرة واحدة ، تظاهر طول الوقت بأنه مشغول . كان

يتلقى تليفونيا انباء الهزيمة ولايهتم بإبلاغـها الى الرئيس عبدالناصر الذي كان يجلس معه في الغرفة .

وكان عبدالناصر يضطر الي سؤال الضباط الموجودين حول عبدالحكيم عامر عن آخر الأخبار .

وحدث أن سمع عبدالناصر أن الجنود المصريين فقدوا كل بنادقهم في المعركة ولم يبق عند الجيش المصري سوى ٢٥٠٠ بندقية .

فسأله بغدادي : ولماذا لم نطلب بنادق من الروس ؟

وأجاب زكريا محيي الدين : الروس أرسلوا لنا سفينة عليها ٦٠ ألف بندقية ، ولكنها راسية خارج ميناء الاسكندرية وترفض أن تدخل الميناء خشية أن تضربها الطائرات .

وكان اليأس يملأ وجه عبدالناصر في هذه اللحظات .

وفجأة وقف وقال : ليس لنا مكان هنا .. لقد ضاع كل شيء ، فقد الجيش كل شيء . تعال نخرج !

وخرجنا من مركز القيادة ، ولم يتحرك عبدالحكيم من مكانه لوداعنا ..

وقال عبدالناصر وهو يودع بغدادي :

ـ مفيش فايدة .. فقد الجيش المصري كل أسلحته !

***

وقال عبداللطيف بغدادي :

ـ انني سألت عبدالناصر أيام كنا معا في مركز القيادة لماذا لم توافق على وقف القتال في يوم ٥ يونيو كما اقترح مجلس الأمن وعدت بعد يوم ووافقت .. وافقت بدون قيد ولاشرط .

فأجاب عبدالناصر : في يوم ٥ يونيو تلقيت معلومات أن الجيش المصري يجمع قواته ، وأنه لم ينهزم ، ولكن بعد ٢٤ ساعة علمت أن هذه المعلومات كاذبة وأن الجيش المصري فقد كل أسلحته فوافقت على اقتراح وقف القتال .

وذكر عبدالناصر أن محمود رياض وزير الخارجية اتصل تليفونيا يوم ٥ يونيو بالسفير محمد القوني مندوب مصر في الأمم المتحدة ، وقال

له ان الجيش المصري مسيطر على الموقف ، وأمره بأن يرفض وقف القتال . وأعد السفير محمد القوني خطابه على أساس تعليمات وزير الخارجية ، وقبل أن يلقي خطابه بنصف ساعة اتصل به محمود رياض تليفونيا من القاهرة للمرة الثانية وطلب منه أن يوافق على وقف اطلاق النار .

ولما أبلغ القوني هذه المحادثة الى رؤساء الوفود العربية في الأمم المتحدة ثاروا ، وقالوا ان محمود رياض دسيسة ، وطلبوا من السفير القوني أن يتصل بالرئيس شخصياً بالتليفون ليسأله هل هو موافق على وقف القتال .

وطلب القوني الرئيس عبدالناصر في التليفون .. ورد عليه سامي شرف .

وقال السفير القوني انه يريد أن يتحدث مع الرئيس عبدالناصر شخصيا ليسأله : هل هو موافق على وقف القتال ؟

فسأله سامي شرف : ماذا قال لك محمود رياض ؟

أجاب القوني : قال لي أن أعلن موافقة مصر على وقف القتال .

قال سامي شرف : نفذ تعليمات محمود رياض !

ولما سمع رؤساء الوفود العربية بهذه المحادثة التليفونية أغرقوا في البكاء !

هل يعيش الحب في الزنزانة ؟

ليمان طرة في ٢٨ يوليو ١٩٦٧
عزيزتي ...

عرفت هنا مسجونا اسمه فرحات ، قص علي قصته العجيبة . انه محكوم عليه بأنه قاتل وهولم يقتل أحدا ! ان المثل الذي يقول « ياما في السجن مظاليم » هو حقيقة واقعة أكثر مما هو مثل شعبي . ولنبدأ القصة من أولها ..

كان أبو علي يعمل خفيرا لزراعة أحد الأعيان .. وكان يملك فدانا واحدا ، يزرعه في وقت فراغه بمساعدة ابنه عويس . واختلف عويس مع جيرانه في الأرض على الري .. وحاول الحاج موسى جاره في الأرض أن يشتريها من عويس ، لكي يتخلص منه ، ولكي يستطيع أن يقطع الماء على من يشاء من الفلاحين دون حسيب أورقيب . ولكن عويس كان شابا مفتول الذراعين ، جريئا في الحق ، لايخاف الأقوياء . كان يحب الأرض ويرفض أن يبيع حبه لمخلوق .. وكان يجد متعة في تحدي الظالمين .. وطالما قال له أبوه (أبو علي) « واحنا مالنا ياعويس » ، وكان عويس يرد قائلا : « وماقيمة الحياة يا أبي إذا لم ندافع عن المظلومين » .

وكان أهل القرية يعجبون بشجاعة عويس وبطولته ، ويشيدون بفروسيته ، ويحمدون الله أن ظهر من بينهم شاب يقاوم طغيان الحاج موسى واستبداده .

وتضاعفت مرارة الحاج موسى عندما تقدم الى الشيخ عليوة مأذون القرية يطلب يد ابنته شلبية ، وليجعلها الزوجة الرابعة الى جانب زوجاته الثلاث . وأبت شلبية أن تتزوج ، وقالت انها تحب الشاب عويس بطل القرية ، ولا ترضى بزوج سواه .. وألح المأذون على ابنته شلبية أن تتزوج الحاج موسى ، وتساءل كيف ترفض ابنته هذا الشرف

الرفيع . كيف ترفض الزواج من الحاج موسى صاحب الجبروت في القرية ، والذي يخافه الفلاحون ويحسبون له ألف حساب . كيف ترفض رجلا يملك عشرين فدانا من أجل ابن خفير يملك هو وأسرته كلها فدانا واحدا ! وهددها بقطع رقبتها فقالت شلبية انها تفضل الموت على أن تتزوج الحاج موسى الجبار !

وجن جنون الحاج موسى . كيف تجرؤ هذه الابنة العاقة على مخالفة أبيها ؟ كيف تهزأ القرية بالعريس المرفوض الذي كان يعتقد ان كل فلاحة في القرية تحلم به وتتمناه ؟ وعندما عرف أن الشاب عويس هو العقبة التي في طريقه قرر أن يزيل هذه العقبة من الطريق . ودبر مؤامرة مع معاونيه لقتل البطل الشاب . ورفض أن يقتله أحد معاونيه ، فصمم أن يقتله بيده ليشفي غليله من دم خصمه العنيد ، واختبأ الحاج موسى في زراعات الذرة وانتظر حتى مر عويس وأطلق عليه ثلاث رصاصات وسقط عويس قتيلا ..

وخرج شهود يدعون انهم رأوا القاتل بعيونهم التي سيأكلها الدود ، ويقسمون أن القاتل هو الشاب فرحات ، زميل عويس وصديقه الحميم ، وأحد الذين كان يعتمد عليهم عويس في صراعه مع الحاج موسى وعصابته من الأشرار ..

وجاءت الشرطة والنيابة ، واكتشفت أن البندقية التي قتلت عويس مدفونة في أرض حديقة فرحات . الأدلة كاملة . عشرة شهود رأوا القاتل . سلاح الجريمة موجود . كل شيء يؤكد أن القاتل فرحات ..

ولكن الأب أبو علي لم يصدق أن القاتل فرحات .. كان يعرف القاتل . كان واثقا أن الحاج موسى هو الذى قتل ابنه الحبيب .. انه يذكر أن الحاج موسى هدد ابنه ونصحه أن يترك القرية كلها « وإلا فلن يحصل طيب » . وسخر عويس من تهديد الحاج موسى وقال له « ان ورائي رجالا » ! ها هو ذا أخرجه من الحياة كلها ، تخلص منه لينفرد بالأرض وبشلبية !

وتشجع الأب أبو علي ، وذهب الى عمدة القرية وقال له انه يتهم الحاج موسى بقتل ابنه . وسخر منه العمدة وطرده .

وذهب الى ضابط النقطة وقدم اليه البلاغ . فهاج فيه الضابط وقال له : لقد شكرني الحكمدار لأنني أمسكت بالقاتل ، فكيف تجيء الآن لكي تنسف خطاب شكر سيادة الحكمدار .

ولجأ الأب الى وكيل النيابة ، فاستدعى الحاج موسى ، الذي أحضر شهودا يقسمون على المصحف بأنه كان في قرية أخرى عندما وقعت الجناية ، واقسم شهود آخرون بأن الحاج موسى امتلأت عيناه بالدموع عندما سمع بمصرع عويس !

وأصر الأب على أن القاتل الحقيقي هو الحاج موسى ..

وبدأ التحقيق من جديد .. واذا بالأب يفاجأ بأن الشاب فرحات صديق ابنه الحميم قد اعترف بأنه القاتل ! وأنه قتله لأنه كان ينافسه على حب شلبية ! ولم يكن الأب ليصدق هذا الاعتراف ..

وجاءوا له بفرحات أمامه فإذا به يقول في مواجهته انه فعلا قتل عويس ، لأنه نافسه على قلب شلبية !

ولكن قلب الأب لم يصدق هذا الاعتراف الصريح . قلبه يحدثه أن فرحات بريء ، شلبية نفسها قالت له ان فرحات كاذب ، وانه على العكس كان يبارك هذا الحب ويؤيده ويشجعه ويتستر عليه .

وتصور الأب أن أهل القرية الذين طالما وقف الى جوارهم عويس ودافع عن حقوقهم سوف يقفون معه ضد القاتل الحقيقي ..

ولكنه فوجيء بهم جميعا يتخلون عنه .. لقد غربت شمس عويس . لم يعد في استطاعته أن يهب لنجدتهم .. أن يحارب معاركهم .. أن يمنع الحاج موسى من أن يقطع عنهم المياه . انهم عادوا كما كانوا قبل ظهور عويس : يرهبون الحاج موسى ، يخشون طغيانه ، يرتعدون من جبروته . وهم بينهم وبين أنفسهم يرفضون أن يعترفوا بأنهم جبناء يخافون من بطش الحاج عويس ، وإنما يوهمون أنفسهم أن الحاج موسى مظلوم ، وأن الأب أبو علي مجنون .. ان الكارثة هي التي جعلت الأب يفقد عقله ، وهو لهذا يريد أن يبرىء القاتل الحقيقي فرحات ، ويتهم الحاج موسى البريء الطيب الذي حج الى بيت الله الحرام !

وأصبح أبو علي يتطلع في وجوه أهل القرية في دهشة وذهول ! هل

يمكن أن يكون هؤلاء الذين كان يراهم كل يوم في جامع القرية يؤدون الصلاة ، ويتجهون بعيونهم الخائفة الى الله ، ماذا جرى لهم ؟ كيف نسوا الله فجأة ! ان الحي أبقى لهم من الميت . الظالم الحي أنفع من المظلوم تحت التراب ! ولكن كيف يتبدل الناس بين يوم وليلة ؟ كيف تحولهم القوة الى عبيد ، ويحولهم الخوف الى شهود زور ؟ كان ابنه عويس يتباهى بأن وراءه رجالا . أين هم هؤلاء الرجال ؟ لم يبق في القرية من الرجال سوى شلبية ، أنها وحدها هي التي لاتزال تصرخ وتقول أن الحاج موسى هو القاتل !

القرية كلها تخلت عنه . لم يعد أحد يصدقه . كل القرية نسيت مافعله عويس من أجلها بل انهم بدأوا يؤلفون عنه القصص والأقاويل والاشاعات . بدأوا يقولون أن عويس لم يكن بطلا . انه لم ينتصر للفلاحين الضعفاء . ان المسألة كلها كانت خناقة غرامية على حب شلبية أجمل فتيات القرية ! ان الحاج موسى هو البطل الحقيقي .. هو الذي اعترض على أن يغري عويس شلبية . ان الحاج موسى كان يدافع عن عرض كل امرأة في القرية ضد عويس لص الأعراض .

وذهبت شلبية الى بيت أبو علي تبكي وتنتحب . ان أباها يرفض أن تقيم مأتما للرجل الذي أحبته ، يرفض أن تزور قبره كل يوم . وهي في فجيعتها تلوم هي الأخرى حبيبها عويس وتقول :

ـ لو أن عويس ترك الحاج موسى يعتدي على باقي الفلاحين ، ويقطع عنهم المياه ، ويسرق مواشيهم ، وينهب محصولاتهم ، لبقي حيا مثل باقي الفلاحين ! لو أنه أغمض عينيه لنال حقه وأكثر من حقه ، ولكنه فتح عينيه ، وجعل كل فلاحي القرية يفتحون عيونهم .. وماذا كسبنا الآن من فتح عيونهم ..

انه ما كاد يموت حتى عادت القرية تغمض عيونها من جديد ! حتى هذه التضحية ذهبت هباء ! ليته أغلق عينيه وعاش !

ولم يهتم أحد بما تقوله شلبية . القرية أصرت على أن هذا كلام مجانين . شهود الزور انفسهم تصوروا أنهم شهود حق . ألم يعترف فرجات أنه القاتل . حتى الذين خبأوا البندقية في أرض فرحات

أصبحوا مع تكرار ترديد الأكذوبة ينسون أنهم شركاء القاتل الحقيقي .. فعندما يمشي موكب الضلال في زفة ، تتوارى الحقيقة خجلا ، وتخفي وجهها ، كأنها أصبحت فضيحة . الأكذوبة عندما تركب حصاناً ، وتتقدمها الطبول والمزامير ، تركع الحقيقة أمامها ، لأنها تتحول الى أسيرة ، الى عبد رقيق ، جارية لا قولة لها ولا سلطان . ينكرها الذين يعرفونها ، كما تنكر الاغنياء لأقاربهم المعدمين ..

وعرضت القضية على محكمة الجنايات .. وتقدم شهود الزور يدلون بأقوالهم ، واقترب الأب أبو علي من القفص وهمس فى أذن المتهم فرحات : لماذا اعترفت كذبا ؟ وتلفت فرحات حواليه ، وقال بصوت مرتعش : ضربوني في المركز ، وقالوا لي يجب أن تعترف بأنك القاتل ، والا فسوف تفسد خطاب الشكر الذى أرسله سعادة الحكمدار الى حضرة الضابط .

واقتحم أبو علي وعانق فرحات وهو يصرخ بأعلى صوته :

- فرحات مظلوم . والله مظلوم . القاتل هو ...

وقبل أن ينطق باسم القاتل أطبق عليه رجال الشرطة، وصاح أهل القرية الذين يملأون قاعة المحكمة :

- مجنون .. مجنون : هل رأيتم قبل الآن أبا يعانق قاتل ابنه الوحيد ؟ القاتل الذي قتل ابنه من أجل شلبية !

وصاح رئيس المحكمة : أخرجوا هذا المجنون من قاعة الجلسة .

وأصدرت المحكمة حكمها على فرحات بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة ..

وعاد أبو علي الى القرية يتعثر في دموعه . عاد يكلم نفسه . أطفال القرية يزفونه في أزقتها : « المجنوه اهُه .. المجنون اهُه » . أليس المجانين يحدثون أنفسهم ، ألا يمشون ذاهلين مثله ؟ يتخبطون في سيرهم مثله . من يعلم .. لعل مستشفى الأمراض العقلية مليء بألوف مثله .. ظلموا كما ظلم وأغلقت في وجوههم كل أبواب العدالة كما حدث له .. ودخل بيته وهو يلطم وجهه وفزعت زوجته مبروكة لمنظر زوجها وسألته ما به .

قال لها : ابني عويس .. مات ..

قالت : نعم مات من تسعة شهور ..

قال : لا انه مات اليوم فقط .. اليوم رايته قتيلا في المحكمة . الذي قتله قتله أمامي في ساحة المحكمة .. كل هذه الشهور لم أشعر انه مات .. كنت اعتقد انه سيعيش ما عاشت العدالة . عندما تمسك العدالة بالمجرم الحقيقي سوف أشعر أن ابني لم يمت .. المبادىء التي حارب من أجلها لم تمت . ولكن اليوم فقط عندما حكمت المحكمة بالسجن على البريء وتركت القاتل حرا رايت ابني شهيدا ، ورأيت العدالة قتيلةً امامه .

وجلس أبو علي على الأرض .. دفن رأسه بين يديه . أشعل سيجارة . راح يتفرج على حلقات الدخان . ان حياة ابنه عويس مثل هذا الدخان ، طارت . لم يبق منها أي شيء . حتى قصص البطولة تطايرت في الهواء ..

ووقف على قدميه كأنه اعتزم أمرا .. اتجه الى بندقيته المعلقة في الحائط .. تقدم نحوها .. لمسها . ثم تردد وسحب يده ، وفتح المصحف وراح يقرأ بعض الصفحات ، ثم قام وصلى صلاة المغرب .

وجلس على الأرض من جديد ، ودفن رأسه بين يديه ، ثم سمع دق الطبول ، وأصوات الفلاحين ينشدون من بعيد :

البنت السمرة .. شلبية ..

الحلوة أم عيون عسلية ..

قمورة .. وخفة .. وغندورة ..

والقلب ماحبّش غير هيّه ..

وتذكر أبو علي أن اليوم هو يوم زفاف حبيبة ابنه شلبية الى قاتل ابنه عويس ! ان جرائم الحاج موسى لاتنتهي ،، لايكفيه أنه قضى على ابنه عويس . لم يكفه أنه قضى على صديق ابنه فرحات . ولكنه الليلة يرتكب جريمة قتل أخرى .. قتل شلبية .. انه يعرف أن شلبية لاتزال تحب ابنه عويس . حتى بعد أن دفنه في التراب . اننا أحيانا نشعر أن الموتى أحياء ، والأحياء موتى .

ويجز أبو علي على شفتيه ويتساءل : ولكن لماذا لم تقاوم شلبية أكثر مما قاومت ؟ لماذا لم تصر على الرفض . في الماضي نجحت في المقاومة لأن عويس كان بجانبها . كان الدرع الذي يحميها . كان السلاح الذي تشهره . كان عمودها الفقري ولكنها أصبحت بغير درع وبغير عمود فقري .. كانت قلعة يصعب اقتحامها لأن عويس كان سور القلعة وأبوابها . والآن هي بغير سور ولا أبواب . اننا نستطيع أن نصمد في المحن اذا وجدنا قلبا نستند اليه ، أو حبا نركن اليه . ولكن يوم نفقد الحب ويضيع منا الحب نتهاوى ، ويسهل كسرنا ، الذين لاعمود فقري لهم يمشون منحنين ، لأنهم لايستطيعون أن يصلبوا قامتهم ، أو يرفعوا رؤوسهم .

نعم لقد قاومت شلبية ولكنها قاومت وحيدة فركعت ، ثم انكفأت على وجهها ، ثم داستها قوة أبيها الذي كان يعرف جيدا أن الحاج موسى هو القاتل ، وكان يخشى لو صمدت ابنته أن يقتلها ويقتله معها . ومن هنا لم يرحم دموعها . فضل أن يدفنها حية في منزل الحاج موسى مع زوجاته الثلاث ، على أن يدفنها جثة في احدى مقابر القرية .

وعاد أبو علي يتساءل : ولكن أين أهل القرية الذين أحبوا عويس وأحبهم عويس ؟ هل انشقت الأرض وابتلعتهم ؟ أين كان الذين يشجعون عويس وهو يقاوم ، ويهنئونه وهو ينتصر ، ويشيدون به كلما استطاع أن يوصل اليهم المياه بعد أن قطعها عنهم الحاج موسى ؟ كيف مشوا في زفة القاتل ، وتركوا جنازة القتيل ؟ كيف زغردوا في فرح الظالم ولم يبكوا في مأتم المظلوم ؟ صدقت شلبية .. لو أن ابنه لم يحارب من أجل هؤلاء المظلومين لكان الآن هو العريس .. ولكان الأب أبو علي يستقبل المهنئين يوزع عليهم أكواب الشربات . هل كان يجب على عويس أن يسكت .. أن يترك زراعة مئات الفلاحين تموت من أجل أن يعيش هو ؟ هل كان يجب على عويس أن يسد أذنيه بالأمس فلا يسمع أنين المظلومين ، ليسمع في يوم ما زغاريد فرحه هو ؟ هل كان يجب على عويس - لكي يعيش - أن يموت ضميره ؟ ولكن كيف ينسى أهل القرية كل مافعله عويس ؟ انهم يذكرون الجبناء الذين لم يدخلوا المعركة وينسون

الشهداء الذين ماتوا من أجلهم . المجد للذين بقوا والعار للذين ذهبوا ! ..

ولكن لماذا يلوم أهل القرية لأنهم لم يفعلوا شيئا ؟ ماذا فعل هو ؟ وتطلع أبو علي الى بندقيته المعلقة الى الحائط ، وكأنه يتحدث اليها . ثم اتجه اليها وضمها الى صدره وكأنه يعانقها ، ومشى في خطوات بطيئة في الظلام الى الفرح .. وأصوات الدفوف والزغاريد تمزق أذنيه ..

وتعالت أصوات الدفوف ، وارتفعت أصوات الزغاريد ، وفهم أبو علي أنها لحظة الدخلة وقد اعتاد الفلاحون أن يرفعوا أصواتهم بالزغاريد في هذه اللحظة ليخفوا صراخ العروس لحظة ازالة بكارتها !

ولكنه لم ير منديل البكارة تلوح به أم العروس .. بل رأى شلبية وهي تحمل سكينا كبيرا تلوح به ، والدم يتساقط من السكين .. وماكادت ترى أبو علي حتى ارتمت في صدره وهي تقول :

- موش أنا اللي قتلته ياعم أبو علي .. دي البلد هي اللي قتلته ! ..

وعرف أبو علي أن شلبية أرادت أن تغسل عار القرية ، التي لم تتحرك لتثأر للشاب الذي دافع عنها ، فقررت أن تتحرك هي نيابة عن القرية .. وأغمدت في صدره السكين في اللحظة التي أراد أن يدخل بها ! قتلته وهو يترنح من السكر ومن نشوة الانتصار ..

وحكمت المحكمة بالسجن المؤبد على شلبية ، وأودعت فى سجن القناطر ..

وانتهى المسجون فرحات من رواية القصة الغريبة ثم قال لي :

- أنا سيفرج عني بعد ١٤ سنة ، وشلبية سيفرج عنها بعد ١٥ سنة طبقا للعفو عن المسجون المحكوم عليه بالمؤبد بعد ١٥ سنة .

ثم نظر الي وفي عينيه توسل غريب .

- أريد منك خدمة : أريد أن تكتب باسمى خطاباً الى شلبية تعرض عليها الزواج ، بعد أن يفرج عنها بعد ١٥ سنة ..

قلت : إذن كان صحيحا أنك كنت تحبها ؟

قال أبدا .. انني أحببتها الآن بعد أن أعادت الى قريتنا شرفها .

وكتبت الخطاب الذي طلبه فرحات ، ووقع عليه ببصمته لأنه لايعرف القراءة والكتابة ..

ودهشت بعد أسبوعين عندما جاء فرحات الى زانزانتي متهللا وقدم لي ورقة مكتوبا فيها ما يأتي :

« سأنتظرك ١٥ سنة »

الامضاء شلبية

ترى هل سيعيش الحب في الزنزانة ١٥ سنة ؟

لست أدري !

فاطمة رشدي في السجن !

ليمان طرة في ٣ اغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزتي

أخشى ما أخشاه أن تجيء خطاباتي اليك كليالي الشتاء ، ولكني أعرف قيمة خطابي لكم ، لأنني أعرف قيمة خطاباتكم لي .

لو رأيت عيون المسجونين وهم يستقبلون المسجون الذي يوزع الخطابات ، كأنه ملاك نزل عليهم من السماء . كل مسجون يسرع اليه ، ويسأله هل يحمل له خطابات جديدة ؟ سحنة المسجون السائل تنقلب من السعادة الى البؤس ، ومن الأمل الى اليأس ، مع كل كلمة تخرج من فم هذا الملاك الذي يحمل خطابات المسجونين . وهذا المسجون لايشبه الملائكة . ليس له أجنحتها ، وليس فيه ملامحها . انه مسجون محكوم عليه بتهمة القتل ، ومع ذلك فالخطابات التي يحملها تحوله في عيون المسجونين الى ملاك جاء من السماء ! انه يحمل في يده عواطف الزوجات ودموع أمهات وأشواق أبناء ولوعة عاشقات . والمسجون ينتظر من أهله أن يقولوا له أشياء كثيرة لا يقولونها ومع ذلك يسعد بهذه التحيات الساذجة . يقرأ أسماء أولاده وكأنه يقبلهم . ويلتهم تحيات زوجته وكأنه يعانقها . ويحس من سلامات معارفه وأهله أنهم يزورونه ويتحدث اليهم .

بعض الخطابات أشبه بالتلغرافات ، ولكن المسجون يقرأها كأنها مجلدات يقرأ فيها كلمات لم تكتب ، ويفهم عبارات لم تدون ويتصور أشياء لم تخطر على بال الكاتب العمومي الذى كتب لأهله الخطاب ! هذه الخطابات حوار . وكثيرا مايكون هذا الحوار من طرف واحد ، لأن المسجون لايستطيع أن يكتب الا مرتين كل شهر . انهم أحيانا يحدثونه عن أشياء نسيها ، أو ينسون أن يجيبوا على أسئلة سألها . وعندما يكتب المسجون خطابا يتمنى أن يطير هذا الخطاب الى أعزائه

بجناحين ، فهو يتتبع خطواته وخطوات الخطاب . هل وقع عليه الضابط ؟ هل خرج من العنبر ؟ هل خرج من البريد ؟ هل خرج من الليمان ؟ انهم يشعرون أن الخطاب هو ولد من أولادهم يخشون عليه من زحام الطريق . يخافون أن يدوسه أوتوبيس . يجزعون أن يتوه ويضل العنوان . ومن هنا فإن بعضهم يكتب خطاباته مسجلة حتى يضمن وصولها الى أهله . وبعضهم لايملك ثمن طوابع بريد الخطاب المسجل ، ويبيع طعامه ، أويحرم نفسه من شراء طعام يشتهيه ليشتري طوابع كافية ، يضعها على الخطاب المسجل أو الخطاب بعلم الوصول .

وبعض ضباط السجن قساة القلوب غلاظ الأكباد يتعمدون تأخير امضاء الخطابات أياما وأحيانا أسابيع بحجة أنهم مشغولون فيما هو أهم ، أو يقولون انهم وضعوا نظاما ألا يوقعوا الخطابات إلا في يوم ١٥ ويوم ٣٠ كل شهر ، فإذا كتب المسجون خطابا في أول الشهر بقي الخطاب مسجونا في مكتب الضابط الى يوم ١٥ في الشهر !

وبين المسجونين فريق المنتظرين . هؤلاء الذين ينتظرون بغير جدوى وصول خطابات أحبائهم . يسألون عن الخطابات في الصباح والظهر ، في الأيام العادية وفي الاجازات والأعياد ، ولكن الخطابات لاتجيء . وترى في عيونهم الحسرة . انهم جوعى الى خطاب .. الى كلمة .. الى شيء يربطهم بالحياة . أعرف واحدا منهم كان يكتب لنفسه خطابات وهمية ، يعرضها على زملائه مفاخرا مباهيا ، يحاول أن يخدعهم أن له أهلا يسألون عنه ويهتمون به ويتشوقون اليه . وزملاؤه يعرفون من خط الخطابات أنها بخطه هو ، ولكنهم يشفقون عليه أن يخرجوه من الجنة الموهومة الى جهنم الحقيقة .. جهنم النسيان ..

انتهز ضابط إنسان فرصة مبيته أمس فى الليمان وسمح للمسجونين في العنبر أن يتفرجوا على التليفزيون . كان يعرض فيلما قديما منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، واسمه « الصراط المستقيم » بطلته فاطمة رشدي ويوسف وهبي . بدت فيه الطرابيش التي اختفت ، وموضات الفساتين التي تغيرت ، والدنيا التي تبدلت . ولاحظت أن المتفرجين من المسجونين الشباب كانوا يسخرون من فاطمة رشدي ، ويهزأون من

تمثيلها ، ويضحكون من دموعها ، وكثيرون منهم راح يسأل من هي فاطمة رشدي ؟

ولم يعرف هؤلاء ، انهم قبل أن يولدوا ، كانت هذه المرأة التي يسخرون منها هي ممثلة المسرح الأولى في الشرق . كانت الجماهير تهتف لها في الشوارع وكأنها أحد الزعماء السياسيين ! كانت تدخل العواصم العربية في مواكب الغزاة الفاتحين . كانت فتاة أحلامنا ونحن تلاميذ .

أذكر أنني وأخي كنا نصدر ، وعمرنا ١٤ سنة ، مجلة اسمها « التلميذ » وكانت فاطمة رشدي هي فتاة الغلاف في كل عدد من أعداد المجلة ! وكانت تقيم للطلبة حفلات نهارية بأسعار مخفضة . وأطلقت عليها أنا اسم « صديقة الطلبة » وأعجبها الاسم فكانت تضعه تحت إعلانات مسرحها التي كانت تغطي جدران كل الشوارع . ورأت فاطمة المجد والشهرة ، ورأت الغنى الباذخ والفقر المدقع . وكانت في وقت من الأوقات تنزل في الجناح الملكي في فندق جورج سانك في باريس ، ثم جاءت أيام كانت تعيش في غرفة في بدروم وتعجز ستة أشهر عن دفع ايجارها الزهيد .. كانت صاحبة أكبر فرقة مسرحية في مصر ، وكانت تدفع عشرات الألوف من الجنيهات مرتبات لأكبر الممثلين والممثلات ثم أصبحت تعمل ممثلة مع فرق تلاميذ المدارس وتتقاضى خمسين قرشا في الليلة . هاجمها يوما ناقد مسرحي هجوما ظالما ، وخلعت حذاءها وضربته في شارع عماد الدين . ووقفت كل صحف مصر ومجلاتها ضدها ، تهاجمها وتلعنها وتسخر منها ، ولكنها انتصرت عليها كلها . وكان مسرحها يمتلىء يومياً بالمتفرجين ، وكأنهم يردون على الصحف التي كانت تلعنها كل يوم .

وذات مرة أهداها أحد أصحاب الملايين سوارا ثمنه ألف جنيه ذهبا ، ورفضت أن تضع السوار في يدها ، وفضلت أن تبيعه وتنفق ثمنه على مسرحها ، ليستمتع جمهورها بمسرحيات ممتازة . ضحت بكل شيء من أجل الفن حتى سعادتها الشخصية ، حتى أسرتها داست عليها ، حتى حبها . وأذكر أنها قالت لي مرة أنها تفكر في الانتحار ونصحتها ألا

تنتحر ، وأن تعيش وتقاوم . واستمعت فاطمة لنصيحتي وعاشت ..
ولعلها الآن تلعنني لو أنها ماتت في تلك الأيام لشيعت في جنازة رسمية ،
لمشى مئات الألوف وراء جثمانها ، لاشترك في الموكب الكبراء والوزراء ..
ولنشر نعيها بالعناوين الضخمة في الصفحة الأولى . وعندما ستموت
اليوم لن تجد ثمن الكفن ، ولن تجد القبر الذي تدفن فيه ..

وسيحمل نعشها فاعل خير ، في موكب ليس فيه سوى النعش .
وسيتساءل المارة من هي المرحومة ؟ وسيقول قائل هي فاطمة رشدي .
ويستغرب الكثيرون ويسألون من هي فاطمة رشدي ؟

هكذا كانت أفكاري وأنا أشهد الفيلم في التليفزيون ، كنت أتفرج على
رواية أخرى لم يشهدها الذين يجلسون معي ، وكنت أرى خاتمة للقصة
قد لايراها أحد سواي .

***

من سوء حظ النجوم أنهم لايعرفون الموعد المناسب لإسدال
الستار !

زئير الصامتين

٨ اغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزي

أنت ساخط .. وزملاؤك الصحفيون ساخطون .

في حياتي اليومية في السجن أسمع زملائي المسجونين الساخطين على الحياة الذين طلقتهم زوجاتهم ، والذين تنكر لهم أقاربهم والذين نسيهم أصدقاؤهم . كل واحد من هؤلاء يمسك في يده ميكروسكوبا يضخم له عذر من أحبهم في يوم من الأيام . مثل هؤلاء أحاول أن اقنعهم بوجهة نظري في الحياة . لايجوز أن نحكم على كل الناس بجريمة فرد واحد . أنا أؤمن أن الأغلبية العظمى للناس طيبون ، ولا يجوز أن يحكم الواحد منا على ملايين البشر لأن عشرة أشخاص أساءوا اليه . تماما كأن تركب طائرة الى ستوكهلم عاصمة السويد ، وتنزل في بيت أسرة زنجية ، ثم تعود الى القاهرة متصوراً أن كل أهل السويد من الزنوج !

تجربتي مع الحياة أكدت لي أن الأرض مليئة بالناس الطيبين . رأيتهم في كل مكان وفي كل مستوى ، وفي كل بلد . الذين أحسنوا الي أضعاف الذين أساءوا الي . حتى الذين أساءوا الي أحاول أن أجد لهم المبررات والأعذار .

ليس معنى أنني بذرت بذرة ولم تنبت أن أترك الأرض كلها صحراء ولا أزرع فيها شيئا . انني أحيانا أبذر بذرة في أرض ، فتخرج الثمرة في مكان آخر غير مكان البذرة الذي زرعتها فيه . لولا إيماني بأن الخير في الأغلبية الساحقة للناس ، لكرهت الحياة . ولكني أحب الحياة لأنني أحب الناس . كل الناس .. بمزاياهم وعيوبهم . وعندما يسيء انسان الي لا ألومه ، بل أحاول أن أعرف سر ما فعل ، أحاول أن افلسف الاساءة ، ثم أتذكر أنني مدين الى ألوف لم أعرفهم ، ولم أخدمهم . المثل يقول « اعمل الخير وارمه في البحر » وهو مثل جميل . الخير لن

يغطس أبدا في البحر ولن يغوص في الأعماق . انه مثل قطعة الفلين يعوم . اذا غرق الواحد منا في بحر الزمن فسوف يجد قطعة من الفلين يتعلق بها . قد لاتكون قطعة الفلين التي ألقاها هو في البحر . لعلها قطعة فلين ألقاها شخص آخر وبحث عنها في نفس المكان الذي رماها فيه فلم يجدها عندما سبح في البحر ! حبي للناس يجعلني أحس أنني لست محروما من شيء . نعم حرمت من أسرتي الصغيرة ، وعوضني الله فجعل كل المسجونين حولي ، هم أسرتي الصغيرة ، أمنحها حبي واهتمامي . أفرح لفرحها وأشقى لشقائها . وليس مهما أن أتقاضى من الناس حبا يساوي الحب الذي أعطيه لهم ، فالحب ليس تجارة ، تأخذ ثمن ما تدفع ، انما الحب عاطفة لذتها أن تعطي .

وفي بعض الأحيان أتصور أنني أطلب من بعض الناس أكثر مما يستطيعون أو يتخيلون ، ذلك أن الله أعطاني حبا عظيما هو حب الناس ، وهو شيء قد أكون استمتعت به وحدي .. ربما أضعاف ما تمتع به الذين لم يعرفوا حلاوة حب الناس كما ذقتها ، ولم يلمسوا وفاء الشعب كما لمسته . وعندئذ أعذر من لايعرفون قيمة الحب .. كيف تطلب من الذي لم يذق طعم الخوخ أن يصف حلاوته ، ومن لم ير شكله أن يصف جماله ! كل واحد منا أمسك في يده وردة وجرحه شوكها . بعضنا نسي الشوك ولم ينس جمال الوردة وعبيرها ، وبعضنا نسي كل شيء عن الوردة ولم يذكر سوى الدم الذى سال من أصابعه !

ويبدو أن نظرتي الى الحياة تختلف عن نظرة كثير من الناس . بعض الناس يتصور أننا محكوم علينا جميعا بالاعدام ، ولا نعرف موعد تنفيذ الحكم . وأرى أنه من الخطأ أن تنظر الى الدنيا هذه النظرة المتشائمة . الحياة جميلة جدا . ونحن نصنع حياتنا بأيدينا ، وايماننا وحده هو الذي يجعل حياتنا جنة .. فإذا لم نعرف الله عرفنا الجحيم ..

تقول لي في خطابك انك وتلاميذي تعيشون في ظلام . ليل ليس له نهار . سجن بغير باب . حياة بلا أمل . تكتبون كآلات الكتابة يدق عليكم الحاكم بأصابعه ، فتتحرك حروفكم وتكتب ما يريد ! أنا متفق معكم في أن هذا ما يحدث لكتاب وصحفيين عندما يتحولون من حملة

أقلام الى حملة مباخر ، ومن قادة رأي الى قادة مظاهرات تهتف بحياة الحاكم فوق صفحات الصحف . ولكنني لا أحاسبكم وانما أحاسب الذين وضعوا السلاسل التي في أيديكم . لا ألوم ألسنتكم البكماء وانما ألوم الذي قطعها . لا أستنكر أيديكم المرفوعة استسلاما في الهواء ، وانما أستنكر المسدسات التي يصوبها الطغاة على رؤوسكم .

أنا أعرف أن أعصابكم مرهقة ، فإن الدوامة التي تعيشون فيها قادرة على أن تتلف أقوى الأعصاب . أعرف أن كل شيء قاحل حولكم ، وأنكم تعيشون في صحراء قفراء ليس فيها واحة واحدة من الحرية ، وأن كل مايقال غير ذلك هو سراب لخداع السذج وأطفال الصحافة . ولكني مؤمن أن الله لن يتخلى عنكم . اني اشتريت ورقة يانصيب هي المستقبل !.. الجائزة الأولى في هذا اليانصيب هي الحرية الكاملة ! قد لا تكسب « البريمو » .. ولكني مؤمن أننا لا بد أن نكسب بعض الحرية ! المهم ألا تيأس ولا تتصور أن صراخ الطغاة هو زئير الأسود ، وانما هي أصوات الذئاب في الغابة ! لا تصدق أن الاستبداد كسب معركته الأخيرة ، فهذه الحرب سوف تستمر ، بين خصوم الحرية وأنصارها ، الى أن ترتفع أعلام الحرية وتنكس أعلام الاستبداد . ايماني هذا لا يتزعزع . لا يستطيع أن يحطمه السجن ولا الوحدة ولا سوء المعاملة ولا النهار الحزين ، ولا الليل المليء بالهموم . أنا أعرفكم ، انكم تشعرون جميعا في أخبار اليوم كأنكم لا تقيمون في أي مكان . كأنكم واقفون في محطة تنتظرون قطارا لا يجيء . تسائلون أنفسكم هل أنتم تقفون في محطة الانتظار أم هي محطة الوصول . تنظرون حولكم فتجدون أن كل شيء كئيب . مظلم . معتم . الاقلام في أيديكم قيود ، الصحف في أعينكم جثث ، الأعمدة مشانق تعلق فيها الكلمات . الأخبار ، نشرات العلاقات العامة في كل وزارة ، الآراء هي رأي الحاكم وحده بلا شريك . المانشيتات هي اسمه يتكرر في كل صباح كأنه واجب مفروض على كل من يشتري جريدة . الصور كلها لرجل واحد هو الذي يبتسم ويفكر ويقف ويجلس ، ويسافر ويجيء !

هذا يحدث دائما في كل بلد تذهب فيه صحافة الشعب وتجيء صحافة الحاكم .

انني على ثقة أن أزمة الصحافة مؤقتة . هذه القيود تزعجنا ولكنها لن تقتلنا . ستبقى أصابعنا تأكلنا لنحمل الأقلام التي تتحول في يوم من الأيام الى مشاعل للحرية . ايماننا بالغد لا يجوز أن يضعف أبدا . الصحافة لا بد أن تبعث حية . لو قطعوا لسانها فسوف يولد لها ألف لسان . يجب أن نشعر جميعا أننا أقوى من الأزمات .. أقوى من المحن .. أقوى من قيودنا وأغلالنا . ثقتي بكم تجلعني اعتقد أنكم قادرون على أن تمشوا فوق الشوك . لقد مشيتم في السنوات الأخيرة فوق النار . النار جعلت جلودكم أكثر احتمالا .. المشي فوق الشوك أصبح أسهل كثيرا !

اكتبوا بأقلامكم « المقصوفة » .. اذا انتزعوا منكم الأقلام فاكتبوا بأصابعكم .. لو قطعوا أصابعكم فالقوا بالنكت ! لو انتزعوا ألسنتكم فاخرجوا صامتين .. ربما يكون الصمت أعلى صوتا من الزئير !

لا بد أن تنتصر الحرية !

اذا لم تستطع أن تكتب الآن فى السياسة فاكتب فى الجريمة ! كم من الجرائم ترتكب في السياسة الآن !

اذا لم تستطع أن تكتب فى الجرائم أكتب قصصا للأطفال !

قد يفعل الأطفال في الغد ما عجز عنه الرجال بالأمس !

على بلاج ليمان طرة !

١٢ اغسطس سنة ١٩٦٧

صديقي ...

لا أشعر في هذه الأيام برغبة في الكتابة . الحبر جف في قلمي . روحي أصابها الصدأ . كأنني كنت أسبح في البحر . وواجهت العواصف والأنواء . وأنا لا إكف عن السباحة . ثم فجأة توقفت . هل تجمدت يداي فلا تتحركان ؟ هل شعرت أنني اقتربت من الشاطىء فتركت جسمي للتيار يحمله معه ؟ لست أدري . هل افرغت كل ماعندي ولم يعد لدي ما أقوله ؟ على العكس . ففي قلبي وراسي وروحي أشياء كثيرة ، أكثر مما قلتها ، أريد أن أقولها ، ولا أعرف لماذا لا أقولها . لماذا لا أمسك القلم وأكتب . القلم كان دائما حبيبي . كان حضن « الأم » في نفسي . كلما شعرت بضيق أو فرح أسرعت الى هذا الحضن أدفن فيه رأسي . الآن لا أفعل ذلك . ربما لأن الطفل قد كبر وشاخ . ولكن لم أشعر بعد بالكبر والشيخوخة . المحن والآلام جددت شباب روحي . أعيش في السجن شبابي المبكر الذي حرمت منه . حياة ليس فيها مسؤولية . ولا كفاح شاق . ولا عرق مستمر . اجازة طويلة .. طويلة جدا . روحي أشبه بجسد مستلق على شاطىء الزمن . أرقب مياه البحر وأمواجه في استرخاء . أستمتع بالشمس وهي تسبح في البحر وتغرق فيه . بذلة السجن في المايوه الذي أرتديه وأنا ارقد على الشاطىء ! كنت أشبه بقبطان باخرة كبيرة . كبيرة جدا . تسع ملايين الركاب . كنت اشعر طول عمري كأنني المسؤول الوحيد عن هذه الباخرة .. كل عطل فيها .. كل ثقب . وهكذا لم أستطع أن أنام أو أستريح أو اهدأ . كل حياتي كانت قلقا .. لا أخرج من عاصفة الا لأدخل في عاصفة أخرى . ثم هأنذا راقد على البلاج . بلاج ليمان طرة . أرقب البواخر وهي تمشي أمامي .. وتختفي وتغيب . كرهت البطالة طول حياتي . لم أستمتع يوما بمقعد

المتفرج . كنت اتمنى أن أموت فوق سفينتي ، أو أغرق معها . ولكن الظروف شاءت أن أجد نفسي مسترخيا على رمال بلاج الزمن ، مثلي مثل الوف الكسالى الذين يمضون اجازاتهم راقدين على رمال بلاج المعمورة والمنتزه .

أرقد على البلاج وارى بلدي يغرق !

وأنا مقيد بالسلاسل لا أستطيع أن أشترك في انقاذها !

التقيت هذا الأسبوع بأولادي . لقاء السلك حطم أعصابنا . بكاء ابنتي هزني . تماسكت حتى لا أبكي معها . خرجت سريعا من الغرفة . أحسست بأن أولادي يشعرون بالهوان لأن الأوامر جاءت بأن تتم زيارة المسجونين السياسيين من وراء السلك شأن القتلة واللصوص ! الذين يضربوننا بالسياط لا يعرفون كم تؤلمنا . لعلهم يتصورون أنهم يربتون بسياطهم على ظهورنا ! آثرت أن لا اكتب اليك حتى تهدأ نفسي ويخف عذابي . الذين عاشوا طول حياتهم في حب وحنان وفي دنيا من الرحمة والعاطفة يرتعشون في جو أوامر الحكام الصارمة التي لا قلب لها . ما أصعب الانتقال من دفء الانسانية اللذيذ الى برودة الوحشية القاتلة ! هل يجيء يوم يذوق فيه هؤلاء القساة معنى السجن وقسوة الزنزانة وعذاب لقاء الأولاد في الليمان ؟

الحياة في السجن ليست فترة للتكفير ، بل هي فترة للتفكير . لا عمل لنا الا أن نفكر . خلايا عقولنا تتحرك بين القضبان أسرع مما تتحرك في الحياة العادية . دوي الحياة خارج السجن تجعل خلايا عقولنا تبطىء ، ننشغل بأمور الدنيا وحركتها السريعة حولنا . الذين يمشون على أقدامهم يفكرون أكثر من الذين يركبون سيارة . والذين يركبون سيارة يفكرون أكثر من الذين يركبون طائرة . والذين يركبون صاروخا لا يفكرون الا في الصاروخ ، ونحن في السجن لا نمشي ، وانما نتوقف والزمن يمر أمامنا . وأحداث الزمن لا تجري بسرعتها العادية ، فهي عندما تمر أمامنا تبطىء .. تتعثر . تتمهل .. كأنها موكب المسجونين المقيدين بالسلاسل يمشي في طابور . ويتوقف المسجون لتفتيشه . لنتحسس كل جزء في جسده .. لنعرف مايخفيه . ذكرياتنا تمشي أمامنا

كهذه الطوابير . لا تنتهي . تذهب وتجيء ومن هنا لا ننسى الأحداث ، لأنها تمر أمامنا عدة مرات . عرفنا أسماءها .. عرفنا وجوهها عرفنا ماتخفيه من ممنوعات في طيات أسرارها . كلما حاولت أن أنسى زادت حدة ذاكرتي . أشياء كثيرة في حياتي كنت نسيتها ، فإذا بها تعود بكل تفاصيلها وكل دقائقها . كل كلمة قيلت . كل لفتة . كل ابتسامة . كل دمعة . كل حركة . كل لحظة صمت . لم تعد الحياة تحسب بالسنين ، أصبحت تحسب بالأيام ، ثم بالساعات ، ثم بالثواني .. كل كلمة تقود الى كلمة . أمور تافهة لم اتصور انني اتذكرها . تفاصيل طواها الزمن . أحاديث عابرة . كل هذا أصبح يتوقف أمامي كما يحدث في السينما عندما يثبّتون صورة في الفيلم بلا حراك . فيترك لي هذا فرصة أكبر لأتبين أشياء لم اتبينها وحياتي تنطلق بسرعة الصاروخ .

الجوعان يحلم بسوق العيش . والمحروم من الحرية يحلم بحريات لا حدود لها . مصيبتي أنه لا يعيش في داخلي شخص واحد كباقي الناس . في داخلي أشخاص كثيرون : الصحفي والمسجون والكاتب والسياسي والفنان . كل واحد من هؤلاء له شخصية ، وله تاريخ حياة ، وله ماض وحاضر ومستقبل ، وله أفكار واحلام . وهم يتناقشون ويتعاركون داخل روحي .. يختلفون باستمرار ، ولكنهم يعيشون معا . أسمع أصواتهم كأن كل واحد منهم يريد أن يربحني لنفسه ، ولكني مقسم بينهم جيمعا . تائه . حائر . عزائي أنهم جميعا يحبون شيئا واحدا هو الحرية .

عندما تمر أمامي ذكريات حياتي أتصور أنني أشبه بامرأة في استعراض أزياء . عارضات الأزياء يمشين أمامها . كل شيء فيهن جذاب وجميل ورائع . كل ثوب أنيق وفتان . وهي حائرة أي فستان تختار . تتمنى لو استطاعت أن تأخذ الأثواب كلها .

وهكذا أنا لا أعرف ما أريد أن آخذ من ذكريات أيامي ولياليّ وما أدع ، أريدها كلها . بكل ما فيها من الوان وأشكال وأنواع . أثواب الصباح وبعد الظهر والسهرة ! الأثواب الطويلة والقصيرة .. المغلقة والمفتوحة .. المايوه وفستان السواريه .

كل ذكرياتي في حياة الحرية حلوة حتى دموعي .. ليالي القلق .. الأرق والسهاد ! ما أحلى طعم الأشياء التي كانت توجعني في الحرية . وما أمر الأشياء التي أصبحت تسعدني في زنزانتي !

ذكرياتي في الحرية تبدو أحيانا كالبلسم يشفي جراحي ، وتبدو أحيانا كالخنجر يغمد في صدري . ولكن طعنة الخنجر تبدو لذيذة رائعة مثيرة . هذه الذكريات تقاوم الوحدة والسجن والموت . هي نوافذ أطل منها على الماضي وأطل منها على المستقبل . وهي قوى خفية تمنحني قدرة على المقاومة والصمود أمام المحن . انني لا أنوء بما أحمل من ذكريات الماضي . هذه الذكريات لا تجعلني أسقط تحت ثقلها وضخامتها . بل أنطلق الى أحلام المستقبل .

أخيرا صرحت لي مصلحة السجون اليوم بقراءة جريدة مصرية واحدة ومجلة أسبوعية واحدة . وقد كان منع الصحف عن المسجونين السياسيين عقب الهزيمة كارثة ما بعدها كارثة .. وكانت عملية تهريب الصحف الى داخل السجن أشبه بتهريب الحشيش والأفيون ..

بيني وبينك .. ان الصحف المصرية في هذه الأيام هي حشيش وهي أفيون .

ولا أعرف متى « نفوق » ..؟

جحيم التعذيب

ليمان طرة في ٢٧ اغسطس سنة ١٩٦٧
عزيزتي ....

كنت أول مسجون رأى الأستاذ الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين ، عندما أتوا به الى عنبر واحد بليمان طرة . رايته في غرفة ضباط العنبر يرتدي بذلته العادية . ثم طلب منه الضابط ان يخلع بذلته العادية ليرتدي ملابس السجن . لم يعترض الهضيبي . لم يطلب اخلاء الغرفة من المسجونين . خلع ملابسه ببساطة . ارتدى ملابس السجن . كانت بذلة السجن كبيرة عليه . كانت ممزقة قذرة . ولم يتافف الهضيبي ولم يحتج . نزعوا منه الساعة وقلم الحبر والمصحف ! وكنت أنا المسجون السياسي الوحيد الذي يعرفه الهضيبي من قبل ، فقد حقق معي وهو رئيس نيابة الاستئناف في بلاغ قدمته الحكومة ضدي في عام ١٩٣٩ وكانت التهمة عجيبة وهي أنني هاجمت هتلر والحكم النازي . ومن عجائب القدر أن الحكومة أعلنت على هتلر الحرب بعد ذلك بشهور ! .. وكان الضهيبي يفيض رقة وأدبا وهو يحقق معي ، وكان يبتسم ساخرا من التهمة ، وقال لي ان الحكومة أمرت بالتحقيق لأن سفير المانيا احتج وأنها أرادت ارضاءه بالتحقيق !

وكان من الطبيعي أن أتصل به في زنزانته التي كانت تبعد عن زنزانتي في الطابق الرابع بزنزانتين . وكانت التعليمات مشددة بألا أكلمه ولا يكلمني . وألا اقترب منه ولا يقترب مني . وكنا نستطيع دائما أن نلتقي سرا في غفلة من ضابط العنبر ومن الحراس . ورفض وزير الداخلية ان يضع الهضيبي في مستشفى السجن على الرغم من أنه في السبعين من عمره ، وأنه مريض بعدة أمراض ، ورفضوا أن يصرفوا له مرتبه ، فنام على البلاط ، وأعطوه بطانيتين ممزقتين قذرتين ، وتعاون المسجونون السياسيون فاشتروا له بطانيتين نظيفتين !

وفوجئت بقرار من وزير الداخلية يمنع تحويل أمانات باسمه ، فلائحة السجون تسمح بأن تحول الأسرة خمسة جنيهات أو عشرة جنيهات شهرياً للقاتل أو للص أو تاجر المخدرات ليشتري ما يحتاج اليه من سجائر ومأكولات .. ولكن الهضيبي المستشار السابق بمحكمة النقض والابرام لم يسمحوا له بمليم واحد .

وتعاون المسجونون السياسيون واشتروا للهضيبي صابونة ليستحم بها ! واشتروا له بعض علب سجائر بلمونت ليدخن ، وليدفع أجر النوبتجى الذي يحمل له جردل البول من الطابق الرابع الى دورة المياه في الطابق الأول . وكان الهضيبي يريد أن يحمل بنفسه جردل البول ، ولكننا أشفقنا عليه وعلى صحته من هذا الهوان .

وكانت المأساة الكبرى أن جميع المحكوم عليهم من الاخوان المسلمين وفي قضية حسين توفيق ممنوعون من كتابة خطابات الى أسرهم أو تلقي خطابات من أسرهم ، وممنوعون من زيارتهم .. ومكثوا ثلاث سنوات لا يعرفون عن أسرهم أي شيء !

وكان الهضيبي مهتما بأن يسأل عن أسرة كل مسجون من الاخوان المسلمين ولم يكن يسأل عن أسرته هو ..

وسألته لماذا لا تحاول أن تتصل بأسرتك ؟

فقال : أنا آخر واحد ..

ورتبت مع أصدقائي خارج السجن الاتصال مع السيدة الفاضلة زوجة الهضيبي بواسطة احدى كريماته الدكتورة سعاد الهضيبي .

وكانت المهمة صعبة .. فقد كان بيت الهضيبي مراقبا ، وتليفونه مراقبا ، وكل فرد من أفراد أسرته تحت الرقابة الشديدة ..

ومع ذلك استطعنا أن نقيم شبكة اتصالات سرية مستمرة ، واستطاع الهضيبي أن يرسل رسائل مستمرة الى زوجته ويتلقى أنباءها باستمرار ويحصل على ما يحتاج اليه من أدوية وبعض الملابس الداخلية ، فقد كانت ملابس السجن الداخلية التي صرفت له ممزقة وخشنة كملابس المتسولين !

وقال لي الهضيبي ان اسرته كلها كانت في السجن . ولم يكن يضيق

بأن أولاده أحمد أسامة الهضيبي المهندس ومحمد مأمون الهضيبي المستشار بمحكمة الاستئناف واسماعيل حسن الهضيبي المحامي وابن عمه محمد سليمان الهضيبي وأولاد شقيقه أمين الهضيبي ونجيب الهضيبي في السجن ، ولكنه كان يضيق بأنهم وضعوا زوجته في زنزانة في السجن الحربي ، ووضعوا في زنزانة ثانية السيدة خالدة الهضيبي والسيدة علية الهضيبي . وكانت علية عند القبض عليها في أيام حملها الأخير ، ولم يهتموا بذلك ، ولم يجدوا في السجن الحربي مكانا لولادة النساء ، وخافوا من الفضيحة لو نقلوها لتضع في مستشفى عسكري . وعندئذ أفرجوا عنها ..

وذكر لي الهضيبي انه تقرر القبض على الطيار يحيى حسين ، وتسرب اليه الخبر ، فاستقل طائرة وهرب الى السودان ، وعندما جاءوا ليقبضوا عليه لم يجدوه ، فقبضوا على زوجته السيدة غادة عمار ، وطلبت هي عند القبض عليها أن تأخذ معها طفلتها الرضيع التي كان عمرها خمسة أشهر لتتم رضاعتها في السجن ، ورفضوا ووضعوها في زنزانة بالسجن الحربي رهينة الى أن يسلم زوجها نفسه ! وقال انهم قبضوا على شقيقته بهية الهضيبي حرم الحاج محمد سليمان الهضيبي وهي فلاحة ريفية وقبضوا على زوجها وابنها . وذكر الهضيبي أنهم قبضوا على الحاجة زينب الغزالي ، وهي في الستين من عمرها وأنهم مشوا بها في ساحة السجن الحربي بين المسجونين من الاخوان المسلمين الذين كانوا معلقين كالذبائح ، وانها خاضت في جثث المسجونين السياسيين ، وفي أشلائهم الممزقة والتي كانت مفروشة على رمال السجن الحربي ! وانها كانت تسمع صراخهم وتقول لهم : صبرا يا أبنائي .. ان موعدكم الجنة .. صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة ..

وذكر الأستاذ المرشد انهم ضربوا زينب الغزالي وأهانوها ووضعوها في زنزانة مظلمة مع أكثر من عشرة كلاب .

وروى بعض حراس السجن الحربي للمرشد ان اللواء حمزة البسيوني قائد السجن الحربي أمر أحد الحراس بأن يدخل زنزانة الحاجة زينب الغزالي ويغتصبها ، وصدع السجان بالأمر ودخل

الزنزانة وحاول أن ينفذ الأمر فصرخت فيه الحاجة زينب :

ـ أنا مثل أمك !

وعندئذ تراجع السجان ، وذهب الى اللواء البسيوني وأخبره أنه رأى امرأة في السبعين من عمرها ، ولما صرخت فيه « أنا مثل أمك » لم يقو على تنفيذ الأمر ، وعندئذ أمر اللواء حمزة البسيوني بقطع جهاز السجان التناسلي . وتولى أحد أطباء السجن تنفيذ هذا العقاب الذي لا مثيل له في العالم !

وكان الأستاذ الهضيبي يروي هذه القصة وهو يبكي !

وقص علي الأستاذ الهضيبي أن بين نزيلات السجن الحربي عروسا قبض عليها بعد أن مضى على زفافها ثلاثة أيام . وهذه السيدة هي عروس سيد نزيلي العواضة من كرداسة ولها قصة عجيبة ، فقد ذهب البوليس الحربي الى قرية كرداسة بمحافظة الجيزة ليقبض على سيد نزيلي العواضة من شبان الاخوان المسلمين ، ولم يجدوه ، ووجدوا عروسه فقبضوا عليها ، وصرخت وولولت ! وسمع الأهالي صوت صراخها فتصوروا أن عصابة جاءت تخطفها ، واجتمعت القرية كلها رجالا ونساء وضربوا ضابط الشرطة العسكرية وجنوده فولوا هاربين ، وفي اليوم التالي جاءت فرقة من الجيش برياسة الفريق أول محمد فوزي والجنود بملابس الميدان والمدافع وحاصروا القرية ، وقبضوا على جميع من فيها من نساء ورجال ونقلوهم الى السجن الحربي ، وأوقفوهم في ساحة السجن الحربي ، وأمروا كل زوجة بأن تركب فوق زوجها وتبصق على وجهه . ومن ترفض ينهالون عليها بالسياط ، ثم راحوا يضربون الرجال بالسياط أمام زوجاتهم وبناتهم وأمهاتهم . واستمر هذا التعذيب اليومي أكثر من شهر ! ثم حلقوا « فردة » حاجب من عين كل رجل في كرداسة وتركوا الحاجب الآخر . وحلقوا « فردة » شنب من الناحية الأخرى ، وتركوا فردة الشنب الآخر ، وأطلقوا اسم امرأة على كل رجل في القرية وضربوا بالسياط كل رجل لا يجيب اذا نودي باسم امرأة !

وبين العرائس المقبوض عليهن في السجن الحربي حميدة قطب ،

وقد تمت خطبتها وهي مسجونة معنا في الليمان من الاخوان المسلمين . وعروس زميلي المسجون معنا في الليمان الطيار محمد ضياء الطوبجي . وجميع سيدات أسرة سيد قطب والسيدة أم أحمد وهي في الثمانين من عمرها ..

وأحضروا عبدالحميد البورديني وطلبوا منه أن يعترف بأنه عضو في المؤامرة فلم يعترف . فقبضوا على زوجته وابنته وعذبوهما أمامه حتى يعترف ولم يعترف .

وأمروا الزوجة بأن تمسك السوط وتضرب زوجها .. فرفضت .. فانهالوا على عبدالحميد بالسياط أمام زوجته حتى أسلم الروح .

وروى بعض اخوان محافظة الدقهلية للأستاذ الهضيبي قصة مأذون قرية البيضا الشيخ محمد عبدالمقصود العزبي الذي بلغ من العمر فوق السبعين عاما ، وكيف قبضوا عليه هو وأولاده الأربعة وزوج ابنته .. وبدأوا يضربون الأولاد أمام أبيهم ويعذبونهم فلم يعترف ..

وقبضوا على ابنتيه وجاءوا بهما الى السجن الحربي ..

وقال له أحد ضباط التعذيب :

ـ سأستمتع الليلة بابنتك الكبرى .

وقال الضابط الثاني : لا أنا الذي سأبدأ !.

وقال الثالث : أنا دوري بعد كمال .

وقال الرابع : أنا سأستمتع بالصغرى .

وصرخ المأذون : إنني مستعد أن أوقع لكم على كل ماتريدون . وكانت الابنة الصغرى المقبوض عليها عمرها ١٣ سنة !

وكان المنظر في السجن الحربي يفتت الأكباد . شبان من خريجي الجامعات لا يستطيعون السير على أقدامهم من شدة الضرب فيزحفون على بطونهم . رجال يتوكأون على آخرين . مقعدون يحملهم زملاؤهم الى دورات المياه . وجوه مشوهة ومخضبة بالدم .. كأنهم مئات من الجرحى والأشلاء بعد معركة حربية رهيبة ..

وروى بعض الاخوان للأستاذ الهضيبي كيف أمروهم بأن يلعقوا أسفلت السجن الحربي بألسنتهم .. وينظفوه بلعابهم لأنه لا توجد مياه

للنظافة في السجن .. واضطروا أن يخضعوا ـ وبينهم أستاذ في الجامعة ـ لهذا الهوان !

وفقد بعض المسجونين السياسيين عقولهم . وأصيب آخرون بانهيار عصبي .. والسعداء منهم أصيبوا بالشلل أو بالصمم أو بالعمى ..

وكان كثيرون من المسجونين يذهبون الى رئيس النيابة الذي يحقق معهم محمولين فوق نقالات ..

وقال الأستاذ الهضيبي انه يعتقد أن كل هذه الجرائم سوف تتكشف في يوم ما على الرغم من أن المسؤولين في السجن الحربي يقولون لكل مسجون يخرج من السجن سوف نذبحك اذا فتحت فمك وتكلمت عن التعذيب ..

وقال انه يعتقد أنه سيجيء يوم تنتصر فيه العدالة ، ويصدر أمر بالتنقيب في الجبل بجوار مدينة نصر عن جثث عشرات من المسجونين السياسيين ماتوا أثناء التعذيب ، وأعلنت الحكومة أنهم هربوا من السجن .

وقال لي انه كقاض يؤمن بأن هذه القضايا لا يمكن أن تسقط بالتقادم .. وسوف يجيء يوم تتكلم فيه أشلاء الضحايا المدفونة في الصحراء ، اذا لم يتكلم الشهود الذين رأوا هذه الجرائم ..

وقال الاستاذ المرشد أن شابا اسمه محمد الفيومي كان من حرس الرئيس عبدالناصر ، وكان من الاخوان المسلمين ، وكان أحد أبطال الرماية .. وانه اتهم كذبا بأنه سيقتل عبدالناصر . بينما كان الفيومي على بعد أمتار قليلة من عبدالناصر لمدة أربع سنوات كاملة ، ولو كان يريد قتله لقتله بسهولة . وأراد البوليس الحربي أن يرغمه على الاعتراف بأنه كان سيقتل عبدالناصر ..

وأصر الشاب على أن هذا كذب .. وقال انه من الاخوان المسلمين فعلا ، ولو كان الاخوان طلبوا منه أن يقتل عبدالناصر لقتله ، ولكن أحدا منهم لم يطلب ذلك .. واستمر التعذيب والضرب بالسياط والتعليق . والضرب بالأحذية حتى أسلم محمد الفيومي الروح . ولفوه ببطانية

ووضعوه في سيارة ودفنوه في صحراء مدينة نصر وأعلنوا أنه هرب من السجن الحربي ..

ومن الطريف أنهم قدموه الى الدجوي وهو ميت فحكم عليه بالسجن ١٥ سنة وهو ميت !

وروى الاخوان قصة محمد منيب عبدالعزيز ، أمين مكتبة كلية العلوم بجامعة أسيوط . لقد ضبطت الشرطة العسكرية عنده خطابا فيه جملة « خذ بالك من الكتاكيت » .

وأصر المحققون الأذكياء على أن المقصود بالكتاكيت هم أعضاء الجهاز السري في أسيوط ..

وطلبوا من منيب أن يذكر لهم أسماء الكتاكيت .

وحاول منيب أن يثبت لهم أنه يربي فى بيته كتاكيت فعلا ولم يصدقوه واستمروا يضربونه الى أن أسلم الروح ، ولفوه في بطانية وحملوه في سيارة بكس فورد الى صحراء مدينة نصر ، ودفنوه في رمال الجبل .

إنني أشك كثيرا في أن الشعب يعرف واحدا من ألف من هذه الحقائق البشعة .

كل الاشاعات وكل المبالغات لم يخطر ببالها أن بعض المصريين يفعلون بالمصريين كل مافعلوه ..

وأنا أعتقد أنه لو كانت الصحافة حرة لعرف الناس كل شيء ولظهر كل ما أسدلوا عليه ستار الصمت ..

بل لو أنه كانت هناك حرية صحافة لما جرؤ أحد على أن يرتكب واحدا من الف من هذه الجرائم ..

ولكني متفق مع الأستاذ الهضيبي في أن الحقيقة لا يمكن أن تضيع ، وأن الظلام لن يستمر الى الأبد . وسوف يجيء يوم يعرف الناس فيه بعض ما جهلوه ، ان لم يعرفوا كل ما جهلوه !

صديقي القاتل !

٣٠ اغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزتي ...

صدر أمر وزير الداخلية بألا اقابل أولادي وأسرتي في مكتب الضابط كما جرت العادة ، وإنما تتم المقابلة من خلال السلك ! فأقف في غرفة تشبه قفص القرود في حديقة الحيوانات ، وتقف أسرتي بعيدة عني نصف متر ويفصلنا عن بعضنا سلك غليظ . .

وصدرت هذه التعليمات المشددة بعد هزيمة ٥ يونيه ، كأنهم يعاقبوننا نحن عن الهزيمة التي ارتكبوها هم .

إنني سعدت بزيارة أولادي ، بالرغم من أنني لم ألمسهم بسبب السلك الغليظ . لم أضع شفتي على خدودهم بسبب السلك الغليظ . لم اتبين أصواتهم بسبب بعد المسافة . ولكني أحسست بهم تحت جلدي . لم اشعر أنني في قفص في حديقة الحيوانات . لم أجد فارقا بين الوقوف في هذا المكان الضيق الخانق ، وبين الجلوس معهم في فوتيل ضخم في شقتي في الزمالك . كنت اشعر أنني أسترخي وأنا واقف . الضوضاء التي حولي لم أسمعها . الأسلاك لم تفصلنا . لم أكن أراها . نحن الذين نضع الأسلاك بيننا وبين الناس . ان هذه الأسلاك من أوهامنا وليست من الحديد . انني رأيتها أشبه بخيوط وهمية مثل خط الاستواء .

لقد فقدت اليوم محمد أحد زملائي في العنبر ..

انه مسجون لا يقرأ ولا يكتب . هو فلاح . فيه شهامة الفلاح المصري ورجولته . انه من أكثر الذين عرفتهم أمانة وإخلاصا ..

انه قاتل وهو صديقي .

ولقد اخترته لأخفي عنده الورق والقلم لأنني ممنوع من الورق والقلم . ووثقت به لأنه مظلوم . وقد اخترته لأنني حرصت على أن تكون العصابة التي الفتها هنا لهريب الخطابات من المظلومين ، المظلوم له قضية ، وهو عندما يدافع عن مظلوم يشعر انه يدافع عن نفسه ..

ولهذا فليس من السهل أن نشتري مظلوما ، أو أن يخون مظلوم زميله المظلوم .

وقضية محمد عجيبة ..

كان عمل خفيرا في احدى العزب .. ثم قتل بعض الناس ابنه الشاب وقبض على القاتل ، ثم ظهر أنه صاحب نفوذ وسلطان في القرية ، ولم يجرؤ أحد في القرية على أن يشهد ضده فبرأت المحكمة القاتل ..

وفي كل ليلة كانت زوجة محمد تقول له : انتقم من الذي قتل ابنك .. اقتله كما قتل ابنك .

وكان يهدىء ثورتها ويقول لها ان الله هو المنتقم .

وفي كل ليلة كانت الأم الثكلى تحرض محمد على أن ينتقم لابنه .. وهو يرفض ويطلب منها أن تهدأ أو تنام ..

وذات ليلة لم تنم الأم . قامت من فراشها في منتصف الليل وأخذت بندقية محمد وخرجت من البيت .

وسمع محمد وهو في فراشه دوي طلق ناري . ثم رأى باب بيته يفتح وتدخل زوجته حاملة بندقيته .. وبعد دقائق سمع أصواتا تدق على باب بيته وتصيح : القاتل دخل الى هذا البيت .. اننا رأيناه وهو يدخل حاملا بندقية ..

وفتح محمد الباب وهو يحمل بندقيته وقال :

ـ أنا القاتل ..

ولم يكن هو القاتل . انما أراد أن يترك الأم لترعى باقي أولاده وتربيهم .

وحكمت عليه محكمة الجنايات بالسجن ١٠ سنوات ، قبلها راضيا سعيدا ..

وهذا هو السبب الذي جعلني أختار محمداً ليكون المخبأ الذي أخفي فيه أوراقي ، ولا يخطر ببال أحد أن يبحث في زنزانته عن أوراق لأنه لا يقرأ ولا يكتب .

وقد خرج من السجن في العفو لمناسبة انقضاء نصف العقوبة وبقدر أسفي على فراقه كان فرحي بالافراج عنه . لقد كان يعيش يحسب كل

ساعة باقية للافراج . وعندما جاء قرار الافراج كاد يفقد عقله . كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . تحول الى شبح يائس .

ومن الطريف ان كل مسجون نوبتجي ينزل معي يفرج عنه ! حدث هذا لأربعة نوبتجية في سجن الاستئناف ، ولاثنين في سجن القناطر ، وسابعهم في سجن ليمان طرة .. ولو استمرت هذه القاعدة مطردة فسوف أطلب من كل مسجون نوبتجي يعمل معي عدة علب سجائر مقابل عمله عندي !

انني أمضي أغلب وقتي في الزنزانة . انني أستريح الى صمتها . الجدران صامتة . الأطباق والادوية فوق المائدة صامتة . السرير صامت . ان الصمت يطل من كل مكان حتى من النافذة المفتوحة . الصمت له رائحة غريبة . انها تشبه أحيانا رائحة الموت . وتشبه أحيانا رائحة الحياة . ولكن مع ذلك أستريح في هذا الصمت . انني في صمتي هذا أسمع صوت دوي الدنيا . ان السكون الذي أعيش فيه لا يجعلني انسى أن الدنيا تسير بسرعة هائلة . سرعة تجلعني أدوخ في بعض الأحيان ، وانا أحاول أن أتابع الأحداث وهي تمضي متلاحقة . وفي هذا الصمت أسمع حياتي تتكلم . ان الأشياء الضخمة فيها لا تثيرني . والأحداث الهائلة فيها لا تهزني . إن تاج الصحافة الذي كان فوق جبيني كان ثقيلا على رأسي . وضربات المطارق على جبهتي لم تجعلني أترنح . انتصاراتي لم تبهرني . وهزائمي لم ترعبني . ان أشياء صغيرة كانت تسعدني وتشقيني . كانت تفرحني ابتسامة أستطيع أن أرسمها على شفاه محرومة . كانت تعذبني دمعة لا أستطيع أن أمسحها من عين مظلوم . لم أنس أبدا يدا امتدت الي بالخير . وأنسى كل يد امتدت نحوي بالاساءة . انني دائما أجد أعذارا للناس ، واذا لم أجد لهم أعذارا اختلقت لهم الاعذار والمبررات ! ولا أشعر في وحدتي داخل الزنزانة أنني منبوذ . ان متاعبي وآلامي لا تدخل معي الى الزنزانة . انها لم تسجني وانما انا الذي أسجنها خارج زنزانتي . أتجول بعيني أحيانا داخل الزنزانة فأجد أن كل ما فيها يتنهد . الكرسي يتنهد . الترموس يتنهد . كوب الماء يتنهد . ويخيل لي أن السرير الذي يحتويني

يتنهد أيضا . وأتطلع الى السرير الحديدي الأبيض ، وأحاول أن اترجم تنهداته . احاول أن أجعل سريري يحدثني عن الذين ناموا فيه قبلي . كم ظالما ؟ وكم مظلوما ؟ كم بريئا وكم مجرما ؟ كم مريضا وكم متمارضا ؟ كم عاش منهم وكم مات ؟ كم ناموا ملء اجفانهم وكم بقيت عيونهم سهرانة لا تنام ؟ كم اغمضوا عيونهم ليحلموا وكم فتحوها وتخيلوا الأحلام ؟ كم عدد الذين ارتعشوا من البرد القارص وكم الذين عرقوا في الصيف اللعين ؟

من حسن الحظ أن السرير ليس له لسان : فسوف تكون كارثة لو كانت كل السراير لها السنة تحكي وتتكلم وتذيع الأسرار . أن سريري هو أقرب صديق لي في السجن . انني أعيش معه أضعاف ما أعيش مع اي صديق آخر .

انني انام فيه ، وأستعمله كمقعد ، وأستعمله كسرير ، وأستعمله كمائدة طعام ، وأستعمله كمكتب ، فإنني اقرأ فيه الكتب المهربة والرسائل المهربة والصحف والمجلات المهربة . وهذا السرير اشبه ببساط الريح . انه يحملني الى انحاء العالم . وأشعر احيانا انه تعب معي . ان من عادتي أن اتعب الذين احبهم واستريح إليهم . انا مثلا في بيتي توجد عشرات المقاعد . ولكن مقعدا واحدا في غرفة المكتب كنت أستريح فيه . كنت أشعر انه احن علي من أي مقعد آخر . كان في مسنديه الخشبيتين وفي وسادته القطنية عواطف وحنان وحب أكثر من اي مقعد آخر في البيت كله .

والناس أشبه بالمقاعد والأسرة . فنحن لا نجلس في أجمل مقعد ولا في أغلى مقعد . ولكننا نحب المقعد الذي نستريح فيه .

بعض الناس اشبه بالأم في لعبة الاستغماية التي كنا نلعبها ونحن أطفال . عندما كنا نعدو الى مكان الام يتوقف الأطفال الذين يحاولون امساكنا عن اللحاق بنا . ان هذا هو مكان الأمان ، عندما يصل اليه يذهب الخوف .

وأنا اشعر أن أصدقائي وزملائي هم الام التي اجد فيها الأمان .. هم المقعد الذي يريحني . وانجعص فيه ، وأمد ساقي واسترخي ..

ولكن هذا المقعد اصبح بعيدا عني . لا أستطيع أن المسه ، الا أنني مع ذلك أحس براحة لأن هذا المقعد موجود . لم يؤمم . لم يوضع تحت الحراسة . لم يدخل السجن . اشعر أن روحي تجلس فيه ، تتجعص ، تستريح ، تشعر أنها في أمان .

واحيانا احس انني لا ازال ألعب الاستغماية ، لا ازال أجري والظلم يجري خلفي ، ومع ذلك اشعر باطمئنان الى أن الأم موجودة . الغريب انني كثيرا ما أشعر أن هذه الأم ليست أصدقائي وحدهم ولا تلاميذي وحدهم .. بل الشعب كله .

واحس أن هذا المقعد المريح الكبير سوف يحتويني في يوم من الأيام وسوف يحميني .

وفي أحيان أخرى احس اننا نلعب لعبة عسكر وحرامية .

وأن التغير الوحيد هو أن الحرامية هم الذين يجرون وراء العسكر ، وأن اللصوص هم الذين يطاردون الأشراف ، وانه سيأتي يوم يعتبرون كل رجل شريف خارجا على النظام ، وكما اعتبروا قبل ذلك كل رجل يؤدي الصلوات الخمس بانتظام متآمراً لقلب نظام الحكم .

الهضيبي مع الكلاب في زنزانة واحدة

ليمان طرة اول سبتمبر ١٩٦٧

عزيزتي ...

في حوالي الساعة الثامنة صباحا يفتح السجان باب زنزانتي . انها مغلقة الباب منذ الساعة الرابعة مساء أمس .. أخرج أتمشى بعض الوقت الى أن يتم اعداد افطاري . وهو مكون عادة من البيض والجبن والعيش الناشف . وقد عودت نفسي على عيش السجن . كان من أكبر الأزمات التي صادفتني منع الثلج عني . مع الوقت عودت نفسي على الماء الفاتر . كنت أتصور أن الحياة مستحيلة من غير ماء مثلج ، ثم اكتشفت أنه بعد أن تحرم من الحرية تستطيع أن تحرم من أي طعام أو شراب دون أن تشعر بضيق . بعد الافطار أعود الى التمشي مع المسجونين العاديين .

كان قد صدر أمر الا اختلط ولا اتحدث مع اي مسجون ، والا اغادر الطابق الرابع . وبقيت أسبوعين في داخل زنزانتي لا اخرج منها . ومع ذلك لم أشك ولم أحتج ولم أتذمر ثم صدر أمر وزير الداخلية بأن أمشي مع المسجونين العاديين ولا أمشي مع المسجونين السياسيين .

وصدر أمر آخر بناء على الحاح الأطباء بأن أذهب يوميا لعمل تحليل البول ، وعمل اشعة على العمود الفقري مرتين في الأسبوع ، وكانت هذه الرحلة اليومية تريحني كثيرا ، ثم صدر الأمر بالا أذهب الى المستشفى سوى ثلاث مرات في الأسبوع . ثم صدر الأمر بأن أذهب مرتين فقط . ثم أصدر وزير الداخلية أمرا بالا أذهب الى المستشفى على الاطلاق . ثم احتج الأطباء وقالوا أنه كان يجب على وزير الداخلية أن يصدر قرارا وزاريا بشفائي من أمراضي قبل أن يصدر قرارا بمنعي من الذهاب الى مستشفى السجن . وتردد أن الصحف الأجنبية ستكتب عن هذا القرار العجيب ، وعندئذ صدر أمر وزير الداخلية بأن أذهب الى مستشفى السجن كل يوم .

واخرج من المستشفى وأعود الى العنبر . ولا أتضايق من صعودي درجات سلم الطوابق الأربعة ، رغم مرضي بالنقرس والروماتيزم ، فإنني اذكر في كل مرة ، كيف كنا نصعد معا سلالم أخبار اليوم الى الطابق التاسع . ثم يغلق باب زنزانتي عند الظهر لمدة ساعتين ويسمون هذه الفترة التمام . وفي هذه الفترة أقرأ ما عندي من كتب مهربة أو صحف مهربة . ثم يفتح باب الزنزانة فأعود الى التمشي أمامها الى أن يجيء موعد فسحة العصر فأنزل الى فناء العنبر لأتمشى نصف ساعة ، الى أن تحين الساعة الرابعة بعد الظهر فأعود الى الزنزانة ، وتقفل ابوابها ، وعندئذ أتناول غدائي الذي هو عشائي في نفس الوقت . وكم تمنيت في الماضي أن ألغي طعام العشاء حتى يخف وزني . وكنت قبل دخولي السجن أفشل في هذه المحاولة . ونجحت في الغاء العشاء وأنا في السجن تطبيقا لمبدأ ضرورة الاستفادة من الكوارث ..

وعندما أنتهي من غدائي أرقد في فراشي وأستمع لإذاعة السجن فأسمع بعض الموسيقى والتعليق على مباريات الكرة ، ونشرة الأخبار والتعليق السياسي . وأنا أهتم بالتعليق السياسي لأنني أعلم أن الرئيس عبد الناصر هو الذى يكتبه بنفسه . إذ يضع خطوطه العريضة . وطبعا أشعر بضيق بسبب قرار وزير الداخلية بمنع الصحف والمجلات العربية والأجنبية عني ، ولهذا ألجأ الى عملية التهريب المضنية ، وعملية اخفاء هذه الممنوعات الخطيرة حتى لا يضبطوها أثناء التفتيش اليومي .. ومع ذلك لا يمر الوقت بسرعة . وكنت أمضي بعض الوقت في اعادة قراءة خطاباتكم . ولكن صدرت تعليمات الا أحتفظ الا بخطاب واحد في زنزانتي ، وسوف أسلم أسرتي الخطابات التي عندي . لأنني أعتبرها خطابات تاريخية . وسوف أعود اليها في يوم من الأيام . وإنني أطلب منكم أن ترتبوها وتنظموها بحيث يطلع عليها المؤرخون ، فإنها تشرح فترة خطيرة في تاريخ مصر .. أعتقد أن مئات الكتب سوف تؤلف عنها ، ولا أعتقد أن كثيرين يجرؤون على أن يكتبوا مذكرات صريحة عنها . وعندما أضطر الى تمزيق خطاب من خطابات تلاميذي وأصدقائي أشعر كأنني أمزق من قلبي .. ولقد فكرت أن أكتب قصة

جاري المسجون في زنزانة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين . وهي قصة شائقة لا اظن أن أحدا يعرفها ..

قال لي :

عندما كنت طالبا في مدرسة الحقوق كنت أعيش وحدي في مدينة القاهرة . كان ذلك في أوائل القرن الحالي . وكنت أبحث عن بيت أسكنه ، ولكنني كنت أضطر أن أعزل من كل شقة أسكنها ، لأن ساكنات البيت كن يطاردنني ! وكنت شابا مؤمنا عفيفا أخشى الله . ومضيت الى حي السيدة زينب أبحث عن شقة خالية في بيت ليس فيه نساء . وكنت أمر على حارة اسمها حارة الشيخ سليم ، ولا أدخلها . لانني لم اتصور أن فيها شققا خالية . وفجأة رأيت رجلا على ناصية حارة الشيخ سليم فسألت : هل توجد هنا شقق خالية ؟

فقال الرجل : نعم يوجد هنا شيخ طيب مؤمن مدرس عنده شقة فاضية .

وذهبت الى هناك ، وطرقت الباب ، ففتحت لي فتاة الباب ، فاستغفرت الله وقررت أن أعود أدراجي . وأحرجت من نظرتها البريئة فقلت : هل عندكم شقة خالية ؟ قالت : نعم .

فقلت : ومن هو صاحب البيت . قالت : أنا ..

وأردت أن أتراجع ، ولكن رفعت عيني واكتشفت أن البنت صغيرة ولا خوف من الفتنة منها .

ثم اقبل والدها الشيخ ، واستأجرت منه سلاملك البيت .

وإذا بي أكتشف أنني أحببت هذه الفتاة الصغيرة من أول نظرة .

ولكن لم اقابلها ، ولم اكلمها . ومكثت ست سنوات أسكن في هذا البيت ، وأنا سعيد بأنني بقرب هذه الفتاة التي لم أكن ألمحها الا طيفا .

وكان يعجبني في هذه الفتاة أنها تصلي ، وأمها تصلي ، ووالدها يصلي . وكنت أنا ضد سفور المرأة .

ثم حدث أن أصدر قاسم أمين كتابه الذي يدعو فيه الى السفور . ولم أقرأ هذا الكتاب ..

وانما قرأت الاتهامات التي انصبت على قاسم أمين في الصحف وتحمست ضد الكتاب وضد السفور..

واقيمت مناظرة في مدرسة الحقوق عن السفور .. ووقفت أنا في المناظرة أعارض السفور بعنف ..

وبعد ذلك سألني أحد زملائي الطلبة : هل قرأت كتاب قاسم أمين ....؟

فقلت : لا ..

فنصحني أن أقرأ الكتاب ، وقرأته وذهلت ، ووجدت أنه ليس في كتاب قاسم أمين أي خروج عن الشرع ولا عن الدين ..

ثم سافرت الى بلدي .واذا بأخي يقول لي ان فلانة بنت صاحب البيت الذي تقيم فيه في القاهرة قد تقدم لخطبتها الدكتور محجوب ثابت ..

فانزعجت ، واسرعت أتقدم الى خطبتها ، وقبل والدها . وتمت الخطبة ، وكان أول ما فكرت فيه أن أرسل لها كتاب قاسم أمين لتقرأ فيه .

ثم أصدر قاسم أمين كتابه الثاني « المرأة الجديدة » فأهديته لها .

وأهديت لها كتاب التربية الاستقلالية الذي ترجمه عبد العزيز محمد .

واستمرت خطبتنا ست سنوات ، لا أراها ولا تراني ، ثم حصلت على الليسانس وتزوجتها .

وفي يوم الزفاف لاحظت أنها وضعت على وجهها قليلا من البودرة .

فقلت لها : ليس هذا هو الوجه الذي أحببته ..

فذعرت .. فقلت لها : انني أحببت وجهك كما خلقه الله .

فأسرعت وغسلت وجهها . ولم تضع بودرة أو مساحيق على وجهها منذ ذلك اليوم ..

وقبل أن أدخل بها دعوتها أن نصلي معا شكرا على هذا الزواج ..

وعادة يبدأ العرسان ليلة زفافهما بالقبلات ، ولكنهما بدآها بالصلاة ..

وقال لي الأستاذ الهضيبي انه وهو طالب دخل الجمعية السرية التي تألفت سنة ١٩١٠ للاغتيالات ، واقسم اليمين الخاصة بعضويته

للجمعية ، ثم قتل ابراهيم الورداني رئيس الوزراء بطرس غالي باشا ، وقبض على عدد من أعضاء الجمعية وتفرق أعضاؤها . وترك حسن الهضيبي الأعمال السياسية ، وتفرغ للمحاماة ، واختار أن يكون محاميا في مدينة سوهاج ..

وعاد الهضيبي يقول لي :

ـ كان من رأيي أن تكشف زوجتي عن وجهها ، ولكن زوجتي قالت لي انها مؤمنة بالسفور ولكنها لا تستطيع أن تسفر وحدها عن وجهها ..

وقامت ثورة ١٩١٩ واذا بالصحف تنشر ان سعد زغلول كان في أحد الاجتماعات الشعبية ورأى ابنة الشيخ علي يوسف وعلى وجهها الحجاب ، فمد سعد يده ونزع الحجاب ..

واعتبر المصريون أن هذا أمر من زعيم الثورة بنزع حجاب المرأة ، وعندئذ نزعت زوجتي حجابها .

وروى لي الهضيبي التعذيب الذي تعرض له في السجن الحربي عام ١٩٥٦ .

ـ وضعوني في زنزانة في السجن الحربي ، وكانوا يعلمون أنني رجل يصلي ويخشى النجاسة . فوضعوا معي في الزنزانة ١٥ كلبا ، وأمضيت في هذه الزنزانة ستة أيام .. وكانت الكلاب تقفز فوقي ، وتشد ملابسي ، وتتبول على رأسي . وترمي قاذوراتها على بذلتي . وكانت الكلاب تتشاجر فيما بينها . كان عدد الكلاب الإناث أقل من عدد الكلاب الذكور . فكانت الكلاب الذكور تتشاجر على الأنثى وتتضارب . ثم يخطف أقوى الكلاب الكلبة التي اختارها ، يحدث كل ذلك وأنا أصلي .

وفي أول الأمر كنت أشعر بالذعر من هذه الكلاب ، ثم أسلمت أمري الى الله وتركتها تفعل بي ما تشاء ، وأنا منزو في ركن الزنزانة ، وكانت الكلاب تشاركني في الطعام الذي يقدمونه لي ، وأنتظر حتى تشبع . ثم أتقدم لآكل بقايا الكلاب !

وبعد ستة أيام جاء جندي وصحبني الى وكيل النيابة المحقق .

وأشار وكيل النيابة الى كرسي أمامه وقال :

ـ تفضل اجلس .

فاعتذرت وقلت له : أخشى أن يتسخ الكرسي .
فدهش وكيل النيابة وقال : لماذا؟
قلت له : لأن الكلاب تركت كل قاذوراتها على ملابسي .
وأمر وكيل النيابة بإرسالي الى الحمام . وذهبت الى الحمام لاستحم ، وارتديت ملابس أخرى ثم بدأ التحقيق ..
ورفض وكيل النيابة أن يسجل في التحقيق ما قاله حسن الهضيبي عن التعذيب الذي تعرض له وعن الخمسة عشر كلبا التي تعيش معه في زنزانة واحدة .
واستطرد الهضيبي يقول :
ـ بعد التحقيق أعادوني الى زنزانتي فوجدت فيها ثمانية كلاب فقط وتصورت أن وكيل النيابة طلب تحسين معاملتي ، فأنقصوا عدد الكلاب من خمسة عشر كلبا الى ثمانية فقط ، ثم سألت أحد الحراس عن الكلاب السبعة الأخرى التي شاركتني الزنزانة فقال لي انهم قبضوا على مسجون سياسي آخر واحتاجوا الى الكلاب السبعة لتشاركه زنزانته .
وذات يوم أقبل علي أحد الحراس وقال لي :
ـ يا ابن « الشرموطة » .
وانتفضت في زنزانتي وكأن عقربا لدغتني . وقلت للحارس :
ـ حرام عليك .. أن أمي رحمها الله كانت سيدة طيبة .. واقتحم حارس آخر الباب .. وفي يده كرباج يلوح به وقال :
ـ قل ان أمك شرموطة .. والا فسأضربك بالكرباج الى أن تموت .
وفجأة خيل الي أنني أرى طيف أمي يخرج لي من جدار الزنزانة وسمعت صوتها يقول لي :
ـ قل لهم يا حسن انني شرموطة .. ولا تدعه يقتلك .
قلت والدموع في عيني وأنا انظر الى الكرباج .
ـ نعم .. نعم كانت أمي شرموطة .
وقهقه الجندي وأغلق باب الزنزانة .
وبقيت انظر الى الكلاب الثمانية وأنظر الى نفسي وأتساءل : هل كان هذا هو صوت أمي فعلا ، أم أن هذا هو صوت الفزع والرعب ؟ هل كان

أشرف لي أن أموت بالكرباج على أن أنطق بهذه الكلمة بفمي .

وأحسست بعد ذلك أن عدد الكلاب في الزنزانة لم يعد ثمانية فقط ، انما أصبحت تسعة وأنا هو الكلب التاسع .

وحاولت أن أبكي فلم أجد دموعا في عيني . حاولت أن أصرخ فلم يخرج صوتي . ولم أجد ما افعله سوى أن أقوم وأصلى ..

وطلبت من الله أن يغفر لي الكلمة النابية التي نطقت بها . ويظهر أنه كان يبدو علي التعاسة والعذاب والهم والألم ، لأن الكلاب وقفت تنظر الي في دهشة . لأول مرة صمتت الكلاب عن نباحها وعوائها وشجارها ، ووقفت تنظر الي في اشفاق ..

وانتهى الهضيبي من رواية ماحدث له والدموع تملأ عينيه .

ولم أجد ما أقوله له سوى أنه عندما تغيب العدالة والحرية والديمقراطية عن بلد يصبح كل أهلها كالكلاب ..

حتى ولو كان أحد هؤلاء رئيس جماعة كبيرة كالإخوان المسلمين ، وكان قبل ذلك مستشارا بمحكمة النقض والإبرام .

قال باسما لأول مرة .

ـ يعامل عندئذ كأنه أكبر من الكلاب .

السر الذي أخفاه المرشد العام

ليمان طرة في ٨ سبتمبر ١٩٦٧

عزيزتي ..

أمضيت وقتا طويلا مع الاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين وجاري في الزنزانة .. وتحدث عن رأيه في الاغتيال السياسي . فقال انه من حق الشعب عندما يحتله جيش أجنبي أن يقاومه بالرصاص . ولكنه لا يوافق على أن يقتل الناس خصومهم في الراي .

وروى لي انه دخل الأزهر ومكث فيه سنة واحدة ولم يستفد شيئا . ثم دخل مدرسة باب الشعرية الابتدائية ، ثم مدرسة الخديوية الثانوية ، وكان في أول الأمر تلميذا منطويا على نفسه ، يتفرج على الأحداث ، ولا يشترك فيها .

وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ، وقد سميت كذلك نسبة الى الخديوي عباس . وذات يوم اتصل به زميله الطالب أمين صدقي وحدثه عن دخوله جميعة سرية تعمل ضد الانجليز . ورحب بأن يدخل الجمعية ، وأقسم على القرآن والمسدس الا يفشي أسرارها لأي مخلوق . وكانت هذه الجمعية تنقسم الى عدة خلايا . وكانت الخلايا لا تعرف بعضها . وكانت الخلية السرية مؤلفة من خمسة أشخاص : رئيس وأربعة أعضاء . وكان من زملاء الهضيبي في الخلية الطالب حسن مختار رسمي الذي أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة المالية ورئيساً لمجلس ادارة شركة غزل المحلة ، والطالب مغازي البرقوقي الذي أصبح بعد ذلك قاضيا ونائبا وفديا ووكيلا لمجلس النواب . وأمين صدقي الذي أصبح بعد ذلك محاميا وحصل على دكتوراه في الحقوق ، والطالب عبد الخالق عطية الذي أصبح وكيلا لمجلس النواب ، وكان الزعيم محمد فريد هو رئيس الجمعية السرية .

وكان كل عضو من أعضاء الجمعية السرية مكلفا بأن يجند عضوا آخر . وكان لحسن الهضيبي زميل في الفصل يأتمنه ويثق به ، فعرض عليه أن ينضم للجمعية السرية ، فوافق بعد أن سأل عن غرضها ، فقال له الهضيبي ان غرضها قتل الانجليز وعملاء الانجليز . ورحب الصديق بالفكرة . ولكنه في اليوم التالي عاد يقول انه رأى نفسه في المنام في الليلة السابقة يخنق أخته ففزع .. ولهذا فهو عدل عن الانضمام الى الجمعية السرية ، وأسقط في يد الهضيبي ، وأسرع الى رئيس خليته يبلغه ما حدث ، وأسرع رئيس الخلية الى قيادة الجمعية يبلغها بما جرى . وعقدت القيادة محكمة لمحاكمة حسن الهضيبي . أخذوه الى شقة في بيت مهجور ، في حي سحيق ، وأدخلوه غرفة مظلمة . وجلس ثلاثة شبان الى مائدة فوقها قرآن ومسدس ، وكان الشباب الثلاثة يخفون وجوههم بأقنعة سوداء ، وبدأ القضاة السريون يحاكمون حسن الهضيبي . يوجهون له أسئلة ويجيب عليها . ثم أصدروا حكمهم بأنهم تبينوا من التحقيق الذى أجروه أن حسن الضهيبي لم يفش لصاحبه سر الجمعية وأنهم لو كانوا شعروا من المحاكمة بأنه أفشى أسرارها لقتلوه على الفور رميا بالرصاص . وأنهم لهذا يصدرون عليه حكم البراءة..

وتنفس الهضيبي الصعداء ، وكان من جسن حظه أن زميله كان كتوما . فلم يُفش سر صاحبه لأحد ، ولكن الهضيبي تعلم من هذا درسا لم ينسه طوال حياته ، أن يكون حذرا وأن يكون كتوما .

وذات يوم أصدرت قيادة الجمعية أمرا الى الخلية السرية بأن تستعد للقيام بعملية هامة .. وهي الهجوم على قسم شرطة السيدة زينب ، والاستيلاء على كل مافيه من أسلحة ، وتسليمها الى قيادة الجمعية .

وعقدت الخلية السرية اجتماعا وضعت فيه خطة الهجوم على قسم الشرطة ، ووزعت على أفرادها الأدوار التي سيقوم بها كل واحد منهم . وذهب أعضاء الخلية وعاينوا مكان القسم . واختاروا الوقت الملائم للهجوم . وهي الساعة التي عرفوا فيها أن عدد الجنود في القسم يقل الى حده الأدنى .. وتحددت ساعة الصفر للانقضاض .

وقالت لهم قيادة الجمعية إنها عملية انتحارية قد يموتون فيها جميعا ..

وعاد الهضيبي ليلتها الى بيته في حارة سليم بالسيدة زينب ، واحرق كل أوراقه ، وبدأ يصلي استعدادا لكي يموت شهيدا ، وألقى نظرة على ابنة صاحب البيت التي كان يحبها ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكانت نظرة طويلة ، لأنها كانت في شعوره النظرة الأخيرة ، ثم اغلق نافذة السلاملك الذي كان يقيم فيه ، وعاد يصلي من جديد .

وعند منتصف الليل دق الباب . وتصور الهضيبي ان المؤامرة انكشفت ، وان البوليس جاء ليقبض عليه . وتقدم الى الباب يفتحه . واذا بأحد زملائه اعضاء الخلية السرية يبلغه ان قيادة الجمعية قررت تأجيل العملية الانتحارية . وسأل عن السبب فقيل له انه ليس من حقه أن يسأل عن السبب . وسأل عن موعد التنفيذ القادم ، فقال صاحبه ان الأوامر ستصدر في الوقت المناسب .

وبعد ذلك أطلق ابراهيم الورداني الرصاص على بطرس باشا غالي رئيس الوزراء لأنه اتفق مع الانجليز على الحكم الثنائي في السودان وأراد تجديد اتفاقية قناة السويس .

وسقط رئيس الوزراء قتيلا ، وقبض على عدد من أعضاء الجمعية .. وعرف الهضيبي عندئذ أن جمعيته هي التي اغتالت بطرس غالي. فهل كانت الفكرة في أول الأمر هي مهاجمة قسم السيدة زينب والاستيلاء على أسلحته ليستعملها أعضاء الجمعية في هجوم جماعي على مجلس الوزراء يقتلون فيه رئيس الوزراء ، ثم رأى ابراهيم الورداني أن يقوم بهذه العملية وحده بغير شركاء ، وأن يقتل رئيس الوزراء عند خروجه من رياسة مجلس الوزراء وحده بدل عشرة أشخاص كان المفروض أن يقوموا معا بهذه العملية ؟! ان حسن الهضيبي لم يعرف هذا السر أبدا . كل ما يعرفه أن أحد أعضاء جمعيته قتل رئيس الوزراء ، وان العملية الانتحارية التي كان مكلفا بها لم تتم ..

ولم يقبض البوليس على حسن الهضيبي بين عشرات من أعضاء الجمعية الذين قبض عليهم للاشتباه . ولم يتطرق الشك الى أحد أن هذا التلميذ المنزوي الطيب المطيع هو عضو في الجمعية السرية التي أمر الانجليز بالقبض على جميع أعضائها .

وانفرط عقد الجمعية . ولم يعرف الهضيبي كيف انفرطت ، ولماذا انفرطت ولكنه عرف أن خليته لم تعد تتلقى أوامر أو تعليمات .

ثم حدث أن حكمت المحكمة بالسجن لمدة ستة أشهر على الزعيم محمد فريد لأنه كتب مقالا هاجم فيه الخديوي والانجليز . وهرب محمد فريد الى أوربا . واختلف راي الشبان في فرار الزعيم الوطني . كان من رأي فريق أنه بعد أن قيدت الصحافة عقب مصرع بطرس غالي ، وبعد أن بدأت مطاردة الوطنيين ، أصبح مجال العمل ضيقا أمام محمد فريد . فهو سوف يكون في أوربا مطلق اليدين يهاجم الاحتلال البريطاني والخديوي كما يشاء . ويقلب العالم ضد الاحتلال والفساد في مصر . وفريق آخر كان يرى أن واجب محمد فريد كان يقضي عليه أن يدخل السجن ، ولا يتخلى عن مكانه داخل المعركة . وأن يبقى ليقاوم ويؤلب الشعب على الاحتلال . وكان الهضيبي يؤيد هذا الرأي الأخير .. فقد شعر أن الجيش أصبح بلا قائد ، وأن العلم الذى يجمعهم اختفى فجأة ، وزاد في ايمانه أنه رأى أفراد خليته السرية حيارى ، تائهين . ثم لم يلبث أن رآهم تفرقوا . لا يجتمعون ولا يتناقشون ، كأن محمد فريد عندما خرج من مصر أخذ مع حقائبه روح مصر !

وفي سنة ١٩١٤ أعلن الانجليز الحماية على مصر ، وخلعوا الخديوي عباس حلمي وأعلنوا الأمير حسين كامل سلطانا على مصر .

وشعر الهضيبي كأن خنجرا اغمد في ظهره ، ثم ما لبث أن أحس بخنجر أكبر يغمد في قلبه . أعلن الانجليز الحماية على مصر ، ولم يتحرك أحد من المصريين . لم تقم مظاهرة واحدة . لم يلق حجر

واحد على الجنود الانجليز الذين ساروا في موكب من قشلاق قصر النيل الى قصر عابدين يزفون السلطان الجديد الى عرش مصر ، على أسنة حراب الاحتلال .

وأسرع الهضيبي الى زملائه أعضاء الخلية السرية . واذا بالفجيعة تمزق قلوبهم . العمل الوحيد الذي قام به بعض المتحمسين منهم أن وضعوا في عنقهم أربطة سوداء ! كانت الكرافتة السوداء هي العلم الوحيد الذي رفعوه . شعر الشاب المصري في تلك الأيام المريرة بالشقاء والذل والخزي والعار . أحسوا أن شرف كل واحدمنهم لطخ بالوحل والطين . أحذية الجيش البريطانى داست على رؤوسهم جميعا . احسوا أكثر بالحاجة الى القائد . راحوا يقولون : لو كان محمد فريد موجودا في مصر لعرف كيف ينظم المقاومة وكيف يرد على صفعة الاحتلال . وأوقف أمين الرافعي اصدار جريدته . فضل أن يحطم قلمه على أن ينشر في جريدته نبأ أن مصر أصبحت تحت الحماية البريطانية .. أما جريدة المقطم التي كان يصدرها الدكاترة فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، فقد أصدرت ملحقا بعناوين ضخمة في الصفحة الأولى « بشرى للأمة المصرية : اعلان الحماية البريطانية على مصر » !

وكان هذا العنوان المخزي أشبه بكفن وضعت فيه جريدة المقطم جثة الشباب الوطني في مصر . ولكن شباب مصر دفن ولم يمت . الصدمة المفاجئة جعلته يتسمر في مكانه بلا حراك ، اختفاء محمد فريد من مصر كان أشبه باختفاء المنارة التي كانت تضيء للسفن الهائمة أثناء العاصفة .

وأعلن السلطان الجديد تغيير اسم مدرسة الحقوق الخديوية الى اسم مدرسة الحقوق السلطانية ..

واذاع قصر عابدين ان عظمة السلطان قرر أن يشرف مدرسة الحقوق السلطانية بزيارته ..

وكان بناء مدرسة الحقوق مجاورا لقصر عابدين . وتحدد يوم

الزيارة .. وفرشت ممرات المدرسة بالرمل الاحمر .. ورفعت الأعلام استعدادا لمقدم السلطان ..

وفي يوم الزيارة تلقى طلبة مدرسة الحقوق بطاقة مطبوعة بأن فلانا الطالب بالمدرسة توفي الى رحمة الله وستشيع جنازته من منزله رقم ١١ شارع المناخ في الساعة الحادية عشرة صباحا .. وعلى جميع طلبة مدرسة الحقوق الاشتراك في تشييع الجنازة ..

وكانت الساعة الحادية عشرة هي الموعد المحدد لزيارة السلطان .

وكان العنوان المكتوب في البطاقة هو عنوان محل جروبي في شارع عدلي الآن ..

وترك الطلبة المدرسة .. وذهبوا لتشييع الجنازة الوهمية . وفي جروبى تناولوا الجاتوه والحلوى على روح الفقيد المزعوم ..

ودخل السلطان حسين الى المدرسة فلم يجد فيها طالبا واحدا ..

وجن جنون السلطان . هاج وماج وثار . وعرف أن طلبة أكبر مدرسة عالية في مصر في ذلك الحين أرادوا أن يلطموا السلطان لطمة علنية عقابا له على توليه عرش مصر في ظل الحماية البريطانية .

وقام السلطان ولم يقعد ، وقام الانجليز ولم يقعدوا ، وقامت الحكومة ولم تقعد . هذه ثورة ضد السلطان وضد الانجليز وضد الحكومة . وقبض على عدد كبير من طلبة مدرسة الحقوق ، وقبض على صاحب المطبعة الذي طبع بطاقة الدعوة لحضور الجنازة .

وعرض النائب العام على صاحب المطبعة كل طلبة مدرسة الحقوق ليتعرف على الطالب الذى طبع بطاقة الجنازة .

ولم يتعرف صاحب المطبعة على واحد منهم . وقال ان الشخص الذي جاء لطبع البطاقة كان أكبر عمرا من هؤلاء الطلبة .

وهنا عرضت النيابة أساتذة مدرسة الحقوق على صاحب المطبعة فقال ان المجرم الأثيم ليس واحدا منهم .

والواقع أن المجرم الأثيم لم يكن طالبا ولا مدرسا في مدرسة الحقوق وانما كان عربجيا ! .. كان العربجي الذي يقود العربية

الحانطور التي تملكها أسرة الطالبَ فؤاد حمدي .. وتحمله كل يوم الى المدرسة ..

ولم يخطر ببال النائب العام أن يعرض على صاحب المطبعة جميع العربجية الذين يحملون طلبة الحقوق الى المدرسة ..

واصدرت الحكومة قرارا بفصل عدد من طلبة الحقوق نهائيا ، وعدد آخر لمدة عامين . وعدد ثالث لمدة سنة واحدة ..

وكان حسن الهضيبي أحد الذين فصلوا لمدة سنة واحدة ..

وحاول الطلبة أن يتظلموا فوجدوا أن كل الأبواب مغلقة في وجوههم . لا أحد يجرؤ على أن يتوسط لهم والسلطان ثائر ، والانجليز حانقون ، والحكومة غاضبة .. ثم سمع الهضيبي من زملائه المفصولين أن سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية التي عطلها الانجليز يتعاطف معهم ، وذهب مع بعض زملائه وقابلوه ، فإذا به يهنئهم لأنهم أعادوا الاعتبار للشعب المصري عندما لطمه السلطان ! واذا به يقول انه سيبذل كل ما يستطيع لرفع الظلم عنهم ، وأنه لا يملك أي سلطة ، ولكنه يعتبر نفسه يمثل الشعب الذي انتزعت سلطاته بإعلان الحماية . ودهش الهضيبي لأن رجلا في الستين من عمره يتكلم بلغة الشباب . وبعد خروجه من بيت سعد زغلول قال لزميل له :

ـ هذا الرجل يستطيع أن يقود مصر بدلا من محمد فريد .

قال له زميله :

ـ مستحيل .. مستحيل ..

وبعد اربع سنوات قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .

وصدقت نبوءة الهضيبي .

وكان طلبة الحقوق المفصولون هم أول الذين مشوا وراء سعد زغلول وأشعلوا الثورة ..

***

وروى لي الهضيبي سرا خطيرا وهو أن عبدالرحمن السندي رئيس الجهاز السري للاخوان المسلمين زاره في بيته بعد قيام الثورة

بفترة غير قصيرة ، وأخبره أن الرئيس جمال عبدالناصر استدعاه الى بيته في منشية البكري ، وطلب منه أن يسافر الى ايطاليا ، ومعه عدد من زملائه ويقتلون الملك فاروق .

وأنه أعطاه الأسلحة اللازمة والمبلغ الكافي لمصاريف الاقامة والسفر ..

فقال عبدالرحمن السندي : لا أستطيع أن أقوم بهذه المهمة قبل أن أستأذن المرشد العام ..

فقال الرئيس عبدالناصر : يمكنك أن تستأذنه كما تشاء .

واستطرد الأستاذ الهضيبي وقال لي :

ـ قلت لعبدالرحمن السندي بالحرف الواحد : لا تقتله ! انك اذا قتلته فكأنك قتلت مسلما بلا جريمة ، افهم أن نقاتل أعداءنا ونحن في معركة ، أما أن نقتلهم بعد أن استسلموا فهذا ضد الشرع والدين . الملك فاروق استسلم للثورة ، وتنازل عن العرش ، وترك البلاد ، ولم يعد خطرا على مصر فلماذا تقتلونه الآن .. أنا أرفض الموافقة على جريمة قتل .

وذهب السندي وأبلغ حديثي الى عبدالناصر ، وأعاد له الأسلحة والفلوس .

لماذا انتحر عبدالحكيم عامر ؟

١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتي ..

كم كنت أتمنى لو كنت بجانبي في هذه الأيام لنشهد الأحداث معا ، وأسمع تعليقاتك وملاحظاتك . القدر شاء أن يعيش الصحفي الأول في مصر بعيدا عن أحداث مصر المتلاحقة التي تبدو أشبه بشريط سينمائي وبسرعة فائقة تجعل المشاهدين يلهثون وكأنهم يعدون وراء الأحداث بسرعة الصاروخ . انني أتصور نفسي لو كنت خارج السجن في هذه الأيام .. لو كنت جالسا في مكتبي في أخبار اليوم ، لكان من المؤكد أن أصاب بالذبحة الصدرية . كنت سأبقى في مكتبي وآكل في مكتبي وأعيش في مكتبي ، حتى أسقط مغشيا علي .ويظهر ان الله شاء أن يحرم بلادي التعسة من فكري ورأيي وجهودي ، ولهذا وضعني في هذا المخبأ . ربما شاء القدر أن يضعني في ثلاجة حتى لا أصاب بالعفونة ..

انني في دهشة من انتحار المشير عبد الحكيم عامر . اذا كان لم ينتحر بسبب هزيمة ٥ يونيو ، فكيف ينتحر لأن الرئيس أراد أن يجعله نائب رئيس الجمهورية ، ولا يجعله قائدا عاما للقوات المسلحة ؟ وكم مرة اختلف المشير والرئيس فلم يفكر عبد الحكيم في الانتحار ؟ ان المنشور في الصحف عن الانتحار يثير الريب والشكوك . وقد سمعت ان الرقابة كانت تتدخل في كل سطر في حادث الانتحار ، وتشطب سطوراً وتضيف سطوراً ، وسمعت أن بعض فقرات من تقرير النائب العام عن الحادث قد شطبت .

لقد لاحظت في السنوات الأخيرة خلافات عديدة بين المشير والرئيس .. ولاحظت ان عبد الحكيم عامر كان يضيق باستئثار الرئيس بكل السلطات .. كان في أول الأمر متحمسا لجمع السلطات في يد عبدالناصر ، متصورا أنها عندما تكون في يد عبدالناصر تكون في يد

عبدالحكيم . وعندما شعر عبدالحكيم أن عبدالناصر استعمله فقط ليسلب السلطات من باقي زملائه ويستأثر هو وحده بها ضاق بهذا الوضع . ولاحظت في اجتماعاتي بعبدالناصر أنه يهاجم كل الذين حول عبدالحكيم فيما عدا شمس بدران . وكان يقول دائما ان عبدالحكيم تحت سيطرة الذين يقيمون له الليالي الحمراء ! وليس صحيحا أن عبدالناصر فوجيء بأن عبدالحكيم متزوج من برلنتي عبدالحميد ، فالمؤكد أنه كان يعرف بقصة هذا الحب من أوله ، ويعرف من عبدالحكيم نفسه أنه قرر أن يتزوج من برلنتي ولم يعترض عبدالناصر . وقد كنت أشك في وقت من الأوقات أن عبدالناصر سكت عن هذه العلاقة حتى يغرق عبدالحكيم . وحتى تسوء سمعته ، وعندئذ يسهل التخلص منه .

ولقد لاحظت أن الدولة هي التي سربت الي صحف الخارج قصة زواج عبدالحكيم العرفي . وقصة الطفل عمرو الذى رزق به عبدالحكيم عامر من برلنتي ، واعترف به عبدالحكيم . والمقصود من هذا النشر هو القضاء على سمعة عبدالحكيم ، بحيث ينشغل الناس بغرامياته وينسون كيف مات ولماذا مات ؟ .. وأنا أتصور أنه بالقضاء على عبدالحكيم تم القضاء على كل أعوانه وانصاره في الجيش ، فالذين كانوا يحبونه أحبوه لعلاقات شخصية معه ، وليس لارتباطهم بمبادىء معينة .. ولا اتصور أن الاظلام التام الذي أحيط به حادث المشير سوف يستمر الى الأبد ، بل ان التاريخ كثيرا ما حدثنا عن أحداث مماثلة أحيطت بالكتمان وأسدلت عليها الأستار ، ثم جاءت الأيام وأزاحت التراب عن الأسرار المدفونة تحت الأرض .

ولا أتصور أنه سيخلف أحد عبدالحكيم عامر في صداقة عبدالناصر ، بل لا أصدق أن أحداً من الذين حول عبدالناصر سيرث نفوذ عبدالحكيم . ستبقى دائما مسافة كبيرة بين عبدالناصر وبين من حوله ، وسوف يعاملهم كأتباع لا أصدقاء . وستتضاعف وحدته ويزداد انعزاله عن الناس ، وسوف يصبح من المستحيل تقديم النصح له . ولهذا فانني أختلف مع الذين يقولون ان خلاص عبدالناصر من

عبدالحكيم سوف يخلصه من الطابع العسكري ، وسيجعله يتجه الى الديمقراطية والحريات . على العكس ، ان حكايته مع عبدالحكيم ستضاعف من شكوكه في الناس . وسيزداد اعتماده على أجهزة المخابرات والمباحث ، وسيزداد اعتماداً على الجيش كقوة تحافظ على الأمن أكثر من اعتماده عليه كقوة تحارب خارج الحدود .

ومن الغريب أنه في يوم انتحار المشير صدرت أوامر غريبة من وزارة الداخلية الى السجن ، هي انقاص عدد السجاير التي أتسلمها ! ويظهر أن الذي أصدر هذا الأمر كان « فاضياً » جدا في هذا اليوم فلم يجد شيئا يفعله سوى اصدار هذا الأمر الغريب .

وهكذا في الوقت الذي يتوهم فيه السذج أن الفرج قريب تصدر الأوامر بتضييق النطاق حولي ، كأنني المسؤول عن انتحار المشير . ولم أهتم بهذا القرار فقد كنت مشغولا بتحليل الأحداث السياسية الكبرى التي تجري الآن على البلاد . ولقد عودت نفسي من زمن على أن تصدر كل يوم قرارات متناقضة بشأني . فمرة يتقرر منع الطعام . ومرة يتقرر منع السجائر . ومرة يتقرر منع الصحف ، ومرة يتقرر منع الرسائل ، ومرارا يتقرر أن تكون مقابلاتي مع أسرتي من خلال السلك الذي يشبه قفص القرود . وكل هذه القرارات لم تهز أعصابي ، ولم تشغلني عن متابعة الأحداث التى تأخذ كل وقتي ..

انني أتذكر أن عبدالناصر كان يهاجم باستمرار أمامي الفريق سليمان عزت قائد البحرية والفريق صدقي محمود قائد الطيران . ويقول : « انهما لا ينفعان » وانه تعب في اقناع عبدالحكيم بإخراجهما من منصبيهما ، ولكن عبدالحكيم متمسك بهما . وكان عبدالناصر يضيق بالشلة التي حول عبدالحكيم ويغار من أن الضباط يحبون المشير أكثر منه ، وكان ينسب هذا الى أن « سيف المعز مع عبدالناصر ، ومال المعز مع عبدالحكيم » أي أن الضباط يرهبونه هو لأنه يقطع الرؤوس ، بينما يحبون عبدالحكيم لأنه يغدق عليهم مال الدولة بغير حساب . وقد لاحظت أن الذين حول عبدالحكيم يحبونه ، ولكن الذين حول عبدالناصر يخافونه . الذي بجوار عبدالناصر كان مستعدا أن يفعل

نفس الشيء مع أي رجل آخر يعطيه نفس السلطة ونفس النفوذ ونفس السلطان . وسوف ينقلب على عبدالناصر اذا وجد من يعطيه سلطة أكبر . وسوف ينقلب مع عبدالناصر اذا وجد ان السلطة أقل . والذين كانوا مع عبدالحكيم يحبونه لكرمه ولطيبة قلبه ولصراحته ، وهم مطمئنون الى أنه لن يقدر عليهم ، أو لن يتآمر ضدهم ، أو لن يغضب عليهم لسبب تافه . ولكن القول بأن سبب الخلاف هو الديموقراطية وحماس عبدالحكيم لها وتمسك عبدالناصر بالدكتاتورية ، هذا القول أشك فيه كثيرا . ان عبدالحكيم كان يطالب بالديموقراطية كلما اختلف مع عبدالناصر ، فإذا تعانقا وتصالحا ، عاد وتحمس للدكتاتورية ، ونسي مطالبته بالديموقراطية . انه مثلا كتب خطابا لعبدالناصر يطالب بالديموقراطية ، ومع ذلك قبل أن يكون رئيسا للجنة الاقطاع بعد ذلك بأربع سنوات . وأصدر كثيرا من القرارات الاستبدادية التى لا تستند الى دستور أو قانون .. وقد كان دائما يعتبر القانون شيئا ضد الثورة ، وان الثائر الحقيقي هو الذي يدوس على كل قانون ، حتى لو كان هو الذي وضع هذا القانون ..

ولا أتصور أن وفاة عبدالحكيم سوف تجعل عبدالناصر يحتضن الديموقراطية حتى يسلب من عبدالحكيم أنه هو نصير الديموقراطية الوحيد .

عبدالناصر بطبيعته الآن لا يستطيع أن يحكم حكما ديموقراطياً ، لقد كان في أول الثورة متحمسا حماسا كبيرا للحكم الديموقراطي ، وكان زملاؤه يقولون ان هذا « حماس تكتيكي » الغرض منه هو التخلص من الأحزاب الموجودة ومن الدستور القائم .. وكان المفروض أن يكون مجلس الثورة هو الذي حل محل البرلمان ، ولكنه لم يطق مجلس الثورة وحله .. ثم أدى الانفصال الى تأليف مجلس الرياسة .. ولم يطق عبدالناصر مناقشات مجلس الرياسة وحل المجلس بعد أن جعله كمية مهملة !

وفي أواخر هذه السنوات لم يكن يطيق مجلس الوزراء ولا مناقشات

الوزراء .. وقد كان في أول الأمر صبورا على المناقشة ولكنه بعد مرضه أصبح يثور على الذي يعارضه .

وقد حدث مرة أن قلت له إن بعض الوزراء يشكون من أنهم يعينون في الوزارة ، ويبقون فيها سنوات ويخرجون منها ، دون أن يقابلوا عبدالناصر ! .. وقال عبد الناصر انه لا وقت عنده لمقابلة الوزراء ، فقلت له انه من الممكن أن يعقد مجلس الوزراء مرة كل أسبوع . قال : هذا كثير .. سوف أعقده مرة كل إسبوعين ..

وفعلا بدأ يعقد مجلس الوزراء مرة كل اسبوعين .. وبعد أسابيع قليلة توقفت الاجتماعات ، وقال لي عبدالناصر ان الوزراء يضيعون وقته بكلامهم الفارغ !

واليوم يعودون الى الكلام عن عقد مجلس الوزراء من جديد ، ويظهر أن هذا كان نتيجة السخط العام بأن ما حدث لمصر من هزيمة هو نتيجة الحكم الفردي ، وأن الرئيس لا يستشير الوزراء .. وهذا اتجاه طيب وأرجو أن يستمر ..

ولقد كان عبدالناصر يروي دائما حكاية مشهورة في تاريخ الرئيس ابراهام لنكولن رئيس جمهورية الولايات المتحدة .. وهي أنه عقد مجلس الوزراء برياسته ، وعرض على المجلس اقتراحا ، وجرى التصويت على الاقتراح ..

فإذا تسعة وزراء ضد الاقتراح ، والرئيس لنكولن وحده مع الاقتراح وعندئذ قال الرئيس :

- إذن وافق مجلس الوزراء على الاقتراح ..

وكان هذا هو السبب الوحيد لإعجاب الرئيس عبدالناصر بالرئيس لنكولن !

ان في رأيي أنه اذا كان عبدالحكيم عامر انتحر فسبب ذلك هو خيبة أمله في عبدالناصر ، لأنه ادخله الحرب وهو يؤكد له أن اسرائيل لن تحارب ، وأنه أراد أن يجعله كبش الفداء ليحمله وحده مسؤولية الهزيمة .

أما اذا كان عبدالحكيم لم ينتحر ، فسيكون سبب مصرعه هو خيبة أمل عبدالناصر فيه . لقد تعود عبدالناصر في الخلافات الماضية أنه ما يكاد يجتمع بعبدالحكيم بعد الخلاف حتى ينهار عبدالحكيم متأثرا بحبه لعبدالناصر ويغرق في الدموع ، ويتبادلان القبلات ، ولكن في المرة الأخيرة وجد عبدالحكيم صلبا ، لا يقبل أنصاف الحلول ، ولم يغرق في الدموع .. وعندئذ وجد الذين حول عبدالناصر أن عبدالحكيم قد تغير ، وأصبح من الممكن أن يكون خطرا ، وأن برلنتي عبدالحميد غيرته وجعلته واسع المطامع ولهذا رأوا ضرورة التخلص منه ..

وعلى كل فسيبقى مصرع عبدالحكيم لغزا الى سنوات طويلة ..

شوربة من هيلتون !

٧ اكتوبر ١٩٦٧

عزيزتي ..

من الحوادث الطريفة التي وقعت لنا أن أحد زملائنا المسجونين السياسيين لم يعجبه الطعام الذي يطهيه لنا مطبخ الليمان ، وأفهمنا أنه « أسطى باشا » وأنه خبير في صنع أفخر المأكولات ، وأنه اذا أتيح له فرصة العمل في مطبخ الليمان فسيقدم لنا أشهى أنواع الطعام ..

وتحمسنا للفكرة ، واستطعنا أن نقنع الضابط المشرف على المطبخ بتشغيله في المطبخ .

ووعدنا بأن يصنع لنا شوربة كالتي يقدمها فندق هيلتون للزبائن ! ..

وأحضر الزميل حلة كبيرة جدا ووضع فيها فول مدمس ، ثم وضع فوقه شوربة عدس ، ثم وجد بقدونس في حديقة الليمان فاقتلعه ووضعه كما هو في الحلة ، ووجد « كرات » مع أحد المسجونين فوضعه فيها ، ثم وضع فلفل وشطة ، وصرف السجن جبنة بيضاء فوضعها فوقها ..

وحدث أن كان أحد المسجونين يمر أمام المطبخ ، وتوقف وخلع حذاءه فإذا بالحذاء يقفز ويسقط في الحلة .

وتقدم المسجون نحو زميلنا الطباخ الماهر وقال له :

ـ آسف ان حذائي وقع في الحلة !

ومد الطباخ يده داخل الحلة ثم أخرج حذاء المسجون وسأل المسجون :

ـ هل هذا حذاؤك ؟

فقال المسجون : لا .. موش دى ..

وظهر أن عددا من الأحذية سبقط قبل ذلك في الحلة .

وقال المسجونون السياسيون ان السبب في كثرة الأحذية هو كثرة المسجونين الذين ذاقوا هذه الشوربة العجيبة ، أو أنهم أرادوا أن يعبروا عن رأيهم في الشوربة فألقوا عليها الأحذية .

وبيني وبينك كانت هذه الشوربة ألذ من الشوربة التي اعتاد الليمان أن يقدمها لنا !!

تدبير انقلاب عسكري في السجن ؟

١٠ اكتوبر سنة ١٩٦٧

عزيزتي ...

استيقظت من النوم فوجدت في داخل زنزانتي اثنين من ضباط المباحث وثمانية من المخبرين يملأون زنزانتي الصغيرة . فتحوا الباب بهدوء أثناء نومي ، ودخلوا على أطراف أصابعهم . ودهشت وأبديت أسفي ان الزنزانة صغيرة ولا يستطيع العشرة ان يتحركوا فيها وخرج ضابط وستة مخبرين وبقي ضابط ومخبران وراحوا يفتشون كل مليمتر في الزنزانة . يقرأون كل خطاب يبهدلون الملابس . يضعون أيديهم في جيوب بذلة السجن يتحسسون قماش البذلة خشية ان أكون أخفي في ثناياها ورقة ، يفتحون زجاجات الدواء ويفرغون الحبوب التي فيها ، وبعد ذلك فتشوني شخصيا . فتشوا ملابسي الداخلية ، ثم فتشوا مكانا في جسمي قالت الصحف ان المشير عبد الحكيم عامر كان يخفي فيه السموم . ثم فتشوا الشبشب الذي في قدمي وبدأوا يدقون الجدار بأيديهم بحثا عن مخابىء سرية قد أكون صنعتها لأخفي فيها الممنوعات . ثم انبطحوا على بلاط الزنزانة يبحثون عن مخابىء تحت البلاط . ثم مدوا أيديهم بين قضبان نافذة الزنزانة يبحثون عن مخبأ في الجدار الخارجي . وبان عليهم الذهول لانهم لم يجدوا شيئا ..

وأرسلوا يستنجدون بالضابط الآخر الواقف أمام الزنزانة فدخل وبدأ يفتش من جديد ، ويتفنن في البحث عن أمكنة لإجراء التفتيش وكان مهتما اهتماما خاصا بجردل البول ! وفي الوقت نفسه وقف عدد من المخبرين تحت نافذة زنزانتي في فناء السجن حتى لا أرمي من النافذة شيئا ..

واكتشفت انهم يبحثون عندي عن جهاز ارسال وديناميت ومنشورات . وضحكت كثيرا وأنا أرى خيبة الامل فوق وجوههم . وكان فريق آخر مؤلف من ضابطين و ٢٥ مخبرا يفتشون باقي زنازين

المسجونين السياسيين ، حتى لا أكون قد خبأت المفرقعات والقنابل عند أحد زملائى من المسجونين السياسيين .

وأخبرني الاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين انهم مكثوا ساعة يفتشون زنزانته ، ويقلبونها راسا على عقب وانه علم من أحد الضباط الذين فتشوه أن لدى المخابرات تحريات تقول انه وأنا نعد من داخل السجن انقلابا مسلحا ضد الحكومة ، وأننا نخفي داخل السجن الاسلحة التي سوف يستعملها المسجونون السياسيون عندما ينقضون على السجن ، ويقبضون على الحراس والضباط وينطلقون للاستيلاء على الحكم . وأن لدي جهاز ارسال أتصل به بقوات عسكرية في الثكنات المحيطة بالليمان ، وأن الاتفاق تم بين الهضيبي وبينهم على اخفاء الذخائر داخل ليمان طرة لتكون بعيدة عن أي شك . وضحك الهضيبي وقال انه يعتقد أن المسؤول الذي أجرى هذه التحريات لا بد أنه أكثر من تدخين الحشيش حتى وصل الى كل هذه النتائج والاقتراحات .

ومن الغريب أنني في الليلة السابقة تلقيت هدية من أحد أصدقائي عبارة عن جهاز راديو ، ورفضت ان أتسلمه لان الراديوهات ممنوعة في الليمان ، وأهديته الى مسجون غير سياسي .

***

أفكر أحيانا في شقتي في الزمالك . أحن اليها وانا استرجع ذكرياتي فيها . الذكريات هي السيقان الخشبية التي نستعين بها على المشي عندما يحولنا الزمن الى مقعدين . ولكن هذه السيقان الخشبية تتحول أحيانا الى أطراف صناعية حقيقية كالتي استطاع الجراحون أخيرا تركيبها في الجسم ، فجعلوا المقعدين يتحركون ويقفزون ويجرون . في هذه الشقة نبضات قلبي . انني أعشق الحجر . أتصور أن هذه الاحجار الجامدة الصماء ليست جامدة ولا صماء . فيها بقايا أنفاس . بقايا زفرات . بقايا انين . بقايا ضحكات .

لقد عشت في هذه الشقة منذ عام ١٩٤٩ أي ١٨ سنة ادفع ايجارها بانتظام وأرادوا أن يطردوني منها ويرغموني على التنازل عنها في أثناء

المعركة ليقيم فيها ضابط برتبة فريق ! حتى لو أخذوا مني هذه الشقة فإنني سوف اسكنها بذكرياتي .. لا احد يستطيع ان يستولي بقرار جمهوري على ذكريات انسان !

انني أحب الارض لانني اتخيل انه مشت فوقها اقدام عشاق وحالمين . أعشق الزهر لانني أتصور أن في رائحته أنفاس محبين . لا أنظر للأشياء بظواهرها ، وانما بما هو خلفها . أرضية الصورة هي التي تصنع جمالها . الظلال الباهتة فيها هي التي تبرز روعتها . أحيانا أطل من نافذة عنبر السجن المطلة على شارع الكورنيش ، فأرى غلائل السحب الرقيقة تحاول أن تخفي جمال السماء ، كما كان يحاول اليشمك الابيض في أيام جداتنا أن يخفي وجه حسناء فاتنة الجمال . أنا لا أتطلع الى اليشمك ، ولا أتسمر أمام الحجاب ، بل تقفز عيناي لأرى الجمال المختفي خلفه . فقد أرى التراب فوق بعض البيوت الجرداء ، ولكن الغبار لا يستوقف نظري . أرى تحت الغبار جمال الناس الطيبين الذين يعيشون في هذه الاطلال والاكواخ . قد ألقي نظرة على شجرة جافة ورقها شاحب أصفر ، فروعها ذابلة فلا يقذي عيني أن الخريف جردها من ورقها الاخضر الجميل ، ولكن بصري يمتد الى الربيع فلا أرى الا الشجرة وهي مورقة مزهوة جميلة مخضرة .

وعندما التقي بملكة جمال في شيخوختها ، كنت لا أرى التجاعيد في وجهها وانما أرى شبابها قبل أن يذهب ، ونضارتها قبل أن تذبل . السنون لا تقف بيني وبين الجمال . أنا لا أحب ما أراه ، وانما ما أبصر . ولست أعرف هل هذه هي خاصة بي وحدي ، أم أن كل الناس مثلي ؟ من حسن حظي أن بصيرتي أقوى من بصري . وكلما ضعفت عيناي قويت بصيرتي . ولهذا فإن الشوارع الكئيبة المعتمة المهجورة تذكرني بميادين الحياة المشرقة الباسمة . كأنني أسمع من بعيد أجراس الحياة تدق بعنف وأنا جالس في زنزانة الصمت . الوحدة القاتلة تنقلني الى الحياة خارج الجدران بضوضائها ورنينها ، بسرعتها وبطئها بصرخاتها وضجيجها ، بدويها المروع وصمتها المخيف . في هذا كله

أسمع صدى أنغام حلوة والحان عذبة وكلمات رقيقة وهمسات ناعمة تسكبها ذكرياتي وأحلامي في أذني .

وعندما أنظر حولي وأرى بلادي لا أرى حاضرها التعس وانما أشهد مستقبلها المشرق . لا تفجعني خرائبها وانما تثيرني أحلامي بما سوف يقوم فيها من عمارات ومشروعات ومصانع . في رأيي أن مصر سيكون لها أكبر مستقبل في هذه المنطقة كلها ، والذي تسمعونه الآن ليس أنين الحاضر ، بقدر ما هو مخاض المستقبل .

انني أمضي وقتي في سماع اذاعة السجن وتتبع أنباء المعركة الذي تريد أن تقوله الاذاعة والصحافة للناس أنه لن تمضي أيام حتى نكون قد أعلنا الحرب من جديد ، وحولنا الهزيمة الى نصر .

وقد كنت أتمنى أن نكون تعلمنا من الهزيمة ألا نعود الى الكذب وخداع أنفسنا .

ويبدو أننا مصممون على أن نرتكب كل الاخطاء .. لاننا نعيد أنفسنا .. ونعيد كل شيء فينا .. حتى أخطاءنا .

المعركة سوف تطول .. سوف تستمر سنوات . ويجب أن يعد الشعب لذلك . ويجب أن يعلم أنه لن ينتصر الا اذا فكوا قيوده أولا .. الحرية هي الخطوة الأولى للنصر ..

ايماني لا يتزعزع بأن مصر سوف تنتصر بإذن الله . هذه المعركة هي معركتنا كلنا لأنها معركة مصيرنا وحياتنا وأحلام شعبنا . وفي هذه الظروف يجب أن ينسى كل فرد فينا آلامه الشخصية ولا يذكر الا مصلحة وطنه ، انني كما قلت لك أفضل أن أعيش سجينا في بلد منتصر على أن أعيش طليقاً في بلد مهزوم .

التعذيب مستمر

٩ نوفمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتي ..

لا أعرف هل اكتب لكم اكثر من اللازم ؟ هل ارهقكم بالاكثار من الكتابة ؟ قلت لكم قبل الآن انني اجد لذة في الكتابة الى الذين يحبونني .. كلما وجدت نفسي وحدي أشعر أنني في حاجة الى أن أمسك بقلمي وأكتب الى كل الناس . أن أكتب طويلا ، ولا أنتهي من الكتابة أبدا . لعل السبب في ذلك أنني تعودت طول حياتي أن أكتب الى الملايين . أحدثها . أناجيها . أفتح لها قلبي . ربما لأنني أحس أن الذين يحبونني يشعرون أنهم في وحدة . الحياة في ظل انعدام الحرية هي وحدة مريرة . الخوف والصمت أشبه بجدار الزنزانة . ربما أشعر أنني ألعب لعبة استغماية مع الحياة ، أصدقائي هم الأم أخفي في حجرها رأسي فلا يمسكني من يحاولون إمساكي وإخراجي من اللعبة .

الكتابة في السجن ليست أمرا سهلا . تحتاج الى مجهود شاق واحتياطات للوقاية من الضبط ومع ذلك أجد هناء في هذا المجهود ، ولذة في هذه المحاولات . المسجون الذي يضبطونه يكتب أكثر من خطابين في الاسبوع يضعونه في التأديب . والتأديب زنزانة ليس لها نافذة كالزنزانة التي وضعوني فيها عندما دخلت الليمان . ينام المسجون على الارض . لا سرير ولا مرتبة . يرتدي بذلة زرقاء اما واسعة جدا يهرهر فيها ، واما ضيقة جدا يختنق فيها . يأكل من طعام السجن الملعون . يمنع من تدخين السجائر . لا يفتح باب الزنزانة الا خمس دقائق في اليوم ليذهب الى دورة المياه . ومع ذلك فإنني اغامر واكتب ، وأجد في تهريب رسائلي الى الخارج ، واستقبال الرسائل المهربة الى داخل السجن متعة تحدي هذه الانظمة الظالمة ! وبهذا التهريب تصل خطاباتي لكم بسرعة ، وتصلني خطاباتكم بسرعة الصاروخ ..

وقد يهمكم أن تعرفوا كيف تصل خطابات أسرتي التي تصل بالطريق الرسمي . تذهب أولا الى مكتب أركان حرب السجن ، وبعد أن يفتحها ويقرأها يرسلها الى مكتب بريد الليمان ، وبعد ذلك ترسل الى ضابط العنبر ، وبعد أن يقرأها يوقع عليها ، ثم يرسلها مع المسجون النوبتجي الذي يعمل في مكتبه . وهو رجل في السبعين من عمره ، قصير القامة ، أسمر الوجه ، له لحية بيضاء ، يحمل دفترا . وعندما يصل الي خطاب يقفز المسجون ساعي البريد درجات السلم أربعا فى أربع ، وكأنه يحمل الي بشرى الافراج . وفي يوم الاحد الماضي عندما أحضر خطاب ابنتي الذي فيه أن بعض الصحف في الخارج نشرت أنباء الافراج عني كان يرقص ، وكانت لحيته ترقص معه . وذكر لي أن ضابط العنبر قال ان نبوءته قد صدقت . فقد قال له ان مصطفى أمين سيفرج عنه ، وهذا الخطاب يؤيد ذلك . وأخذ ساعي البريد المسجون يصرخ بأعلى صوته معلنا نبأ الافراج ، والتف حوله زملائي المسجونون السياسيون يريدون أن أقرأ الخطاب عليهم . كل مسجون منهم يتوهم أن معنى الافراج عني هو الافراج عنهم جميعا . أنا الذي سوف أفتح لهم باب السجن ! وهم يدعون لي وكأنهم يدعون لأنفسهم بالافراج . ولقد رويت لهم ما في الخطاب ، ولولا الفضيحة التي سببها لي ساعي البريد لما قلت شيئا . فأنا لا أريد أن يبنوا قصورا في الهواء . وفي هذه الايام تتوافر الاشاعات بشدة عن قرب الافراج عني . وقد قال لي مدير السجن أن العادة جرت الا يسجن المسجون السياسي اكثر من عامين ، ثم يفرج عنه . هكذا حدث لإبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء السابق ولفؤاد سراج الدين وزير الداخلية السابق ، ولمحمد صلاح الدين وزير الخارجية السابق ، ولعبد الفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية السابق ولرشاد مهنا الوصي السابق على العرش ، ولغيرهم وغيرهم من الضباط الذين اتهموا بتدبير مؤامرات وحكم عليهم الفريق الدجوي بالاشغال الشاقة المؤبدة .

قلت له لقد توسطت لدى الرئيس عبد الناصر للإفراج عن بعض هؤلاء وتوسط المشير عبد الحكيم عامر للافراج عن اكثرهم وأنا الآن في السجن

والمشير في القبر والذين حول الرئيس الآن من رأيهم وضع نصف الشعب المصري في السجن ، لا الافراج عن المسجونين السياسيين .

وقال لي مدير السجن ان من رأيه أن أكتب خطابا للرئيس أذكر له أمراضي وأطلب منه الافراج عني .

فقلت له انني عندما كنت على صلة وطيدة بالرئيس لاحظت أنه لا يتأثر بخطابات الشكوى من المسجونين ، وهو يعرضها على زواره ، ليروا كيف أن فلانا الذي كان يبدو بطلا خارج السجن تحول الى أرنب داخل السجن .

وحدث مرة أن سمعت أن اللواء محمد نجيب أرسل خطابا من معتقله الى الرئيس عبدالناصر ، فانتهزت فرصة مقابلتي للرئيس وسألته عن فحوى هذا الخطاب .. وفوجئت بالرئيس يقول لى : انا لم أقرأ هذا الخطاب .

قلت : ولكني سمعت أن محمد نجيب أرسله لك منذ أسبوعين .

قال عبدالناصر : نعم وصلني الخطاب منذ أسبوعين ، ولكني لم افتحه وتركته مغلقا كما هو في مكتبي .

وعندما رأى الرئيس دهشتي ، قام من مكانه واتجه الى مكتبه ، وفتحه واخرج الخطاب مغلقا وقد كتب على الغلاف من اللواء أركان حرب محمد نجيب ..

وفض الرئيس الخطاب فإذا به من محمد نجيب عن ظلم تعرض له أحد أولاده .

وطوى الرئيس خطاب محمد نجيب وانتقل الى موضوع آخر . وقلت لمدير السجن : فإذا كان هذا مصير خطاب رئيس الجمهورية السابق فما بالك بمصير خطابي . انني أكتب لجمال عبدالناصر عن رأي سياسي ، وعن استعدادي لأخوض معه معركة ولكني لا أكتب له أبدا أطالب بالافراج عني ..

وأنا في رأيي أن اشاعات الافراج عني اشاعات ليس لها أساس .. وأنها جزء من حملة مرتبة مقصود بها حقن الناس بكلوروفورم من الامل لكيلا يشعروا بآلام الهزيمة وجروحها .. فيقال للناس سنفرج عن

المسجونين السياسيين ، ولا يفرج عنهم . ويقال لهم سنلغي المعتقلات ثم تبقى المعتقلات . ويقال لهم ستعود الحريات ، ويبقى الارهاب .. والمقصود ان يتحمل عبدالحكيم عامر وشلته وزر كل الكبت وكل المساوىء التي يشكو منها الشعب . ان المشير في القبر وصلاح نصر في السجن وشمس بدران في السجن وحمزة البسيوني في السجن ومع ذلك تجيء لي الاخبار من السجن الحربي أن التعذيب لايزال مستمرا .

ولا أتصور أن المشير أصدر قرارا من قبره بتعذيب أصدقائه الضباط الذين اتهموا في مؤامرته .

تنظيم حملة صحفية
من داخل السجن

١٠ نوفمبر ١٩٦٧

عزيزتي ..

أشعر بخجل من نفسي ، وأصدقائي وتلاميذي ينهالون على بخطابات من خارج السجن .. ان معي في السجن عشرات من المسجونين السياسيين حرموا منذ أكثر من عامين من أن يكتبوا خطابا واحدا أو يتسلموا من أهلهم خطابا واحدا . حرموا من أن يشربوا سيجارة . حرموا من أن يقابلوا أولادهم وزوجاتهم وأمهاتهم . لا يعرفون هل أولادهم أحياء أو أموات ، مرضى أو أصحاء ، في عالم الحرية أو في غياهب السجون . ان ما أتحمله من عذاب في سجني أقل كثيرا مما يتحمله غيري وأحمد الله على ما أنا فيه اذا ما قارنته بأيام سجن المخابرات في شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر واكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٥ ، عندما كنت لا أعرف هل أصدقائي وأحبائي وأعضاء أسرتي في السجن أم مطلقو السراح ! هل أخي موجود في الخارج أم خطفوه ووضعوه في صندوق وارسلوه الى القاهرة ؟ لا أتلقى خطابا ولا أقرأ جريدة أو كتابا . حتى المصحف الشريف حرمت منه . ثم أقارن بين حياتي الآن وحياتي في أيامي الاولى في ليمان طرة . كيف أمضيت أيامي الاولى لا أجد طعاما آكله ، ولا سيجارة أدخنها . أيام كنت أنام على الارض والروماتيزم الملعون يفترس مفاصلي والبرد يلدغ سلسلتي الفقرية مثل لدغات الثعبان . أيام كنت لا أستطيع أن أقرأ جريدة واذا وقعت في يدي خبأتها داخل ملابسي كقطعة من الحشيش ثم أستيقظ عند الفجر وأمزقها إربا إربا لكي أخفي معالمها حتى لا يجيء الشاويش ويضبطها معي كأنها قنبلة ذرية أخفيها ، أيام كنت أمضي ليالي أقتل الصراصير في زنزانتي وأتصور أن كل حشرة منها واحد من الذين

ظلموني وأن حذائي هو السلاح الوحيد الذي بقي معي لأعبر به عن رايي ! أيام كنت لا أملك ورقة ولا قلما ولا مظروفا ولا ورقة بوستة . أيام كنت أعيش أسابيع ببذلة زرقاء ممزقة لا أملك سواها ، أخرج بها وأنام فيها . أيام كانت تعليمات الدولة بأن أعامل فى السجن مثل وباء الكوليرا . ممنوع على أي انسان أن يقترب مني أو يتحدث الي . أيام كان يهدد كل مسجون بأنه اذا حياني من بعيد فإنه سوف يسجن في التأديب أو سوف يجلد أو سوف ينزل به أشد أنواع العقوبات . إيام أخلوا كل الطابق الذي أقيم فيه من جميع المسجونين وبقيت فيه وحدي مع خمسين زنزانة خالية . ايام كان ممنوعا على أي مسجون أن يقترب من الزنزانة التي أنا فيها أو يمر أمامها ، واذا نزلت الى فناء السجن لأتمشى فيه أخلي الفناء من مئات المسجونين ومن الحراس لأمشي وحيدا منفردا منبوذا لا يراني أحد ولا أرى أحدا ولا يكلمني انسان ولا أكلم انسانا . كانت هذه اياما مريرة شاقة قاسية كريهة مؤلمة . وكانت الليالى أشد مرارة وشقاء وقسوة وكراهية وبؤسا وفظاعة . مرت علي هذه الايام الملعونة وكنت أحرص على الا أكتب لكم شيئا عنها ، حتى لا أزيد من عذابكم وآلامكم ولا أضاعف شقاءكم وأحزانكم . ومع ذلك لم افتح فمي مرة واحدة بالشكوى ولا بالاعتراض ولا بالاسترحام . انني لا أجيد الكلمات الراكعة . كنت واثقا أن اليد التي تضرب سوف تتعب من الضرب . وأحمد الله أن ايماني بالله كان يشتد مع اشتداد الاذى . وكان يتضاعف مع العذاب . كلما زادوا في ايلامي زدت في صمودي . ما أبعد الفرق بين حياتي الاولى في غرف التعذيب وحياتي في زنزانة ليمان طرة . انها كالفرق بين الجحيم والجنة . اليوم يفتشون زنزانتي كل صباح وكل مساء . وأنا لا أشكو من ذلك بل انني أدعو الشاويش بنفسي ليفتش الزنزانة اذا نسي أن يفتشها . أصدقائي من المسجونين العاديين يخفون الممنوعات في زنازينهم أو في أماكن أخرى لا تخطر على البال . بعض أوراقي مدفونة تحت الارض وبعضها مخبأ في مكاتب الضباط دون علمهم ، أما زنزانتي فليس فيها أي شيء ممنوع سواي . انني مدين لذكرياتي الحلوة التي استطاعت ان تمحو حاضري المرير .

الانفاس الحارة للذين يحبونني كانت تدفئني في برودة الزنزانة .لم تكن زنزانتي هنا هي زنزانة العذاب أبدا بل كانت قصر الشوق دائما .لم تكن قبرا لي كما أرادوها بل كانت خزانة لأحلامي .

انني أشعر بسرور اليوم لأنني استطعت وأنا في زنزانتي أن أثير مسألة بعض المظلومين . قانون المخدرات الذي صدر عام ١٩٥٢ قضى بالحكم على أي حامل للمخدرات بالاشغال الشاقة المؤبدة وفي ظل هذا القانون حكم على الألوف بالسجن المؤبد ، بينما صدر قانون آخر سنة ١٩٦٠ هبط بالعقوبة من الاشغال الشاقة المؤبدة الى الاشغال الشاقة المؤقتة . وحاول المسجونون أن يطلبوا تطبيق القاعدة القانونية بأن المحكوم عليه يستفيد من صدور قانون جديد يهبط العقوبة القاسية الى العقوبة الأخف . ولم يسمع لهم أحد ولم يهتم بهم أحد . وبرغم أنه لم يعد لي حول ولا طول ، وبرغم أنني لا أستطيع ان أطلب من صحفي واحد أن يكتب عن هذا الظلم فقد استطعت أن أجعل الصحف تكتب عنه . ونظمت حملة واسعة من داخل السجن ، وأمطرت الوزراء والنواب والصحفيين بخطابات تطالبهم بأن يتحركوا وينفذوا القانون . ونجحت في ان أجعل تلميذي رافت بطرس المحرر بأخبار اليوم يكتب عن هذا الظلم تحقيقا رائعا نشرته آخر ساعة . واستطعت من زنزانتي أن اجعل هذا الموضوع موضوع الساعة ، وكانت النتيجة أن صرح وزير العدل للصحف أنه سيبحث حالة هؤلاء المظلومين . وتلقيت اليوم أنباء مؤكدة بأنه سيفرج عن كثيرين منهم نتيجة هذه الحملة الصحفية . كانت لذتي الكبرى في عالم الحرية أن أرفع الظلم عن المظلومين أو أن أمنع الظلم عنهم .لم اتصور ابدا أن الله سوف يعطيني الفرصة لأفعل نفس الشيء وأنا مقيد في زنزانتي . هذا شيء أسعدني كثيرا .شعرت أن يدي لا تزال تستطيع أن تتحرك وتمتد لإنقاذ المظلومين ،حتى وهذه اليد مقيدة بالسلاسل والاغلال . واذا تم ما أرجوه وأفرج عن هؤلاء الألوف فسوف تنفتح بيوت أغلقت وتعود الروح الى ألوف الأسر المشردة وسوف أكون نجحت في إسعاد ألوف من الامهات والزوجات والابناء والبنات . ان عندي عشرات من هذه القضايا . أتمنى لو أستطيع وأنا هنا في

زنزانتي أن أرفع الظلم عن أصحابها ناس لا أعرفهم ولا يعرفونني .
ولكن يجمعنا أن كل واحد منا مظلوم . هذا الاشتراك في الظلم يجعل
بيننا نوعا من الصداقة والزمالة والأخوة . والمهم انني استطعت أن
أفعل كل هذا في صمت وهدوء ، وكان يهمني أن أحمي أصدقائي الذين
ساعدوني خارج السجن فلا يعرف أحد أنهم استجابوا لرغبتي وقاموا
بهذه الحملة الممتازة . فلو عرفت الحقيقة لامتلأت المعتقلات بعدد من
الصحفيين والمحررين . لذتي أن أرى الوجوه الحزينة اليائسة يعلوها
الأمل من جديد . إسعاد الناس هوايتي . وسجني لا يجعلني أمارس
هذه الهواية كما أتمنى وأريد ، ولكني أحاول أن أفعل شيئا في حدودي
الضيقة .

لدينا بعض المسجونين تسعدهم سيجارة . نعم سيجارة واحدة !
أحد المسجونين جاءني اليوم يرجوني بألا ألقي أعقاب سجائري في
الزبالة فهو يحتاج اليها ليجمعها ويصنع من مجموعها سيجارة يدخنها
بشراهة . هذه السيجارة تعني لبعض الناس رغيف عيش زيادة وتعني
لدى آخرين أن ينجو من ضرب شاويش شرس . وتعني لدى بعضهم أن
يأخذ حقه من الفول المدمس . ومن العجيب أن وزير الداخلية أعطى
تعليمات بألا تكون عندي سجاير كافية خشية أن أعطي سيجارة
لمسجون . يا لهم من مغفلين ! السيجارة لا تشتري مسجونا وانما
نستطيع شراء الناس بأن نحبهم . انني أمشي في السجن وأبذر بذور
الأمل في اليائسين . أملأ صدر المقهورين بالاحلام . أحاول أن أجفف
دموع المعذبين المهزومين بمناديل من مشاعر انسانية ومشاركة
بالاحساس . أضمد جراح المخنوقين المذبوحين بابتسامات مشجعة .
أحاول دائما ان اكون ساحرا أجد تعاويذ وأحجبة مسحورة لكل داء .
ولست أزعم أنني أنجح دائما ، ولكنني أقول انني أحاول دائما .
تسعدني المحاولة ويشقيني الفساد . ومن الغريب انني أحاول أن
أسعد الذين لا أعرفهم وانجح وأفشل في أن أساعد زملائي المسجونين
السياسيين الذين معي في نفس القبر . كل ترياق أرسله اليهم لا يشفيهم
من لدغة ثعبان السجن . كأنها وصفات دجال لا أدوية طبيب . انني

أعلم أن عذابهم لن ينتهي الا بالافراج عنهم . فهل أستطيع وأنا هنا في زنزانتي أن اقوم بحملة للمطالبة بالافراج عن المسجونين السياسيين كما نجحت في الافراج عن المحكوم عليهم بالمؤبد في قضايا المخدرات ؟

ان الصحف المصرية تحت رقابة شديدة . في كل دار صحفية رقيب يقرأ كل شيء ويراجع كل شيء . الارهاب يملأ صدور الصحفيين الذين ذاقوا التشرد والجوع والفصل والنقل من الجريدة الى مصانع الاحذية ومصانع السردين . لم يبق صحفي كبير في مصر لم يذق طعم البطش والارهاب والجبروت الا اذا قبل ان يكون حذاء في قدم الحاكم يدوس به على الابرياء .

وعندما اتطلع في وجوه زملائي المسجونين السياسيين أقرأ عذابهم . اقرأ عذاب زوجاتهم وأمهاتهم وأولادهم . أفكر في الاجزاء التي بقيت من كل واحد منهم خارج السجن ، في أقارب لهم يعيشون في زنزانات وهمية ، ولكنها أشد قسوة من الزنزانات الحقيقية . أحيانا أحاول أن أخدع نفسي وأقول لهم ان هذا العذاب لن يطول . قطعنا أغلب طريق العذاب ، ولم يبق الا بضع خطوات الى نهاية الطريق ولكن نفسي لا تنخدع . أنا أعرف أن الظلم سيطول بطول عمر حكم الظالمين . ومع ذلك أرى أنه لا بد أن تجيء نهاية الظلم والظالمين .

تعلقي بالامل هو نوع من المقاومة .. مقاومتي الوحيدة ، أقاوم اليأس ، أقاوم الانهيار وأعتقد ان الله هو الذي جعلني أنجح في هذه المقاومة ، لم أسقط تحت الضربات التي انهالت على راسي . لم أركع تحت وطأة السياط النفسية التي أدمت روحي والسياط الجسدية التي نزفت دمي . ان صمودي هو صلاة أؤديها . لم تكن صلاة واحدة مرة في اليوم . بل صلاة مستمرة متواصلة عندما أنظر ورائي أجزع لطول الطريق الذي اجتزته لضخامة الاهوال التي مرت بي . ويزيد في جزعي انني لم أكن وحدي . معي في السجن الوف المظلومين انهالت على رؤوسهم كل الضربات وكل الطعنات .

هل أستطيع وأنا في السجن أن أنظم حملة في صحف العالم

والصحف العربية للمطالبة بالافراج عن المسجونين المصريين والمعتقلين المصريين ..

لو ضبطوني فسيقولون انها خيانة وطنية .. طبعا هي خيانة وطنية أن تطالب بالعدل في دولة الظلم ، وأن تنادي بالحرية وأنت في زنزانة !

لا يهمني ما يصيبني .. ولكن الذي يهمني أن أعرف هل هذه الحملة سوف تفيد المسجونين السياسيين أم تضرهم ؟

سألت الاستاذ الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين معي في الزنزانة المجاورة عن رأيه في اثر هذه الحملة .

فقال باسما :

- رأيي أنه سيصدر أمر بعدها بقتل جميع المسجونين السياسيين ودفنهم سرا في الصحراء وبعد ذلك يصدر بلاغ رسمي بأنه لا يوجد في مصر مسجون سياسي واحد .

الخطاب المضبوط !

١١ نوفمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتي ..

اليوم عيد ميلاد « أخبار اليوم » .. اليوم مرت ٢٣ سنة على انشائها . واحتفلت انا بعيد أخبار اليوم .. بطريقة غريبة لم تخطر على بال . صدرت الاوامر بإغلاق جميع الزنزانات علينا . لا نخرج منها أبدا الا لمدة نصف ساعة . قرار ثان بأن يمنع جميع المسجونين السياسيين من التحدث مع بعضهم البعض . قرار ثالث بأن يمنع أي مسجون من التحدث معي أو أن أتحدث الى أي مسجون . قرار رابع بنقل مأمور العنبر . قرار خامس بنقل شاويش العنبر . ودهشت لهذه التعليمات الجديدة التي تشبه تماما المعاملة القاسية التي عوملت بها في أول دخولي الليمان . وأحسست أنني المقصود بها وان شيئا ما قد حدث . ثم فوجئت « بكبسة » عدد من الضباط والحراس يقتحمون زنزانتي ويفتشونها ، ويقلبون كل شيء فيها . وتضاعفت دهشتي عندما علمت أن السبب في اصدار هذه التعليمات المشددة أن الدولة ضبطت خطابا أرسلته أنا إلى احدى الجهات !

واستدعاني مدير الليمان وسألني اذا كنت هربت خطابات ..

وتماسكت وقلت انني أكتب خطابات الى أسرتي بالطريق الرسمي .

وتركني المدير في مكتب مأمور السجن ، ليتحدث في التليفون مع المسؤولين الذين كانوا ينتظرون نتيجة التحقيق .

والتف حولي ضباط السجن ليسألوني : ألم ترسل خطابات تهاجم الحكومة ؟ وكانوا يتصورون أنه لا بد أنني كتبت شيئا خطيرا أدى الى أن تقوم الدنيا وتقعد !

واستدعيت مرة أخرى لمكتب مدير الليمان وقال لي : ان الخطاب الذي كتبته موجود تحت يدي وهو الآن في درج مكتبي ..

وانخلع قلبي . معنى ذلك أن طريقة تهريب الخطابات قد انكشفت .

ولكني تجلدت ولم أقل شيئا ومضى مدير الليمان يقول :

- سوف أواجهك بالخطاب الذي كتبته بخط يدك ..

وفتح المدير درج مكتبه ، وأخرج مظروفا صغيرا وقال لي : أليس هذا واحدا من الخطابات التي ترسلها ؟

ونظرت الى المظروف فاذا به ليس من المظاريف التي أستعملها اطلاقا ، وتمالكت نفسي ولم تبد علي الفرحة بالنجاة وقلت : هذا ليس خطابي .

وفتح المدير الخطاب ، فقلت له : وهذا ليس خطي .

فقال المدير : أكتب كلمة « صحافة » .

فقلت له : لا .. سأكتب لك سطرا كاملا من الخطاب ، حتى تعرف أن هذا ليس خطي ..

وكتبت سطرا ، وبينما أنا اقفل السطر ، قرأت الخطاب كله فإذا به مطالبة صحف أخبار اليوم بالاهتمام بمشكلة المحكوم عليهم في قضايا المخدرات طبقا للقانون القديم ، وشكر مجلة « آخر ساعة » على اهتمامها بالموضوع .

وقارن المدير خطي بخط الخطاب ، فوجد أنه ليس خطي على الاطلاق ولا يشبهه !

والحقيقة أن الخطاب كان مني فعلا الى بعض تلاميذي في « أخبار اليوم » ولكني حرصت ألا اكتبه اليهم بخطي ولا بإمضائي حرصا عليهم .. وحدث أن كان الضابط اركان حرب السجن يزور رأفت بطرس المحرر بمجلة آخر ساعة في مكتبه بدار أخبار اليوم ورأى الضابط على مكتب المحرر هذا الخطاب ، فاعتقد انه بخطي وسرق الخطاب ووضعه في جيبه وقدمه للمسؤولين باعتباره خليفة شارلوك هولمز الذي وفق الى اكتشاف السر الخطير .

وهذا الضابط شارلوك هولمز كان مشهورا بالتجسس على المسجونين ومعرفة ما يقولون ويفعلون ، وكان يتولى جلدهم بنفسه في سجن التأديب .. وكان يجند بعض المسجونين للتجسس علينا ومعرفة أخبار المسجونين السياسيين ، ووجدنا أن خير ما نفعله أن نجند جواسيسه

أنفسهم ضده !.. وأن نجعل مكتب أركان حرب الليمان نفسه هو المخبأ الذي نضع فيه الممنوعات .

وشعرنا عندئذ أننا رددنا التحية بأحسن منها ..

اننا نمشي بحذر داخل الليمان نقدم قدما ونؤخر أخرى ، نتلفت وراءنا لأننا نعلم أننا تحت رقابة صارمة . المخابرات لها عيون ، والمباحث لها عيون ومباحث المصلحة لها عيون وادارة السجن لها عيون ، وأي غلطة يمكن أن تكشف عن جهاز التهريب كله ـ داخل السجن وخارج السجن . هذا الجهاز من الاصدقاء المجهولين يمنحني حرية الحركة وأنا مقيد في الاغلال . يجعلني أستطيع أن أجعل صوت المظلومين داخل الزنزانات يخترق الاسوار وينفذ من الحصار المضروب . والذين وضعونا في هذه القيود ودفنونا تحت التراب يتصورون أنهم كتموا أنفاسنا وقطعوا ألسنتنا وداسوا بأقدامهم على أعناقنا . وسوف تتضاعف وحشيتهم اذا اكتشفوا أن أصواتنا تخرج من القبر ، وأن رسائل أصدقائنا تدخل الى القبر بانتظام وأن كل ما يحدث لنا من تعذيب وتنكيل يصل الى الناس . والفضل في نجاحنا حتى الآن لا يعود الى كفاية التنظيم الذي اخترته ولا الى عبقرية الخطة التي وضعتها ، انه تنظيم بسيط وخطة ساذجة ، وانما الله هو الذي يتستر علينا . هو الذي يعمي عيون الجستابو فلا يرانا .. ومن عجائب القدر اننا استطعنا أن نصل الى المسجونين الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا « جستابو » علينا وأصبحنا نقرأ التقارير السرية المكتوبة ضدنا بل تمادى بعض زملائنا من المسجونين السياسيين وأصبح يملي على هؤلاء الجستابو بعض كلمات تقريرهم ، ويضع فيها ما يضلل الذين بعثوا بهذه العيون تتعقب خطواتنا . والغريب أن هذه العيون قبلت أن تخدم الله والشيطان في وقت واحد ! تقبض من خصوم البشرية ثمن الاكاذيب وتعطينا الحقائق مجانا ! لا يوجد شرف ولا ذمة ولا ضمير بين الذين يتعاملون بأسلحة الغدر والوقيعة !

اننا نعيش كل يوم مع الخطر في زنزانة واحدة .

ولكن الله معنا .

« إن الله يمهل ولا يهمل »

اول ديسمبر سنة ١٩٦٧

صديقي العزيز ..

لا تتوهم أن صورتي في سجني هي صورة الرجل الضجر بحياته ، المليء بالهموم ، الذي يعيش حياة كئيبة حزينة في وحدة مطلقة . أبدا ، بل انا أحاول ان اصنع حياتي في السجن بيدي .

ذكرياتي واحلامي اشبه بأنابيب الالوان ، وخيالي أشبه بالريشة . انا أمسك الريشة وأغمسها في الالوان ، ثم أبدأ في تلوين واقعي . أضيف اليه ألوانا بهيجة من الماضي والمستقبل ، وظلالا باهتة من الحاضر ، حتى تجيء الصورة أقرب إلى صورة موكب فرح منها الى موكب جنازة .

خيالي هو ايماني . ليس أوهاما وانما هو عقيدة . كلما زاد ايماني بالله ارتفعت فوق مستوى واقعي ، كأنني أركب طائرة نفاثة ، وكلما ارتفعت تضاءلت الآلام على الارض . اننا نتصور آلامنا ونحن على الارض كأنها ناطحات سحاب فإذا ارتفع ايماننا فوقها صغرت وتضاءلت حتى أصبحت في حجم علبة الكبريت .

انني لم أنتج في خلال هذا العام كل ما أريد من قصص وكتب . الرقابة الصارمة والحذر الشديد لا يعطيني الفرصة لأكتب كل ساعات الليل والنهار . رأسي اشبه بمكتبة فيها عشرات من الكتب والقصص ، لا ينقصها الا أن تدون على الورق . الذي يحدث لي هو نوع من التخزين . اخزن الافكار في رأسي ، أرتبها فوق بعضها البعض . وعندما تنتهي فترة الظلام سوف اكتب ، واكتب . أنا لا انام وانما احلم . لا أسكت وانما أفكر . لا اضحك من الناس وانما أسخر مما نحن فيه ! اذا صمتت شفتاى عقلي يدوي . لا أتصور أن السجن انهى حياتي بل أؤمن

انه بداها ! انا اليوم أشبه بعطلة نهاية الاسبوع ، ثم بعد ذلك ابدأ يوم السبت في حياتي الأدبية والصحفية . أصبحت أرى أن دخول الكاتب أو الفنان الى السجن ضرورة كدخول الجامعة . بعد أن بقيت في السجن هذه المدة الطويلة أصبحت أعتقد انني في الماضي قمت برحلات عديدة في أنحاء العالم ولم أر شيئا . الدنيا الحقيقية هي هنا بين الجدران العالية ، وراء هذه الاسوار والقضبان . هنا يرى الواحد منا الوانا وأشكالا من الناس . نحن أشبه بمرضى في مستشفى . بعضنا لا علاج له ، وبعضنا شفاؤه أكيد ، وبعضنا لم يستطع المرض أن يشوه جماله الداخلي . وبعضنا مشوه . فينا كاملون وناقصون . ملائكة وحيوانات . مظلومون وظالمون . أقوياء وضعفاء . طغاة ومسحوقون . مع ذلك لا أشعر بالاشمئزاز هنا عندما أرى شيئا كئيبا . اشعر بالشفقة . انا أحبهم جميعا بما فيهم من نقائص وفضائل ، من مزايا وعيوب . قبل ذلك كانت مثل هذه المناظر تصيبني بالغثيان الداخلي ، بشيء من القرف . الآن لم أعد اقرف من شيء . انني هبطت الى أعماق الحياة ، وفي هذا العمق السحيق وجدت نبلا وخلقا وفضلا وانسانية . ليس ضروريا أن يكون وراء كل بذلة زرقاء مجرم بطبعه ، بل كثيرا ما يكون وراء هذه البذلة الحقيرة انسان طيب لا يختلف عن الذين يرتدون ملابسهم الكاملة الانيقة . وجدت السجن مليئا بالناس الطيبين . الاشرار فيهم أقلية . وهم أشرار بالسمات ، وأنا شخصيا لم أجد حتى الآن شريرا حقيقيا . أنا من طبعي أعذر الناس . أعطي أعذارا للطبيعة البشرية . تجربتي أن ليس كل من حمل في يده كتاب الصلوات قديسا ، وليس كل من حمل خنجرا مجرما . أقضي وقتي في محاولة درس الناس . قراءة الناس لا تقل متعة عن قراءة الكتب . وكلما تعمقت في أعذارهم وجدت أشياء جميلة لا تبدو على ملامحهم . بعض الذين تضحك شفاههم تنتحب قلوبهم . بعض الذين تبدو على ملامحهم القسوة والعنف تجد في أعماقهم طفلا بريئا !

الجحيم هو الآخرون في رأي الفيلسوف الفرنسي سارتر . ولكن الجحيم في رأيي هو أنفسنا . نحن نعذب أنفسنا ونحرقها بتصور السوء

في الآخرين ، بينما الذي نراه هو القشرة الخارجية ، وبشيء من الصبر والفهم نجد نفوساً طيبة خيرة بريئة ، وذلك عندما ننزع هذه القشرة بغير أن نؤلم صاحبها أو نسيل دمه . هذه النفوس التي خدعنا مظهرها الخارجي المنفر هي ضحية ظروفها . وكل واحد من هؤلاء المسجونين القساة العتاة الذين أرى في وجوههم الشراسة يحمل قتيلا في داخله ، وعندما يغادر الواحد منهم السجن يستيقظ الميت الذي في داخله ، ويغادر مكانه ويتحول الى رجل عادي بعد أن تخلص من الحمل الثقيل الذي في أعماقه . والقتيل هو حريته . ولهذا يبدو في بعض الاحوال وكأنه يعيش مع رجل ميت . ما أقسى الحياة مع ميت في زنزانة واحدة ! ولكن أقسى منها الحياة مع ميت داخل جسم واحد . ومن هنا نحن نخطىء اذا تصورنا أن المسجون هو الجثة الميتة في داخله ، وليس الانسان الذي يحمل الجثة .

اخشى أن اكون اخذتك معي الى أغوار السجن وأبقيتك فيه طويلا . الآن أعود اليك . العودة الى الحديث مع أصدقائي تنسيني أنني في السجن . كنت ارتعش من البرد قبل أن اكتب اليك . ولكن ما كدت أسطر أولى كلماتي إليك حتى احسست بالدفء ينساب الي ! التفكير في أصدقائي وأحبائي هو جهاز تدفئة لا يفسد أبدا . الصداقة الحلوة تكمل الحواس الخمس ! ما قيمة النطق اذا لم أستطع التحدث الى صديق . ما قيمة السمع اذا لم أسمع صوت محب ! ما قيمة اللمس اذا لم ألمس يده . ما قيمة الذوق اذا لم أذق طعم حلاوة الحياة ونقتسمها معا . ان ذكرياتي مع أصدقائي وأحبائي هي راقصات يرقصن حولي ، ويغنين لي . هذه الذكريات بألوانها وأشكالها وأنغامها وألحانها ، ومرحها وخبرتها تكون سيمفونية رائعة فيها مزيج من موسيقى باخ وموسيقى الجاز باند المجنون . ماضينا ليس بعيدا عنا . انه قريب منا . لأنه يعيش فينا . لم يكن الماضي أياما ذهبت ، وانما هو ايام لا تموت . باقية ما بقينا . لأنها حياتنا وأحلامنا . ذكرياتي مع أصدقائي أشبه ببيك آب فيه ١٤ اسطوانة ، له أزرار سحرية لا أكاد أضغط على زر حتى تدور مائة أسطوانة في كل أسطوانة ، وعندما أستعيد سماع هذه

الاغاني أطرب كأنني أسمعها لأول مرة ، وهذا شأن الموسيقى الخالدة . كلما مضى عليها الزمن تضاعفت عذوبتها ، وبدت حلاوتها ، وظهر جمالها . حياتي مع أصدقائي وتلاميذي هي مجموعة ضخمة من الموسيقى الرفيعة والموسيقى الخفيفة . كثير منها أسطوانات جيدة وقليل جدا منها أسطوانات مشروخة !

اننى أعود نفسي على الحياة في الزنزانة . أصبحت الحياة في الجحيم عادية . كل ما نتمناه الا ينقلونا الى جحيم أشد سعيرا . لا أريد أن أشعر أنني محروم من شيء . لا أريد أن أبدو صغيرا أمام رغباتي . من رأيي أنه عندما يفقد الانسان حريته تتضاءل كل الضروريات بعد ذلك ، تبدو تافهة لا قيمة لها . أنا في زنزانتي بايماني أبدو أقوى من السجان الذي يراقبني . أقوى من الحاكم الذي وضعني في السجن . أنا مطمئن وهو خائف . أنا باق وهو ذاهب . الزلزال عندما يقع لن يطيح بي الى الحضيض فقد وضعوني في الحضيض ، ولكن الزلزال اذا وقع فسيهزه ويهوي به إلى الارض . أكثر ثباتا من الذي يتبوأ قمة الهرم !

أحمد الله أن السجن لم يؤثر حتى الآن على روحي ولا على قلبي ولا على ايماني ، ولا على صمودي ولا على أعصابي ، وهذا مكسب عظيم . ما دام قلبي مؤمنا فلن أشعر بضعف وما دامت روحي عالية فلن أجزع أمام الظلم .

ان الله يمهل ولا يهمل .

حفلة رأس السنة في السجن !

٣ يناير سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

... اما انا فقد امضيت ليلة راس السنة في زنزانتي . هذا هو ثالث عام استقبله في عالم السدود والقيود . لم أطفىء الانوار فقد كانت الانوار منطفئة . ولم ارتد بذلة السهرة ، فقد كنت ألف جسمي بالبطاطين من شدة البرد . في منتصف الليل لم يكن في قدرتي أن أطفىء النور أو أضيئه ، ولهذا اكتفيت بأن افتح عيني واغمضهما ! كانت صلواتي الى السماء هي حفلتي الساهرة . حفلة ليس فيها موسيقى ولا رقص ولا صخب ولا ضوضاء . حفلة صامتة . مرت امامي عيون الذين احبهم في موكب كبير . راحت الاحلام تتراقص والاماني تتمايل ، والذكريات تتعانق على انغام لا وجود لها . أدب اللامعقول لم يتخيل حفلة عيد راس السنة التي اقمتها في زنزانتي . كنت المدعو الوحيد فيها . الزحام كان شديدا . الافكار حشرت في راسي كما ينحشر الراقصون والراقصات في حفلات رأس السنة الصاخبة المرحة . افكاري تكشف عن صدرها وظهرها وساقها كما تفعل النساء والفاتنات في سهرات الاعياد في الخارج . رأسي كان اشبه بحلبة رقص . فيها ضحك وصراخ . فيها اذرع تتشابك وصدور تتعانق ، واقدام تدق على الارض بشدة . فيها صفير مزامير ، وفرقعة سدادات زجاجات الشامبانيا . فيها بالونات تطير وبالونات تسقط . فيها صخب وضوضاء . كانت بعض افكاري تضع اقنعة على عيونها كما يفعلون في حفلات الكرنفال . ومن حقك أن ترفع الاقنعة عن بعض افكاري لترى ما وراء الاقنعة السوداء .

كنا نحتفل انا وانت براس السنة بطريقتنا الخاصة . كنت أجلس معك في مكتبك ، أو تجلس معي في مكتبي ، وندون برامجنا للسنة

القادمة ، وللعشر سنوات المقبلة . وكان الله كريما معنا واستطعنا دائما أن نحقق كل سطر تمنيناه ودوناه في مفكرتنا في أول صفحة من صفحاتنا ، وكنا ننتقل طول السنة من تنفيذ فكرة الى تنفيذ فكرة أخرى ، كما ينتقل الراقص الرشيق من ذراعي فاتنة الى ذراعي فاتنة أخرى على أنغام كل لحن جديد ..

هل أستطيع أن أجلس اليوم وأدون في مفكرتي مشروعاتي للعام الجديد ؟

لا أظن أن تقدمي في السن هو الذي يجعل أحلامي تمشي كالعجائز متوكئة على عكازين .

أحلامي لا تزال شابة . تريد أن ترقص ، وتقفز ، وتثب ، وتعدو . ولكن قيود السجن تجعل هذه الاحلام تحرك خطواتها على غير انغام . فتجيء الخطوات متعثرة وكأنها تمشي في جنازة لا ترقص في حفلة راس السنة . ما أشبه افكاري الليلة بالعجائز الذين يجلسون حول حلبة الرقص ، يضعون نظاراتهم في أيديهم ويحملقون في وجوه الراقصين من الشباب وأقدامهم ، ويتنهدون ويتحسرون لان الروماتيزم يمنعهم أن يدخلوا إلى الحلبة المجنونة ، ويرقصون في عنف مع الراقصين المرحين المملوئين حيوية ونضارة وشبابا .

لا أريد أن أتعبك طويلا معي في حفلة راس السنة الجديدة . الزنزانة ليست واسعة لكي تتسع لأفكاري وأفكارك . ربما تدوس افكاري على أفكارك ، كما تدوس قدم الراقص الغشيم على قدم زميلته في زحام الرقص لسهرة العام الجديد .

اهم صلاة لي في رأس السنة انني لقيت في قلبي صلاة شكر . نعم شكرت الله لأنه فعل لي أشياء كثيرة جميلة رائعة كانت أجمل من كل أحلامي وأروع من كل خيالي . كأن كل يوم من أيام حياتي من قبل أن أدخل السجن ، حفلة رأس سنة ، أعطاني الله كثيرا جدا .. أكثر مما طلبت ، وأضعاف ما طلبت . ليلة القدر تجيء للناس مرة كل عام وكانت تجيء لنا كل يوم ، واحيانا كل ساعة . حتى العمل الشاق المضني جعله الله عملا لذيذا . طعم العرق فيه مثل طعم الشهد . صوت الآلات فيه

كألحان السيمفونيات. . اذا كان الله قد شاء أن أفقد حريتي فقد ضاعف ايماني . أخذ القليل وأعطى الكثير. حرمني ترف الحياة وغمرني بترف الصبر والصمود والايمان..

كلما قرأت عن البرد في أوروبا فكرت فيك . موجة البرد في السجن كانت شديدة في هذا العام ، فكيف بها في لندن . انني أتصورك مسجونا في غرفتك في لندن ، لا تستطيع أن تفارقها . وأتصور نور الكهرباء مضاء فيها بالليل والنهار لاختفاء الشمس .

ولكن أرجو أن تشرق الشمس من جديد.. . لا بد أنها ستشرق ، وستعود الى مشاهدة مباريات الكرة في انجلترا من جديد . انني منذ مدة طويلة لم اشهد مباراة كرة . ألغينا موسم الكرة بسبب ظروف العدوان . وألغت الحكومة مشاهدة المساجين للتليفزيون عقابا للمسجونين على هزيمتهم في ٥ يونيو.. . نعم نحن الذين هزمتنا اسرائيل لا حكومتنا !

أرجو أن تتحقق آمال بلادنا وينصرها الله ، وعندئذ ستعود الحياة الطبيعية. . وعودة الحياة الطبيعية في رأي بعض الناس هنا هي الافراج عن المسجونين السياسيين واغلاق المعتقلات ، وفي رأي آخرين هي السماح للمسجونين السياسيين بالتفرج على التليفزيون !

سمعت ان أم كلثوم استقبلت استقبالا هائلا في باريس . أسعدني نجاحها كثيرا . أسعدني أكثر ما أبدته من بطولة أثناء المحنة ، وكيف انها قامت بدور المواطنة الاولى بجدارة واستحقاق .

لا اكاد أخرج من زنزانتي . البرد الشديد يجعلني أفضل البقاء في الزنزانة .

حياتي الآن في داخل زنزانتي . وبالرغم من أنني في الجهة القبلية الا انني لا استطيع ان افتح الا نصف النافذة بسبب الريح الشديدة . أحاول أن أهرب من الزكام اللعين . استطاع مرة واحدة أن يمسك بخناقي ، وبقيت أعاني حوالي الاسبوعين . استطعت أن أنجو منه في فترة البرد الشديدة التي جعلتني أتصور أنني في سيبريا !

حدثت في السجن هذا الاسبوع مأساة أحزنتني . معنا في العنبر مسجون سياسي له سبعة أولاد ، أصغرهم اسمه خالد . وهو يحب ولده

هذا حبا لم أر مثله كثيرا . كان يكتب كل خطاباته الى أسرته باسم خالد الصغير . وقابلته أسرته فلاحظ أن ابنه خالد ليس بينهم ، وسأل عنه ، فقيل له انه مشغول باستذكار دروسه .

فسأل الأب لماذا لم يعد خالد يكتب له . وأجاب أولاده أنهم نصحوا خالد بأن يتفرغ لدروسه ويترك لهم مهمة الكتابة . ثم جاءت زيارة الشهر الثاني فلم يجد خالد بين الزائرين فسأل عنه ، فقالوا له ان خالد لا يزال مشغولا في دروسه .

فثار الاب وقال : انني أكتب الى خالد باستمرار فكيف لا يرد علي .

قال الاولاد : ان لدى خالد عذرا يمنعه من الكتابة .

وصرخ الأب غاضبا : لا يوجد سبب في الدنيا يمنع ابني خالد من الرد على خطاباتي منذ ستة أشهر ، ولا يحضر لزيارتي منذ ستة أشهر ..

وأجهش الابناء بالبكاء وقالوا له ان خالد مات منذ ستة أشهر ، وانه لهذا لم يستطع الرد على خطابات أبيه ، وان الاولاد اتفقوا على اخفاء الخبر عن أبيهم لأنه مريض بالذبحة الصدرية . ولكن أم خالد وأولادها لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا العذاب أكثر مما تحملوه . كان كل خطاب يرسله الأب الى البيت باسم خالد يجعل البيت يتحول الى مأتم وكأنه لم يمت الا ساعة وصول هذا الخطاب . وكان سؤال الأب في كل زيارة عن خالد أشبه بطعنة سكين تغمد في قلوبهم .

وأمضيت وقتا طويلا أواسي هذا الأب المفجوع المنكوب ، وكنت طوال وقت مواساتي له أسائل نفسي ترى كم هي عدد الاخبار السيئة التي يخفيها عني الذين يحبونني؟ أي الأمرين أرحم أن أسمع الاخبار المؤلمة عند وقوعها ، أو أن أبقى جاهلا بها؟ من الغريب انه كلما تأخر خطاب أعيش في قلق وهم وعذاب .

الزنزانة هي خير مكان يفرخ فيه التشاؤم ويبيض . جوها المقبض . جدرانها الجرداء . قضبانها القاسية . بابها المغلق . كلها أشبه بأقفال ضخمة وأبواب مسدودة تمنع التفاؤل من الدخول اليها ، أكثر مما هي قضبان تمنع المسجون من الخروج منها !

أشعر أن خطاباتي هي سمك لبن تمر هندي . أذكر أيام كنت أكتب سلسلة عن أسرار ثورة ١٩١٩ أن حصلت على الخطابات التي كان يرسلها شفيق منصور أحد أبطال الثورة ، من منفاه في جزيرة مالطة الى أسرته في القاهرة.

وفرحت بهذه الثروة التاريخية . وتصورت أنني سأجد فيها وصفا رائعا لحياة المصريين المنفيين . ماذا قال سعد زغلول عندما عرف أن الشعب ثار من الاسكندرية الى أسوان احتجاجا على الانجليز ؟ ماذا قال حمد الباسل باشا عندما علم أن فرسان الفيوم ركبوا خيولهم وحاولوا الزحف على القاهرة ؟ ماذا قال محمد محمود باشا عندما عرف أن أهالي الصعيد تصدوا لقطار بريطاني مسلح وقتلوا كل الضباط الانجليز الذين كانوا فيه وأخذوا كل ما به من أسلحة وذخائر ؟ ما هو الحديث الذي جرى بين الشبان الذين نفاهم الانجليز الى مالطة سنة ١٩١٤ ولم يتحرك أحد ، وبين الساسة الكبار الذين نفوهم سنة ١٩١٩ فاهتزت مصر من أقصاها الى أقصاها ؟

واذا بي أفاجأ بأن الخطابات كلها بصيغة واحدة وبمعنى واحد . « أرسلوا لي الشيك بحيث يصل في أول الشهر » . « لا تنسوا تحويل اماناتي بحيث تصل في أول الشهر » .

« أرجوكم الاهتمام بإرسال الشيك بانتظام » . « البرد شديد فلا تنسوا الفنلات الصوف ».

وعندئذ شعرت بخيبة أمل شديدة أن يتحدث الزعيم المسجون عن مسائل تافهة مثل الفلوس والفنلات والجوارب ، ولا يتحدث عن حياة الزعماء في المنفى .

واعتقد أن المؤرخين سوف يصابون بخيبة أمل أيضا عندما يجدون خطاباتي مليئة بالحديث عن المسائل الدنيوية مثل علبة الفليت ودواء الصراصير وأدوية السكر والشبشب الذي أريده ! وبعد أن دخلت السجن عذرت شفيق منصور ، وفهمت لماذا تضيق الحياة في السجن وتضيق وتضيق حتى تصبح هذه المسائل التافهة مسألة هامة يتحدث عنها في خطابات قد تكون في يوم من الايام خطابات تاريخية.. . فيبحث

مثلا عن رأي السجين في المعركة الاخيرة بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية فلا يجد الا وصف المعركة التي وقعت في الزنزانة بينه وبين الذباب والناموس والصراصير .

وكل سنة وأنت طيب ... ومصر طيبة .

من الذي يدق الباب
الحرية .. أم الكرباج ؟

١٢ يناير سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ...

لا أعرف كيف أشكرك على الانتظام في الكتابة الي . انني في المدة الأخيرة لم أكتب اليك كما كنت احب أن أكتب . ولكنك لم تجازني على عدم انتظامي فكنت تكتب لي بانتظام . وأنت لا تتصور قيمة الخطاب للمسجون . انه زيارة غير منتظرة . لقاء سعيد في أيام محنة . زهرة في عالم الشوك . نسمة هواء لمخنوق . كوبري بين الحياة والعدم . عندما أعيش فترة بغير خطابات احس كأن كل شيء انقطع بيني وبين العالم . هذا هو الخيط الرفيع الذي يربطني به . قد يكون خيطا وهميا ولكني أشعر انه شيء أتعلق به . ولا أغطس في بحار الاوهام.

من بين ما يربطني بالحياة «الاذاعة» ! عندما يغلق باب السجن في الساعة الرابعة بعد الظهر يدخل الظلام الى الزنزانة . وأبقى جالسا في فراشي أنتظر موعد اضاءة الانوار لأستطيع ان اقرأ في جريدة ، أو مجلة أو كتاب . وفي بعض الاحيان يطول انتظاري ساعتين او ثلاثا الى أن يجيء النور . وفي أحيان يشفق السجان النوبتجي ويضيء النور بعد ساعة ونصف ساعة . وفي خلال هذه المدة اقبع في فراشي ، أفكر وأتذكر وأتخيل . ثم تجيء الاذاعة فتخفف وحدتي . لقد أصبحت أعرف أسماء المذيعين والمذيعات كما أعرف جدول الضرب ! واستطيع أن أعرف الساعة من مواعيد البرامج الاساسية . فاذا سمعت القرآن في المساء فمعنى ذلك أن الساعة الثامنة ، واذا سمعته في الصباح فمعنى ذلك اننا في الساعة السادسة صباحا . ما أشق الحياة بغير ساعة ! لقد أردت أن أصنع لنفسي مزولة على طريقة القدماء ، فأعرف الساعة من قياس أشعة الشمس ، ولكن هذه الساعة تخونني كثيرا ، فإن تقلب

الجو يجعل ساعتي تتأخر ساعة او تتقدم ساعتين . ومن هنا أصبحت الطريقة الوحيدة لمعرفة الساعة أن أتابع ساعة راديو السجن . ويحدث أحيانا أن ينسى السجان النوبتجي فتح الراديو فأتصور أن الساعة هي الخامسة صباحا بينما هي في الواقع الثامنة صباحا . ولقد حدث مرة أن استيقظت من النوم على أنني في الصباح ، ثم اكتشفت بعد ذلك انني لا أزال في منتصف الليل .

والاذاعة تجعلني أعيش مع أصدقائي ومعارفي وتلاميذي . وربما أكون المسجون الوحيد في العالم الذي يسمع صوت أصدقائه في الاذاعة باستمرار .

انني أسمع صوت أنيس منصور باستمرار . أصبح القاسم المشترك في جميع البرامج وفي برنامج المرأة وفي برنامج الادب وفي برنامج الفن وفي برنامج القصص . حتى أصبحت أدهش أنني لا أسمعه في برامج الاطفال . وسمعت صوت سعيد فريحة وهو يتحدث في الاذاعة عن المرأة ويتغنى بها وبجمالها وسحرها وعظمتها حتى خشيت أن تكون امرأة ما ضربته «مقلبا» ! واسمع باستمرار صوت أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وشادية . ومن وقت لآخر صوت موسى صبري وكمال الطويل واحمد رجب وكمال الملاخ وجليل البنداري . وكأننا نتعشى معا عندي في ليالي الاربعاء والسبت من كل أسبوع أو نتغدى على مائدتك يوم السبت . ويحدث أحيانا أن يجيء سجان نوبتجي له مزاج فني خاص فيفتح الاذاعة اذا غنى فريد الاطرش ويغلقها اذا غنى عبد الوهاب ، أو يفتح الاذاعة في حديث الاطفال ويغلقها في نشرة الاخبار !

انني أمضي وقتي في قراءة الصحف الاجنبية . أتابع التجديدات المستمرة في جريدة التايمز ، وأعتقد انه اذا استمر التجديد فانها ستصل الى المليون نسخة في خلال هذا العام ، مع أنني علمت أن هدفهم هو الوصول الى نصف المليون ، وأجد التايمز أحسن ألف مرة من الديلي تلجراف ترتيبا وتبويباً وإخراجا وصحافة . ومضت علي مدة طويلة لم أقرأ الديلي اكسبريس ولا الديلي ميل ولا نيوز أوف ذاورلد وغيرها من

الصحف الشعبية . ولا تعجبني جريدة «الاوبزرفر» في الوقت الحاضر ، ولكن تعجبني جريدة «الصانداي تايمز» ، انها تنطلق كالصاروخ . الاوبزرفر تحاول أن تكسب عقول القراء ، والسانداي تايمز تحاول أن تكسب العقول والقلوب . انني أجد في بعض الاحيان مواضيع ممتازة في جريدة «الاوبزرفر» ، ولكن أرى في كل عدد من السانداي تايمز صحافة وحيوية واندفاعا الى الامام . . ولهذا فانني أتوقع أن تكسب السانداي تايمز السباق .

وقد رأيت التجديدات الجديدة في جريدة «الاخبار» فلم تعجبني . انها عودة بالصحافة الى القرن التاسع عشر . الذي ينقص صحفنا هو الحرية . ومهما فعلنا فيها وهي مكممة فهو أشبه بواضع زهور جميلة على جثة ميت ! صحافة مصر لن تعود الى الحياة الا اذا عادت الى الحرية . عندما زارني هيكل قال لي انه حقق في بناء «الاهرام» الجديد احلام علي أمين . والواقع أنني لاحظت أن كل مشروعاتنا في مبنى «أخبار اليوم» الجديد نقلها هيكل الى مبنى الاهرام الجديد . وفي رأيي أن هيكل بنى هرما كبيرا ليدفن فيه الصحافة ! فصحافة مصر ليست في حاجة الى بناء جديد وانما في حاجة الى حياة جديدة ... الى حرية جديدة !

ولكن هيكل يتصور أن الصحافة المصرية في حاجة الى طوب أكثر مما هي في حاجة الى حرية ! وقال هيكل انه سينقل الى مبنى الاهرام الجديد في مارس .

كتبت لي ابنتي رتيبة أنك أرسلت لها حذاء «بوت» أسود ، وقالت ان «البوت» ـ وهو يظهر لأول مرة في مصر ـ سبب لها مشاكل كثيرة ، فأينما ذهبت أوقفها الناس وسألوها من أين أتيت به .. حتى وسط الشارع . ولا شك أنه يسرك كعم «محافظ» أن تعرف أن الناس لا تنظر الى وجه ابنة أخيك وانما تنظر الى حذائها !

ان الاخبار السارة التي تتوقعها في رسائلك ، وفي رسائل أصدقائي وتلاميذي عن قرب الافراج عني لا أصدقها ، انني لا أتوقع أن أخرج من هنا الا اذا شممت رائحة الحرية ، وما أشمه حتى الآن هو رائحة

الاستبداد . لا أصدق أن العدل يمكن أن يخصني وحدي بينما الظلم يشمل كل الناس . لا أتصور أن اليد التي اغلقت باب الزنزانة يمكن أن تفتحها . لا أتصور أنه في امكان انسان واحد أن يقوم بدور «عشماوي» الذي ينفذ حكم الاعدام والطبيب المولد في وقت واحد .. . ومع ذلك فإن هذه الانباء المتواترة تجعلني الغي عقلي وأعيش في قلق . كلما سمعت في الليل صلصلة المفاتيح في يد الشاويش تصورت أنه جاء ليفتح باب زنزانتي ويفرج عني . وأنصت بشدة ويخفق قلبي ولكن اقدام الشاويش لا تلبث أن تغيب ، وصوت صلصلة المفاتيح يموت في هدوء الظلام . ولست أعرف هل أنا أخدع نفسي ، أم الانباء تخدعني . ان في كل خطاب من خطاباتك رائحة التفاؤل . أكاد اشمها في كل صفحة ، وفي كل سطر . وأحاول أن أعرف مبعث هذا التفاؤل فلا أجد . ان ذكائي لم يدخل معي الى السجن . يبدو أنني تركته مع ما تركته خارج السجن . أحيانا أتصور أن تفاؤلكم هو نوع من المخدر ليستطيع المريض أن يتحمل عملية السجن . ولكن لا أكاد أفيق من هذا المخدر حتى يجيء كلوروفورم جديد . ان كل شيء حولي متفائل ، ولكني أشبه بالاطرش في الزفة . وبعض زملائي هنا يتصورون أنني أخفي خبر الافراج عنهم ، والله يعلم أنهم يعرفون أكثر مما أعرف . وفي بعض الاحيان اتشبه بجحا الذي قال للاولاد ان هناك فرحا في شارع آخر ، فجروا اليه ، واذا به يجري معهم ! وعلى كل حال فالجري الى الافراح لذيذ ، حتى اذا لم يكن هناك فرح على الاطلاق . ومع ذلك أجد نفسي دون أن أدري أعيش في جو التفاؤل ، وأتصور أنني تركت جحيم السجن الى جنة الحرية . وهكذا أحيا في حلم وردي وأكاد أنسى باب الزنزانة المغلق ، وقضبان النوافذ الحديدية وزئير الابواب الضخمة وهي تقصف . ما أقدر الانسان : انه يستطيع أن يحول الآهات الى أنغام ، والأنين الى زغاريد ، ويلون اللون الأسود بألوان الصباح البهيج . اننا نهرب من واقعنا الى أحلامنا . ان هذه الاحلام هي مخابيء ، تحمينا من القنابل الذرية والهيدروجينية ، وان أوهامنا تصبح أكسير الحياة ونحن ننسى عندما نشربها ونسكر منها . اننا نحن الذين صنعناها . أنا مثلا اشفق على زملائي المسجونين

هنا أن اكشف لهم عن تشاؤمي ، واتظاهر بأنني أسير معهم في موكب التفاؤل ! انا اخفي عنهم انني اعرف عبد الناصر أكثر كثيرا مما يعرفه الكثيرون . أعرف انه سريع جدا في الامر بالقبض على الناس ، وبطيء جدا في الامر بالافراج عن الناس . انه يتصور أن القبض علامة القوة والعنفوان والافراج علامة الضعف والهزال !

وكم حاورته وناقشته في الافراج عن بعض الناس ، فاذا به يقول انه يخشى اذا افرج عن هذا الشخص أن يقول الناس انه خضع لضغط ، أو انه يخشى شيئا . أما اذا ملأ السجون بالناس فهذا سوف يقوي صورة الحكم في أذهان الناس .

لاحظت كثيرا انه يفضل أن يبدو مرهوبا ، على أن يبدو محبوبا ، كثيرا ما قال لي ان الشعب لا يحترم الا الحاكم القوي ، ويستهين بالحاكم الطيب ..

وأذكر أنه استدعاني عقب انفصال سوريا وسألني عن رأيي فيما يجب أن نفعله .

قلت له ان من رأيي أن يمنح الشعب المصري الحرية والديمقراطية وحرية الصحافة ، وأن هذه الاشياء لا يمكن أن تمنحها حكومة الانقلاب في سوريا للشعب السوري ، فاذا رأى الشعب السوري بعد الانفصال أن الشعب المصري أصبح يحكم حكما ديمقراطيا ثار على حكم الانفصال ، وطالب بالديمقراطية ، واقتلع حكم الانفصال الديكتاتوري . وقلت له إن من رأيي الافراج عن المسجونين السياسيين وإلغاء المعتقلات ... فقال لي الرئيس : غريبة ! انني قابلت قبلك عشرة من رجالي وكلهم أشاروا علي بأن ألجأ الى العنف في مصر.. . وأخرج الرئيس عبد الناصر من درج مكتبه تقريرا من المخابرات بأن شابين من عائلة البدراوي وسراج الدين شربا في نادي الجزيرة نخب انفصال سوريا .. وقال انه قرر القبض على جميع أفراد أسرة البدراوي وسراج الدين وجميع رجال الوفد والاحزاب القديمة .

قلت له انه ليس من رأيي أن يأخذ الكبار بذنب الصغار !

قال : اذا لم يلجأ الى العنف فسوف يفكر بعض المصريين في عمل

انقلاب كالذي حدث في سوريا . ولا بد أن أضرب بشدة حتى يدخل كل هؤلاء الى الشقوق .

وتركني الرئيس عبد الناصر نصف ساعة أدافع عن رأيي بأننا نربح بالحرية أكثر مما نربح بالاستبداد ..

ولم يقاطعني ، حتى شعرت أنه اقتنع بكلامي .

وانصرفت من بيته الى مكتبي في أخبار اليوم .

وعند منتصف الليل اتصل بي محررو أخبار اليوم يقولون لي انه تم القبض على عدد كبير من أفراد أسرة البدراوي وسراج الدين ومن الوفديين ومن أعضاء الاحزاب القديمة . وعندئذ تأكدت أن عبد الناصر من السهل اقناعه بالقبض على الناس ومن الصعب اقناعه بالافراج عنهم .

وهذا يجعلني لا أصدق الاشاعات التي تؤكد أن تغييرا سيحدث في أسلوب الحكم ، وأن أغصان الزيتون سترتفع بدلا من السياط !

انني أفهم تماما عقلية الذين حول الرئيس ، وأتصور أنهم يقولون له الآن : لو كنا شنقنا ألف مصري لما حدثت هزيمة ٥ يونيو !

هؤلاء لا يمكن أن ينصحوا بالافراج عن المسجونين السياسيين أو يطالبوا بإلغاء المعتقلات .

انهم سينصحون بالشدة كما نصحوا بعد انفصال سوريا .

العدالة تدخل الزنزانة !

٣٠ يناير سنة١٩٦٨

اخي العزيز ..

زارني هيكل . سألني رأيي فيما يجب أن يفعل الرئيس جمال عبدالناصر بعد الهزيمة وبعد انتحار المشير عبدالحكيم عامر . قلت إن من رأيي أن يفتح صفحة جديدة . أن يعوض الشعب عن هزيمته العسكرية بانتصار داخلي . أن يعلن انتهاء حكم الفرد وبداية حكم الشعب . أن يحل مجلس الأمة ويجري انتخابات حرة . أن يسمح بعودة الاحزاب وأن يسمح بقيام معارضة فإن البلد تعتقد أن ما جرى لنا سببه انعدام الديمقراطية والشورى . وأن يفرج عن المسجونين السياسيين والمعتقلين ويصفي المعتقلات ويلغي الحراسات ، ويضمد جراح الناس ... ويلغي الرقابة على الصحف . وابتسم هيكل ، وشعرت أن كلامي لم يعجبه ، وأن ما أطلبه هو «انقلاب» ... بينما المطلوب هو «اصلاح» فقط !

وفهمت أن الاتجاه هو اعطاء الشعب حرية بالقطارة . . وأن هناك من يرى أن الحل هو الاتجاه الى العنف أكثر . ودهشت أن أصحاب الآراء التي أدت الى الكارثة التي نحن فيها لا يزالون موجودين ، وأنهم لم يتعظوا من الدرس القاسي ، وأنهم يريدون أن يداووها بالتي كانت هي الداء .

وفهمت من هيكل أن الاتجاه كذلك هو أن تقتصر قضية صلاح نصر على اشتراكه في انقلاب المشير عامر ضد الرئيس عبدالناصر وفي انحراف المخابرات في شأن مئات الالوف من الجنيهات التي انفقها من مال الدولة على الغانيات والعشيقات وعلى لياليه الحمراء ، وعلى بعثرته أموال الشعب لكي يعيش هو وعصابته كما كان يعيش هارون الرشيد في قصة ألف ليلة وليلة ، وقال ان الرأي متجه الى أن يحاكم شمس بدران عن جريمة محاولة القيام بانقلاب في وقت يحتل فيه العدو أرض الوطن .

وقلت لهيكل أنه يجب أن يحاكم صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيوني عن جرائم التعذيب ، وأن هذه الجرائم ضد الشعب وضد الانسانية وضد العدالة ، وهي في رأيي أخطر من صرف الأموال على الغانيات ، أو محاولة القيام بانقلاب ... ان الشعب يهمه أن تظهر الثورة براءتها من هذه الجرائم ، وخاصة أن صلاح نصر وشمس بدران يقولان في السجن ان كل ما فعلاه انما فعلاه بأوامر من الرئيس جمال عبد الناصر . بل ان حمزة البسيوني المعتقل الآن في سجن القلعة يقول لزملائه المسجونين انه كان ينفذ الأوامر !

وقلت له تأكد يا هيكل أن التاريخ سوف يسجل جرائم التعذيب ، وقال هيكل أن المسؤولين يرون أن اثارة قضايا التعذيب سوف تسيء الى العهد ، وأنه يكفي الاقتصار على قضية تعذيب الدكتور الشرقاوي . وذكر أنه لا يعتقد أنه سيصدر فيها حكم وأن بعض المسؤولين هاجموه لأنه نشر في الاهرام تفاصيل تعذيب الدكتور الشرقاوي .

وعدت وقلت له ان من رأيي أن تفتح قضايا التعذيب كلها . ولم يوافقني هيكل على رأيي ، وفهمت منه أن هناك من يعارض بشدة في التحقيق في اي قضية تعذيب .

وذكر لي هيكل أن الرئيس كان قد قرر الافراج عني في ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ولكن نكسة ٥ يونيو اضطرته لتأجيل اصدار هذا القرار ، ولكن هذا القرار جاهز ومؤكد .

ولم أعلق على هذا النبأ ولم أصدقه وعدت أطالبه بأن يبلغ الرئيس رأيي بأنه لا بد من التحقيق في قضايا التعذيب .

ووعدني بأن يبلغ رأيي للرئيس .

وعلى كل حال سواء قبلوا رأيي أو رفضوه ، فانني مؤمن بأن الصباح لا بد أن يجيء ، وسوف تفتح الصحف ذات يوم فتجد عناوين ضخمة بالخط العريض تقول : «التحقيق في قضايا التعذيب» .

ويومها سنرفع عيوننا الى السماء شاكرين الله الذي يظهر الحق حتى ولو حاول خصوم الحق أن يخفوه في التراب .

لقد قلت لهيكل انني أعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر والثورة

والبلد كلها سوف تستفيد كثيرا من كشف الحقائق . وأؤمن أنه اذا عرفت الحقيقة كلها ، واذا اتخذت اجراءات فعالة لرفع الظلم عن الذين ظلموا ، واذا اتخذت اجراءات صارمة لكيلا تتكرر هذه الجرائم ، فإن بلادنا سوف تخرج من هذه الهزيمة منتصرة ومرفوعة الرأس ، وسوف نستطيع يومها تنقية الثور الابيض من البقع السوداء ..

ولكن هيكل فيما يبدو لم يكن مقتنعا بهذا الرأي .

***

ان زنزانتي تغلق علي الآن ١٨ ساعة كل يوم . لا يسمح لنا بالفسحة . جاءت أوامر من الوزارة بالتشديد على المسجونين السياسيين لمناسبة ٥ يونيو . أصبحوا يفتشون زنزانتي باستمرار ، يراقبونني باستمرار . خطاباتي تفتش ، ويحاولون أن يقرأوا ما بين السطور . . انني لم أشك ولم أعترض - بينما أنا أكتب هذه السطور اليك دخل مقبل شاكر رئيس نيابة حلوان في جولته الشهرية التي يقوم بها لتفقد السجن ، ومعه الضابط هاني الغنام .

وفوجئت به يسألني : هل لديك شكوى ؟

قلت : نعم . انني موضوع في زنزانة مكتوب عليها ملحق مستشفى السجن ، ومع ذلك تغلق علي الزنزانة ١٨ ساعة كل يوم . وهأنتذا ترى أن الوقت الوحيد الذي تظهر فيه الشمس في هذا المكان هو الوقت الذي يغلقون فيه باب زنزانتي ، وأنا مريض بالروماتيزم وفي حاجة الى بعض الشمس . وفي الزنزانة التي بجواري الاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين والمستشار السابق بمحكمة النقض والابرام ، وعمره ٧٦ سنة ، وهو مريض جدا ، والمفروض أن نوضع في مستشفى السجن ولكن صلاح نصر عندما كان مديرا للمخابرات العامة أمر بأن نوضع في زنازين يكتب عليها «ملحق بالمستشفى» .

وسألني رئيس النيابة مقبل شاكر : هل عذبت ؟

قلت : نعم . تعذيبا لا يخطر لك على بال . وكل الذين معي في هذا الطابق عذبوا مثلي وأكثر مني ...

ورويت له ما تعرضت له من تعذيب .
قال رئيس النيابة : انني مستعد أن اثبت هذا في تقريري .
قلت : انني طلبت من محامي تقديم بلاغ الى النائب العام .
قال : انني سأحضر بعد شهر ، ويمكنك في أي وقت تطلبني لأسمع أقوالك في التعذيب .
هذه أول مرة تدخل فيها العدالة الى زنزانتي .

البحث عن الأخبار في باب

« حظك اليوم » !

اول فبراير سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

انتظامك في الكتابة يسعدني في زنزانتي . صحيح أن الخطابات تتأخر . ان ما تكتبه في يناير أقرؤه في فبراير الا أن هذا التأخير لا يقلل من أهمية خطاباتك لي . حروف خطاباتك هي أنفاسك التي تدفىء روحي . كلماتها هي الموسيقى التي أسمعها . ورقها هو شخصك الذي المسه بيدي . انا مسرور أنك أصبحت تكتب بيدك بدلا من الآلة الكاتبة . أصبحت الحروف مقروءة . لم أعد في حاجة الى انتظار شروق الشمس حتى أتبين الكلمات على ضوء شعاعها . الذي ينقصك الآن أن تكتب سطرا وتترك سطرا . وخاصة أن الكثيرين يقرأون خطاباتك ويحسن أن تشفق على عيونهم . اللهم الا اذا كنت تريد أن يزيد الإقبال على أطباء العيون وبائعي النظارات ! ستدهش اذا علمت انهم قبل أن يسلموا الخطاب الي يطبعون منه ١٧ نسخة ، ويرسلون نسخة من خطابك الى الرئيس عبد الناصر ونسخة الى سامي شرف ونسخة الى مدير المخابرات ونسخة الى مدير المباحث ونسخة الى وزير الاعلام ونسخة الى هيكل والى ١١ موظفا كبيرا .. وأنا أقرأ خطابك بعد أن يقرأه هؤلاء جميعا . خطابك المؤرخ ٢١ ديسمبر وصلني في ١٤ يناير . ومع ذلك فقد كان جديدا . أشبه برغيف ساخن خرج مباشرة من الفرن . ولهذا التهمته التهاما . لا تتضايق من تأخير خطاباتي لك . ان عملية تهريبها من هنا عملية شاقة مضنية . فلا تتضايق اذا هنأتك بعيد الفطر فوصلت اليك التهنئة في عيد الأضحى . أو اذا أرسلت لك تهنئة بعيد ميلادنا في ٢١ فبراير فوصلت اليك في عيد المسيح في ٢٥ ديسمبر !

أهم أخباري أن موسم البرد قد انتهى والحمد لله . والبرد عدو لدود لساكني الزنازين .

المهندس الذي بنى ليمان طرة لم يقصد أن يبني سجنا ، وانما قصد أن يبني أكبر ثلاجة في العالم ! أو أن الفكرة أن المسجون يجب أن يرتعش أمام السجان ، ولهذا فإن البرد يجب أن يجعله يرتعش باستمرار ، وعندما ينتهي موسم البرد القارس يبدأ موسم الذباب والناموس وكل أنواع الحشرات ، وهكذا لا نودع مصيبة حتى نستقبل كارثة .

لا تزال خطاباتك مليئة بالتفاؤل عن قرب الافراج عني . وأخشى أن يكون أنفك الصحفي معتمدا على ما قاله لي هيكل أمام سعيد فريحة عندما زارني في الليمان . كان ذلك يوم ١٧ ديسمبر وقد مر الآن شهران . قال هيكل لي يومها «أقسم بشرفي أن الرئيس سيفرج عنك في خلال ثلاثة شهور ..» وها نحن دخلنا الشهر الثالث . وأقول لنفسي ان صاحب هذا الوعد نفسه قال لي وأنا مسجون في سجن الاستئناف «الريس طلب مني أن أؤكد لك أنك لن تدخل السجن يوما واحدا ، وانك ستنقل الى مستشفى خاص هو مستشفى الكاتب» .. وقال هيكل انه تحدث مع الدكتور عبدالله الكاتب شخصيا في هذا الموضوع ، وان الدكتور الكاتب رحب وقال انه سيخصص جناحا في مستشفاه لي . وبدلا من أن أدخل مستشفى الكاتب دخلت ليمان طرة ، وفي ليمان طرة زارني عقب دخولي مباشرة وقال لي «الريس طلب مني أن أبلغك أنك لن تبقى في الليمان سوى شهر واحد وبعد ذلك سيفرج عنك» وقد مضى علي في الليمان سنة وسبعة شهور !

ولا أعرف ماذا يقصد هيكل بهذه الاخبار الكاذبة ؟ هل هو الذي يكذب ؟ أم أن الروس وأصدقاء الروس هم الذين يضغطون لمنع قرار الافراج ؟ هل المقصود هز أعصابي وتحطيمها فيرفعوني الى سماء التفاؤل ثم يهبطوا بي الى حضيض الواقع ..

وهل هذا نوع من التعذيب ؟

والمسجونون يقرأون الصحف يبحثون فيها عن أخبار الافراج فإذا

لم يجدوا شيئا في السطور بحثوا بين السطور ، فاذا لم يجدوا شيئا بين السطور بحثوا بين الحروف ، فاذا لم يجدوا هذا راحوا يستنتجون الفرج من اي خبر . فاذا قرأوا أنه أفرج عن المسجونين السياسيين في العراق تصوروا أن هذا لا بد أن يحدث في مصر . واذا قرأوا أن مجلس الوزراء سيجتمع في الغد تخيلوا أنه سيبحث مسألة الافراجات . واذا لم يروا شيئا في الصحيفة سوى أن لجنة الزراعة في مجلس الامة اجتمعت توهموا أنه لا بد أنها ستبحث مسألتهم لان أغلب المسجونين من الفلاحين او أبناء الفلاحين !

واجد نفسي في موقف سيء . فأنا لا أستطيع أن أجعلهم يهدمون القصور التي بنوها في الهواء ليعودوا الى سكنى الزنازين ، ولا أستطيع أن اتركهم معلقين في الهواء ، فيسقطوا من أوهامهم الى هاوية الحقيقة ، فأتركهم يعيشون في خداع النفس راجيا أن تتحقق الأحلام .

ومن الغريب أن بعضهم يقرأ باهتمام بختي في باب البخت في جريدة الأهرام وبعض السذج منهم يتصور أن «تلميذي المخلص !» هيكل يكتب لي يوميا تحت بختي الأخبار التي تهمني .. فاذا جاء يوم قال بختي «موضوع هام يحققه لك صديق مخلص» استنتجوا من ذلك أن موضوعي تحت البحث وأنه سيتم قريبا ! واذا قرأوا انتظر أخبارا سارة ، فرحوا وهللوا واعتقدوا أن الافراجات أصبحت على الابواب . واذا قال البخت «عقاب في طريقك .. اصبر» وجموا ، واصفرت وجوههم ، ووضعوا رؤوسهم منكسة بين أيديهم ، واستنتجوا أن هناك عقبات في طريق الافراج .

★★★

التعساء يبحثون دائما عن ثغرة في الظلام يدخل منها شعاع الشمس .

فاذا لم يجدوا الثغرة ، اغمضوا عيونهم ، وتوهموا أن الليل قد انتهى وطلع النهار..

الفرق بيني وبينهم أنني أعرف أن النهار لا بد أن يطلع ، ولكن ليس في باب «حظك اليوم» المنشور في الصحف والمجلات .

ربما تجده في صفحة الوفيات !

مجلس الأمة في الليمان

١٥ فبراير سنة ١٩٦٨

عزيزتي ..

قيل لنا ان عددا من أعضاء مجلس الأمة ، ومعهم وزير العدل ووزير الداخلية ، سيزورون ليمان طرة . صدرت الأوامر بأن تدهن الجدران . فرشوا الارض بالرمل الأحمر . وزعوا على كل مسجون بذلة جديدة وقميصا وطاقية . أسرعوا يحضرون سراير لمرضى المستشفيات في الدور الرابع في عنبر واحد ، بعد أن بحت أصواتهم سنوات من طلب «مرتبة» بلا مجيب ، فقد كان هؤلاء المسجونون السياسيون المرضى ينامون على البلاط ! لم يصرف للمسجونين نصيبهم في الكانتين ، وذلك حتى يجيء أعضاء مجلس الأمة فيجدوا رفوف الكانتين مليئة بالبضائع ! أوقف توزيع خطابات المسجونين لأن المشرفين على توزيع البريد كانوا مشغولين في عملية التنظيف والتجديد . أصبح كل شيء يلمع في الليمان من الخارج فقط طبعا !

بروفات لغرفة مسرح العرائس المكونة من المسجونين ، والتي سيقال كذبا للنواب بأن المسجونين يستمتعون بها باستمرار ، مع ان الحقيقة أن مسجونا سياسيا واحدا لم يشهد هذه العرائس مرة واحدة .

بروفات بالليل والنهار لفرقة الموسيقى التي ستعزف للنواب ، سوف يقال للنواب كذبا أنها تشنف آذان المسجونين باستمرار ، مع أن المسجونين المساكين لا يسمعون باستمرار الا صوت الضرب والصراخ والأنين يتعالى من عنبر التأديب . أوامر مشددة بأن ينظف المسجونون الزنازين والأحواش والممرات لأن العقلية البوليسية تعتقد أن الدولة مهتمة بالنظافة المظهرية أما الوساخة من الداخل فهي مسألة لا تستحق الاهتمام .

فرح المسجونون جميعا بالزيارة . تصور مسجونو المخدرات أن

اللجنة البرلمانية جاءت تسمع شكواهم . تصور المسجونون السياسيون أن اللجنة جاءت لتحقق قضايا التعذيب . تصور الفلسطينيون المسجونون أن اللجنة جاءت لتصدر العفو عنهم ، بعد أن فقدوا بيوتهم في الحرب سنة ١٩٤٨ ثم سنة ١٩٥٦ ثم في سنة ١٩٦٧ .

تصور عساكر الليمان أن اللجنة جاءت لتحقق في تفاهة مرتباتهم ، فإن مرتب الواحد منهم ١٤ جنيها في الشهر وعنده سبعة أو ثمانية أولاد . تصورت مصلحة السجون أن النواب جاءوا ليشاهدوا البط الذي يربيه الليمان ، والصابون الذي يصنعه السجن . وتصور المسجونون الذين يقومون بكسر الاحجار في الجبل أن النواب جاءوا ليلغوا هذا النوع من الأشغال الشاقة الذي لم يعد له مثيل في سجون العالم «المتمدين» ، بعد أن نشرت الصحف منذ عشر سنوات أن هذا العمل غير الانساني ألغي من عقوبة الأشغال الشاقة ، ثم تبينت بعد دخولي السجن أنه ألغي على صفحات الصحف فقط ! وتصور المسجونون الذين ينامون على الارض بأن النواب سيأمرون بأن يناموا على سرير ، أو على مرتبة على أقل تقدير ! وترددت اشاعات بين المسجونين ، اشاعة تقول ان اللجنة التي ستزور السجن هي لجنة تقصي الحقائق ، وانها جاءت لتعرف ايرادات مزرعة البط في الليمان . واشاعة تقول انها لجنة الدفاع عن الحريات وانها ستبحث جرائم صلاح نصر وشمس بدران في التلفيق والتعذيب ، واشاعة تقول انها لجنة الداخلية وانها جاءت لترى ما يجب اختصاره من ميزانية السجون . واشاعة أخيرة تقول انها لجنة العدل ، وان كل عضو سيجيء ليأخذ مجانا خمسة كيلو صابون وبطتين !

ثم قيل ان النواب لن يقابلوا أحدا من المسجونين وأذاع مدير الليمان في اذاعة السجن أمرا للمسجونين بألا يقدموا للنواب أي شكوى ، لأنه «مالهمش دعوى» وانه مستعد أن يتسلم أي شكوى ...

ومر الضباط على المسجونين السياسيين يقولون لهم ان الأوامر صدرت بمنع أي صوت يرتفع أثناء زيارة اللجنة . وهاج المسجونون فقيل لهم ان الادارة ستختار ستة من المسجونين يقابلون اللجنة بالنيابة

عن المسجونين ، ثم قيل ان مصلحة السجون لم توافق على هذه الفكرة ، وان الوزارة أمرت بألا يقابلوا أحدا .

وكنت على ثقة بأن اللجنة لن تقابل أحدا . وضعوا على المسجونين حصارا كاملا . ووضعوا برنامجا يجعل النواب لا يرون أي مسجون سياسي .

وجاء يوم الأربعاء الماضي ، وهو يوم الزيارة ومشى كل شيء بنظام عسكري دقيق ، ثم حدث أن أصيب جاري الاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين بنزيف حاد في الصباح .

ووقع الجميع في ورطة . ان الرجل نزف في الوقت غير المناسب ألم يجد وقتا ينزف فيه الا يوم الزيارة الميمونة ؟

وقرر الأطباء ضرورة نقله على نقالة الى مستشفى السجن لإجراء الاسعافات اللازمة فورا .

ولكن ما العمل اذا رأى النواب حسن الهضيبي فوق نقالة ؟ سيعرفون أن رجلا في السادسة والسبعين من عمره وضع في زنزانة عادية يغلق عليه بابها ١٨ ساعة كل يوم ورفض وزير الداخلية وضعه في مستشفى السجن على الرغم من أمراضه العديدة حتى حدث له ما حدث .

وزادت حيرتهم . لو تركوه في زنزانته فقد يموت في أثناء الزيارة وتصبح فضيحة وسيقال يومها ان الهضيبي مات بسبب انشغال ادارة السجن في استقبال النواب .

وأصر الأطباء على ضرورة نقله فورا . وتم نقله فوق نقالة بسرعة مذهلة وغطوه بملاءة بيضاء حتى لا يراه النواب اذا صادف وصولهم فجأة اثناء عملية النقل . ووضعوه في غرفة بعيدة في الطابق الثاني من المستشفى وألغوا زيارة النواب للطابق الثاني كله .

ثم وصل النواب ، وصحبهم وكيل وزارة الداخلية وكبار موظفيها ومدير مصلحة السجون ، وذهبوا الى المستشفى وتفرجوا على الدور الأرضي واتخذت الاحتياطات لكيلا يصل نائب الى الطابق الثاني وهكذا لم ير أحد الهضيبي المذبوح وهو ينزف دما .

وتنفس المسؤولون الصعداء .

ثم دخلوا عنبر التأديب ولكنهم لم يدخلوا عنبر الايراد . لقد كان فيه ١٨٦ مسجونا سياسيا من الذين عذبوا وضربوا بالسياط ونهشتهم الكلاب في السجن الحربي على أيدي شمس بدران وحمزة البسيوني . كان كل ثمانية منهم ينامون في زنزانة مساحتها متران في ثلاثة أمتار ! مضى على كل واحد منهم ثلاث سنوات لم ير أولاده أو زوجته أو أمه لأنهم محرومون من الزيارة ، ومحرومون من تلقي الرسائل أو من كتابة الرسائل ، ومحرومون من الحق الذي يستمتع به القاتل وهو يشتري حاجاته من الكانتين في حدود خمسة جنيهات !

وكانت وزارة الداخلية في اليوم السابق للزيارة أرسلت اللوريات الى السجن لنقل ٨٦ مسجونا سياسيا الى سجن القناطر خشية أن يصر نائب فضولي على دخول عنبرهم فيرى فضيحة علبة السردين التي هي زنازينهم ويرى آثار التعذيب البشعة ! ولكن من حسن حظ المسؤولين في السجن أنه لم يكن بين النواب نائب فضولي واحد يصر على دخول عنبر الايراد .

وعاد المسؤولون يتنفسون الصعداء . بعد أن اجتازت اللجنة بسلام هذه المنطقة الشائكة المليئة بالالغام .

ثم اتجهوا الى عنبر واحد حيث يوجد المسجونون السياسيون في الطابق الرابع ، وأنا معهم . وأسرع الضباط والحراس يدخلوننا الزنازين ويغلقونها بالمفاتيح حتى لا نرى أحدا ولا يرانا أحد .

ودخل النواب الى حوش الطابق الاول وتطلعوا الى الابواب المغلقة ثم أداروا ظهورهم ، وهنا صاح معتوه من سجن المخدرات :

- «عايز بطيخ» .

وأمر مدير مصلحة السجون أن يفتح له باب الزنزانة ، وأن ينزل لمقابلة النواب وأعطاه أحد النواب خمسة جنيهات فدعا للبرلمان بطول البقاء !

ومال أحد كبار موظفي الداخلية على النواب وقال لهم «كل المسجونين كهذا المسجون» .

وفهم النواب أن كل المسجونين يطلبون بطيخا ، ولا أحد منهم يريد حرية أو عدالة أو تحقيقا في جرائم التعذيب .

وخرج النواب من البوابة الحديدية لعنبر واحد وتنفس مدير مصلحة السجون الصعداء ، وقال : الحمد لله خرجنا من عنبر واحد بسلام فقد كان من رأي المسؤولين جميعا أن عنبرنا هذا هو العنبر المفروش بالالغام ، ولكن لم ينفجر أي لغم والحمد لله .

وخرج النواب الخمسة والعشرون ، ولم يقابلوا مسجونا سياسيا واحدا من ضحايا صلاح نصر أو حمزة البسيوني أو شمس بدران .

ثم ذهب أعضاء مجلس الأمة الى مزرعة البط ، وكانت الاوامر قد صدرت قبل ذلك بيوم بمعاملة البط معاملة المسجونين ولهذا أبقى المشرفون البط داخل حظائره ٢٤ ساعة بغير طعام ، وبغير فسحة وما كاد النواب يصلو الى مزرعة البط حتى فتحت ابواب الحظائر فخرج البط يقفز ويرقص في منظر رائع ولم يتصور النواب المتفرجون ان هذا الرقص والقفز هو نتيجة الجوع والحبس الطويل وأبدوا اعجابهم بأن بط ليمان طرة تعلم كيف يرقص الباليه !

ثم تفرجوا على مسرح العرائس وعزفت لهم الموسيقى أعذب الالحان ، وفي وسط هذه الزفة تقدم أحد المسجونين الى النائبة كريمة العروسي وقال لها : مصطفى أمين محبوس في الطابق الرابع في عنبر واحد .

ففتحت كريمة فمها في ذهول وقالت : موش معقول !

ان المسكينة هي الاخرى كانت تصدق الاشاعة التي تؤكد أنه تم الافراج عني من زمن طويل ، وتقدمت كريمة الى بعض الضباط وقالت : اريد أن أرى مصطفى أمين .

وبهت الضباط . وأصرت كريمة . وقالوا لها انه يجب أن نستأذن المدير .

وأذن المدير . وأراد الضباط أن تتم المقابلة في مكتب المدير . وأصرت كريمة على أن تذهب الي في زنزانتي . وقال لها أحد الضباط : أصل عنبر واحد مليء بالوحوش والقتلة والسفاكين وهذا خطر على حياتك وما

يصحش» وأصرت كريمة . قال الضابط : ولكن مصطفى أمين في الطابق الرابع ، وستتعبين من صعود السلالم.

قالت كريمة : أنا مستعدة أن أصعد اليه في الطابق العاشر .

وجاءت كريمة العروسي الى زنزانتي . قلت لها انني في دهشة أن يجيء ٢٥ عضوا من مجلس الأمة ليتفرجوا على البط ، بينما لا يقابلون المسجونين السياسيين الذين عذبهم صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيوني .

ورويت لها بعض التعذيب الذي تعرضت له وآثاره على جسدي . فاقشعر بدنها وامتلأت عيناها بالدموع . ثم أحضرت لها مسجونا سياسيا آخر كووه بالنار ولا تزال آثار الحرق في كل جسمه . ومسجونا ثانيا حطموا جمجمته . ومسجونا ثالثا نزعوا أظافره . وأدخلتها زنزانة مسجون حطم شمس بدران عموده الفقري فأصبح عاجزا عن الوقوف على قدميه ، ومسجونا آخر أصيب بالشلل نتيجة التعذيب الوحشي فأصبحنا نحمله على كرسي ليذهب الى دورة المياه ..

وقالت كريمة انها لن تسكت على هذا ، ستذهب الى مجلس الأمة وتطالب باعادة التحقيق في كل القضايا التي لفقها صلاح نصر ، وفي المذابح التي حدثت في السجن الحربي وباقي السجون ..

واعتبر المسجونون السياسيون دخول كريمة العروسي الى العنبر ومشاهدتها ضحايا جرائم التعذيب انتصارا ضخما على الذين أرادوا أن تكون زيارة الخمسة والعشرين نائبا عبارة عن زيارة البط . وراح المسجونون يرقصون من الفرح لهذا الذي استطاعوا أن يحققوه !

ولكن ما حدث بعد ذلك كان لا يخطر على بال ..

عادت كريمة العروسي الى غرفة مدير الليمان فوجدت أعضاء مجلس الأمة جالسين يشربون الشربات وتقدم منها أحد الضباط الكبار وقدم لها كوباً من الشربات وهو يقول :

ـ هذا شربات مصنوع في الليمان .

ودفعت كريمة العروسي كوب الشربات بيدها وهي تصرخ :

ـ شربات ؟ أنا بعد الكلام اللي سمعته من مصطفى أمين ، وشوفته بعيني لازم أشرب سم .

ثم التفتت نحو أعضاء مجلس الأمة وصاحت فيهم :

ـ سيبوا الشربات . وتعالوا شوفوا مصطفى أمين . واسمعوا بآذانكم.. . وشوفوا بعيونكم .

وانتفض النواب . رموا أكواب الشربات من أيديهم . أسرعوا يعدون كالمجانين الى عنبر واحد ، والضباط ووكيل الداخلية ومدير مصلحة السجون وكبار موظفي الداخلية وضباط المباحث يهرولون وراءهم .

وصعدوا درجات سلالم الطوابق الاربعة وهم يلهثون .

وسرى النبأ كالكهرباء داخل السجن ، قام السجن كله على قدم وساق .

المسجونون وقفوا متعلقين بقضبان زنازينهم يشاهدون وكيل الداخلية يجري ومدير مصلحة السجون يعدو . الحراس في ذهول وهم يرون هذا الموكب الذي كان يمشي منذ دقائق في تؤدة وجلال ووقار ، وقد تحول فجأة الى سباق في العدو . الضباط يمسحون عرقهم بمناديلهم في شهر فبراير البارد .

الكل في دهشة وذهول . ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟؟ ما الذي أعاد كل هؤلاء الى عنبر واحد بعد أن انتهت زيارة العنبر . صدرت الأوامر بدخول جميع المسجونين الى زنازينهم . رفض المسجونون الدخول . كان الضباط يأمرون الحراس بإدخال المسجونين الى زنازينهم ويغلقون عليهم الأبواب ، ولكن الحراس وقفوا كالأصنام . تسمروا في أماكنهم . كأنهم فقدوا حاسة سماع الأوامر والتعليمات عندما رأوا الرعب في عيون مدير المصلحة وكبار موظفي الداخلية . أوامر المصلحة ماتت في الدوي الكبير . تعليمات مدير الليمان ماتت على شفتيه . خرج كل شيء من أيدي المسؤولين في الليمان ، كأن المسجونين قاموا بانقلاب داخل السجن . وتحول المسجونون الى سجانين وأصبح الضباط والحراس هم المذنبين . كأن هذا الموكب الذي كان يعدو الى زنزانتي داس في طريقه كل شيء . داس على النظام الموضوع . داس على الترتيبات العسكرية

الدقيقة التي أرادت أن يمشي النواب في طابوردون أن يتجهوا الى اليمين أو اليسار . داس على مظاهر الاحتفال الرائع . في لحظات لم يعد أي شيء يلمع في السجن . الجدران التي كانت تتوهج بسبب الطلاء الجديد بهتت فجأة ، شحبت ، اصفر وجهها من الرعب . الرمل الاحمر اصفر هو الآخر ، أولعله اسود من الخجل والكسوف . بينما عنبر واحد الذي كان في سكون المقابر من دقائق ، ترمي فيه الدبوس فتسمع رنينه ، عادت اليه الحياة .

وأراد النواب أن يدخلوا زنزانتي الضيقة . ولاحظت أن عددهم كبير . فهي لا تتسع الا لنائب واحد أو ثلاثة نواب محشورين ، ويبقى الآخرون خارج الزنزانة لا يسمعون ما أقول ..

قلت لهم : ان زنزانتي لا تكفيكم جميعا ! سأقابلكم في الردهة أمام الزنزانة لتسمعوا كلكم ما أقول ..

واصطفوا جميعا حولي ، ووراءهم وكيل الداخلية ومدير مصلحة السجون ، ومدير الليمان ، وكبار ضباط المصلحة ، وضباط المباحث ، وضباط السجن ، وعدد من الحراس بينما تعلق المسجونون بقضبان نوافذهم ، واحتشدوا في الممرات يتطلعون في ذهول .

وتكلمت بصوت عال جهوري ، كان يدوي في العنبر كله حتى أن المسجونين في الطابق الارضي كانوا يسمعون ما أقوله في الطابق الرابع .

قلت لهم :

- انني كنت نائبا في البرلمان لمدة خمس سنوات وأنا أعرف ما يستطيع البرلمان أن يفعله لمصلحة الشعب . ولقد دهشت عندما جاء ٢٥ نائبا من أعضاء مجلس الأمة الى ليمان طرة ، ليتفرجوا على البط ، وليشهدوا مسرح العرائس ، ثم لا يدخلون زنازين المسجونين السياسيين . ان في كل زنزانة هنا مذبوحا . أريد أن تدخلوا كل زنزانة لتروا ضحايا تعذيب صلاح نصر وحمزة البسيوني وشمس بدران . وأحب أن تسمعوا بآذانكم وتروا بعيونكم آثار التعذيب . كل واحد منا عذبوه تعذيبا وحشيا . هدد بهتك عرض زوجته أو خطيبته أو بناته . خلعوا ملابسنا حتى أصبحنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا ، صلبونا على

الجدران ، ضربونا ضربا مبرحا حتى يغمى علينا . كانوا ينزعون بأظافرهم شعر العانة . كانوا يربطون جهازنا التناسلي بسلك كهربائي ويجذبوننا منه ، ويلفون بنا ويدورون في غرف التعذيب .

أنا حدث لي كل هذا . هددوني بالاعتداء على عرض سكرتيرتي وبناتي أمامي . كانوا يديرون أشرطة فيها أصوات أطفال تصرخ وهم يضربون بالسياط . كانوا يمنعونني من النوم عدة أيام . يمنعون عني الماء في أشد أيام شهر يوليو وشهر أغسطس حرارة عدة أيام . كانوا يتركوننا بلا طعام . واخذوني الى السجن الحربي وصلبوني . أطلق علي حمزة البسيوني الكلاب البوليسية الهائجة تهاجمني وتنهشني !

أنا لا اريد أن أتكلم عن نفسي . أنا أستطيع أن أدافع عن نفسي . انما في هذه الزنازين الوف لا يستطيعون الكلام ، لا يستطيعون ان يفتحوا أفواههم ، لا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم . ان واجبكم أن تفتحوا كل زنزانة . سترون في كل زنزانة مذبوحا ، ذبحه صلاح نصر وحمزة البسيوني وشمس بدران . سترون بأعينكم آثار الضرب والتعذيب .. آثار الحرق ونزع الاظافر .. ستسمعون بآذانكم القصص البشعة عن التعذيب والتلفيق والظلم والارهاب .

قال مدير الليمان : دي حاجة غريبة . هذه أول مرة يشكو فيها الاستاذ مصطفى أمين . انه هنا منذ عامين ، ولم أسمعه يشكو مرة واحدة !

ثم التفت مدير الليمان نحوي وقال :

ـ ألم أطلب اليك أن تشكو ؟

قلت : أنا لا أشكو لضباط . لقد جاء وزير الداخلية الى زنزانتي وسألني الوزير: هل عندك أي شكوى ؟ فقلت له ؟ لا .. متشكر .. أنا لا أشكو .

قال مدير الليمان : نعم حدث هذا أمامي .

قلت : ولكن الآن أتكلم أمام نواب الأمة . أنتم ممثلو الشعب . انني أضع في رقبتكم هذه المسؤولية . أنا شخصيا عشت حياتي . انما الذي همني حياة وشرف وحرية وكرامة وآدمية ثلاثين مليونا . انكم اذا سكتم

سيظهر في كل يوم صلاح نصر جديد . وستوضعون أنتم في هذه الزنازين . تنتهك أعراض زوجاتكم وبناتكم . سيهدد شرفكم . ستلفق لكم التهم والاكاذيب . سترغمون على الاعترافات الكاذبة .. ستضربون بالسياط .

والأهم من هذا نحن نستطيع أن نتكلم . أن نصرخ . أن نفضح ما جرى فينا . ولكن هناك غيرنا ، هؤلاء الذين دفنهم المجرمون في السجن الحربي وسجن صلاح نصر . ان الموتى لا يتكلمون ! لقد كنت أتصور أنه بدلا من أن تزوروا البط أن تنتقل لجنة برلمانية منكم الى السجن الحربي وتبحث عن الجثث المدفونة هناك . كنت أتصور أنكم ستذهبون الى مقر صلاح نصر وتضبطون آلات التعذيب التي اشتريت بآلاف الجنيهات من دم هذا الشعب المسكين . هل يستطيع هؤلاء المدفونون في السجن الحربي أن يتكلموا ؟ وأن يشكوا ؟ ولمن يتكلمون ولمن يشكون ؟

ان التاريخ سوف يثبت أن صلاح نصر وعصابته والذين ظلموا هم سبب الهزيمة ، هم الذين وضعوا العصابة على العيون فلا ترى ، ووضعوا الكمامات على الأفواه فلا تتكلم ، ووضعوا الاصابع في الآذان فلا تسمع . ان التاريخ سوف يثبت أن سبب الهزيمة هو الكبت والارهاب وحكم الفرد والتعذيب والتلفيق واشاعة الخوف والرعب بين الناس ! المقيدون بالسلاسل لا يمكن أن يكسبوا حربا !

انني في دهشة أن يحاكم صلاح نصر لأنه خان الحكم ، ولا يحاكم لأنه خان الشعب ! دهشت أن تكون جريمته أنه تآمر على الدولة ولا تكون جريمته أنه قتل الالوف وعذب الالوف ونشر الارهاب بين الشعب كله .. يجب أن يحاكم صلاح نصر على جرائمه الحقيقية . إما أنه بريء فيجب أن يخرج من السجن وإما أنه مجرم ملفق معذب فيجب أن يخرج كل هؤلاء الذين ظلمهم أو عذبهم .

وهنا قال أحد النواب : لماذا لم يتقدم الذين أصابهم التعذيب بشكوى ؟

قلت : شكوا .. كتبوا شكاوى وأحيلت شكاواهم ضد صلاح نصر الى صلاح نصر ، والى تلاميذ صلاح نصر ! ومن عجائب القدر أن صلاح

نصر في السجن الآن . ولكن الأوامر التي أصدرها لاتزال تنفذ علينا .
كان السياسيون المرضى يوضعون في الماضي في المستشفى فأمر صلاح
نصر بأن يوضع المرضى في الزنازين . وتغلق عليهم الابواب ١٨ ساعة كل
يوم .

فسأل أحد النواب : ما رأيك في أنظمة السجن ؟

قلت : انها قوانين وتعليمات أصدرها مجرمون ، وينفذها شرفاء .
انني اقترح أن يوفد مجلس الأمة لجنة تجيء الى السجون ، وتقابل كل
مسجون ، وترى الناس والمذابح والجرائم التي صنعها صلاح نصر
وزبانيته وشمس بدران وحمزة البسيوني ضد الابرياء ..

أنا ارفض أن تكتفوا بكلامي . أنا أطلب اليكم أن تفتحوا كل
زنزانة . أن تدخلوا الى كل مذبوح . أن تسمعوا بآذانكم أنين المعذبين
والمصلوبين وتروا بأعينكم آثار التعذيب على أجسادهم .

وانتهيت من كلمتي . وانتشر النواب . دخلوا كل زنزانة . اقشعرت
أبدانهم مما سمعوا . امتلأت عيونهم بالدموع لما رأوا كانوا يمشون
مترنحين ذاهلين كأنهم يمشون في جنازات لا تنتهي فقد كان في كل زنزانة
نعش ميت .

وكانوا يصرون على فتح باب كل زنزانة . حدث أن وجدوا بابا مغلقا
فطالبوا بفتحه .

قال الضابط : هذا مخزن .

فصاح فيه أحد النواب بغضب :

ـ افتح ! فقد نجد هنا مذبوحا آخر تخفونه !

ووقف معي بعض النواب ، وتحدثت معهم في كل شيء .

تحدثت معهم عن المحكوم عليهم بالمؤبد في قضايا المخدرات وقلت
لهم انه من العار أن تنشر كل صحفنا بيانا بإمضاء النائب العام ،
وبشهادة الطب الشرعي ، يقول ان النائب الاول لرئيس الجمهورية
والنائب العام للقوات المسلحة كان يمضغ الافيون ولا يسأل أحد عن
مصدر هذه المخدرات . بينما اذا ضبطت الشرطة فقيراً ومعه قطعة
أفيون أوحشيش يحكم عليه بالسجن المؤبد . والعار الأكبر أن كثيرا من

أحكام المؤبد هذه بتوقيع النائب الأول لرئيس الجمهورية نفسه . ان في السجون آلافا من هؤلاء .

وتحدثت معهم عن الفلسطينيين المحكوم عليهم وقلت لهم : ما هو شعور الفلسطينيين الذين في السجن عندما يرون الجاسوس الاسرائيلي لوتز ، الذي أعطى لإسرائيل كل أسرار مطاراتنا قبل العدوان ، وهو يعفى عنه ويخرج من السجن بقرار جمهوري ؟ ما هو شعور الفلسطينيين وهم يرون المسجونين اليهود من عصابة لافون يعفى عنهم بقرار جمهوري وهم يعرفون أن هؤلاء اليهود كانوا من المخابرات الاسرائيلية وكانت مهمتهم القاء قنابل على الابنية الامريكية في القاهرة لإيقاع الخلاف بين مصر وأمريكا . ماذا يقول الفلسطينيون وهم يشهدون هذا التسامح مع الاسرائيليين ، وهذا التشدد مع الفلسطينيين الذين أصبحوا لاجئين ثلاث مرات عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ؟

وتحدثت مع النواب عن حالة حراس السجن . كيف أن الواحد منهم يتقاضى حوالي عشرة جنيهات وعنده خمسة أو ستة أطفال . والصحف تقول ان جميع المواطنين والعمال يعملون سبع ساعات في اليوم وهؤلاء الحراس يعملون ١٢ ساعة ، ولا يعطون أجرا على زيادة ساعات العمل . وقلت لهم ان في ميزانية السجون ٨٠ الف جنيه لطعام الحراس ، ولو وزعت عليهم نقودا لأصاب كل واحد منهم جنيهان في الشهر أو ثلاثة جنيهات .

قلت لهم ان السجون في البلاد المتمدينة التي يوضع فيها أعتى المجرمين تسمح بالزيارة لأسر المسجونين كل يوم من أيام الاسبوع ومن حق المسجون أن يبقى مع أسرته سبع ساعات في الزيارة بينما المسجون هنا يزوره أهله مرة كل شهر وتستمر الزيارة بضع دقائق ويفصل سلك غليظ بين المسجون وأسرته وكأن المسجون في قفص القرود في حديقة الحيوان . وفي سجون الخارج كل مسجون في غرفته راديو . وينفقون في سجن «سنج سنج» في أمريكا على طعام كل مسجون خمسة دولارات في اليوم ويتقاضى المسجون حوالي دولارين . وسألني أحد النواب لماذا لا

أشكو المخابرات .. انني لو نبهت لخطر مخابرات صلاح نصر من قبل كنت جعلت البلاد تتفادى كوارث كثيرة .

قلت : انني كتبت كل شيء للرئيس جمال عبد الناصر ، وأتصور أن عبد الناصر محاصر ولا تصله الحقيقة !

قالوا : لماذا لم تكتب الى غيره ؟

قلت : لمن أشكو المخابرات ؟ أشكوها لرئيس الوزراء وقتئذ ؟ لقد كان زكريا محيي الدين مدير المخابرات الاسبق ! أشكوها للامين الاول للاتحاد الاشتراكي ؟ لقد كان علي صبري مدير المخابرات السابق ؟ أشكوها لوزير الداخلية ؟ انه شعراوي جمعة وكيل المخابرات السابق ؟ اشكوها لوزير الشباب ؟ انه طلعت خيري وكيل المخابرات السابق ؟ اشكوها لمساعد أمين الاتحاد الاشتراكي في الوجه القبلي حيث أملك خمسة أفدنة ؟ انه عباس رضوان الصديق الصدوق وكاتم أسرار صلاح نصر مدير المخابرات السابق ؟ أذهب الى بنها وأشكوها للمحافظ ؟ ان محافظ القليوبية هو كمال أبو الفتوح وكيل المخابرات السابق ! أترك بنها وأذهب الى شبين الكوم ؟ ان محافظ المنوفية هو ابراهيم بغدادي الضابط السابق بالمخابرات ؟ أترك شبين الكوم وأذهب الى بورسعيد ؟ ان محافظ بورسعيد هو فؤاد طولان وكيل المخابرات السابق .. ان المخابرات كالاخطبوط لها أرجل وأيد وعيون في كل مكان .

قالوا : اذن هم أكبر قوة في البلد !

قلت : هناك قوة أكبر هي «الله» ... وسوف تثبت الايام انه قادر ان يفعل بصلاح نصر ما لا يخطر لأحد على بال !

وكان كبار موظفي وزارة الداخلية والسجون ينظرون الى ساعاتهم باستمرار ، ان النواب بقوا معنا أكثر من ساعة . وكانوا يتعجلون النواب والنواب يرفضون مغادرة الزنازين . كان الضباط يحاولون انهاء الزيارة ولكن النواب كانوا مصرين على البقاء .

«وباظت» المأدبة الفخمة التي كانت معدة للنواب . الاطعمة الساخنة بردت ، الحلوى الفاخرة ساحت . أكثر النواب لم يستطيعوا

أن يأكلوا شيئا . ان ما رأوه من أهوال وما سمعوه من مخاز سد نفسهم عن الطعام !

وكان موقف مدير الليمان عبدالله عمارة وجميع ضباط السجن ممتازا .. تركونا نتكلم . لم يمنعوا أي مسجون سياسي من أن يقول كل ما يريد . كانوا يصحبون النواب الى كل زنزانة . ورأيت الدموع في عيونهم عندما تحدثت عما أصابني من تعذيب وكانوا سعداء لأنني لم أشك من أي شيء عن داخل السجن . كانت كل الشكاوى عما أصابنا في سجن صلاح نصر والسجن الحربي .

وكان بين النواب سيد جلال ، وهو الآن في السبعين من عمره ، وما أن رآني حتى عانقني وقبلني وبكى وهو يقول :

- ان الاطباء منعوني من أن أصعد السلالم . ولكني عندما علمت انك في الدور الرابع قررت أن أصعد حتى لو أصبت بذبحة صدرية جديدة .

وقبل أن ينصرف النواب صافحوني . وقالوا لي اننا نشكرك لأنك ساعدتنا على أن نعرف واجبنا .

وانتهت الزيارة ..

كان كل من في السجن سعيدا .

الضباط سعداء لأن أحدا لم يشك منهم ، بل على العكس أثنينا عليهم .

الحراس سعداء لأننا تحدثنا عن مطالبهم .

المسجونون العاديون سعداء لأنهم وجدوا من يرفع صوتهم .

المسجونون السياسيون سعداء لأنهم أخرجوا كل ما كان محبوسا في قلوبهم وشجعهم كلامي على أن يقولوا كل ما تحملوه من عذاب .

وفي اليوم التالي كان السجن في عيد . كان كل المسجونين فرحين مبتهجين لأن صوتا ارتفع يعبر عن أنينهم ، وعذابهم . وآلامهم وصرخاتهم المحبوسة ودموعهم المكتومة ، وحزنهم المدفون ...

وقال لي الكثيرون منهم : نشكرك ... انك جعلتنا ننام الليل كله ، لأول مرة منذ عدة سنوات .

انني لم افتح لهم باب السجن ، وانما فتحت لهم باب الامل .
لم اضمد جراحهم ، وانما تركت تأوهاتهم تخرج من افواههم المكممة .. لم أرفع الظلم عنهم ولكني مكنت كل واحد منهم أن يصرخ ويقول أنا مظلوم !
وأنا ايضا نمت نوما سعيدا عميقا .
لأنني قلت كل ما في قلبي !
كنا سعداء لأن خمسة وعشرين رجلا وامرأة سمعوا صراخنا .
ترى .. هل يجيء اليوم الذي سوف تسمع فيه الملايين صراخنا ؟
نعم ! سيحدث هذا بإذن الله .

كل نائب يفتح فمه عن التعذيب
سيفصل من مجلس الأمة !

١٨ فبراير سنة ١٩٦٨

عزيزتي ..

كان زملائي في السجن يتوقعون نتائج باهرة لزيارة النواب لليمان ! اما انا فلم أتوقع شيئا من مجلس الأمة ، المجلس الذي رقص بعض نوابه «عشرة بلدي» عندما عدل الرئيس جمال عبدالناصر عن استقالته ، بعد خمسة أيام فقط من هزيمة ٥ يونيو ـ المجلس الذي أعطى للرئيس تفويضا على بياض . المجلس الذي لم يجرؤ على تأليف لجنة تحقيق في أسباب الهزيمة المروعة . كان كل ما يهمني هو الرأي العام . أن يخرج النواب من عندنا ، ويرووا للناس ما سمعوه عن بشاعة التعذيب ... وبذلك نهزم مؤامرة الصمت عن التعذيب التي فرضت علينا !

وفعلا صدق ظني . خرج النواب من عندنا متحمسين ومصممين على اثارة مسألة التعذيب في مجلس الأمة ، وتقديم أسئلة واستجوابات والمطالبة بالافراج عن المسجونين السياسيين . واذا بالاوامر تصدر اليهم تقول لهم (هس) ! لا تفتحوا أفواهكم . وكتب لي تلاميذي يقولون ان النواب كانت لديهم الشجاعة على أن يرووا لزملائهم ما رأوه ، وان الأجهزة تحركت على الفور ، وان بعض النواب هددوا بالفصل من الاتحاد الاشتراكي ومن عضوية مجلس الأمة اذا أثاروا مسألة التعذيب ..

وقيل لهم ان التعذيب سياسة عليا وليس من حق أحد أن يتحدث عنه ! وصمت النواب وخرسوا وعرفوا أن مهمتهم هي التصفيق الحاد !

ولكني لا أيأس من هذا الظلام الدامس . ان الله يحل كل المشاكل ، وما كنت أراه دائما بلا حل تمتد يد الله وتحله بأحسن مما كنت أتمنى

وأتصور . لقد كنت جالساً استعرض حياتي . تذكرت وأنا طفل صغير انني كنت أعيش وسط أسرة تعيسة وحيدة بنفي رب الاسرة سعد زغلول . كانت كل الانباء التي تجيء لنا سيئة ، كنا نتوقع موته في منفاه في جزيرة سيشل بسبب شيخوخته وأمراضه العديدة وسوء معاملته . ثم أشرقت الشمس ، وعاد سعد من منفاه ، واستقبلته مصر بما لم تستقبل به أحدا في التاريخ . وعندما كان عمرنا ١٤ سنة قمنا بمظاهرة ضد دكتاتورية محمد محمود وقبض علي وعلى أخي ، وفصلنا من مدرسة الاوقاف ، وضاقت الدنيا في عيوننا وتصورنا اننا سنمضي حياتنا بلا تعليم ، ثم أشرقت الشمس وانتصر الشعب ، وسقطت دكتاتورية محمد محمود وعدنا الى المدارس . وكان عمرنا ١٦ سنة وبعد شهور الغى الملك فؤاد واسماعيل صدقي دستور الشعب وأغلق البرلمان ، فنظمت أنا وأخي اضرابا في جميع المدارس الثانوية وقدنا مظاهرة عنيفة تهتف بسقوط الملك وسقوط رئيس الوزراء . وقبض علينا . وصدر قرار مجلس الوزراء برفتنا من جميع مدارس مصر وحرماننا من جميع الامتحانات . وتصورنا أننا سنعيش جهلاء لا نحمل شهادة عليا . ثم أشرقت الشمس وحصل أخي على بكالوريوس في الهندسة من انجلترا وحصلت على ماجستير في العلوم السياسية من الولايات المتحدة . ثم حدث وأنا أعيش مع والدي وهو وزير مفوض في أمريكا ان غضب عليه الملك فاروق وأحاله الى الاستيداع وتصورت انها نهاية الدنيا ، ولم ألبث أن أتممت دراستي ، وكان رفت أبي خيرا علينا . واشرقت الشمس وأصبحت رئيسا لتحرير «آخر ساعة» وعاد أبي الى عمله . وحدث أن كتبت مقالا في سنة ١٩٤٠ أغضب علي ماهر رئيس الوزراء فرفت أبي من وظيفته ، وشعرت انها كارثة نزلت علينا من السماء ، انها ستعرضنا للجوع ، وعملي الصحفي مهدد بسبب الرقابة الصحفية . ولم ألبث أن أصبحت رئيسا لتحرير مجلة «الاثنين» ، وأصبح ايرادي ضعف ايراد رئيس وزراء مصر وأضعاف ما كان يقبضه أبي من الدولة وقتئذ . ثم غضب رئيس الوزراء مصطفى النحاس علي لأنني كنت أعارضه في مجلة الاثنين ، وأحال أبي للمعاش للمرة الثالثة . ثم أشرقت الشمس

وأصدرت «اخبار اليوم» مع أخي ... وهكذا كانت حياتي سلسلة أزمات وكوارث ومتاعب ولكن الله دائما كان يحول المصيبة الى خير ، والكارثة الى نعمة . لهذا أؤمن بالله عن يقين ، وعن عقيدة وعن تجربة . وكل ما نتعرض له ليس جديدا على أسرتنا . في سنة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطاني قرارا بمصادرة أموال أبي .. ووجدنا الناس الطيبين الذين يساعدوننا حتى رفعت الحماية البريطانية والغيت المصادرات .

وفي سنة ١٩٦٥ صدر قرار بوضعي أنا وابنتي وعلي وزوجته وابنتيه تحت الحراسة .

وسوف تلغى هذه الحراسة عندما ترفع الحماية الروسية عن مصر باذن الله .

ان كل ما يصيبني لا يفقدني ايماني ببلدي ، بل يزيدني تمسكا بها ، وحبا لها ، ويضاعف ايماني بالله .

أنا الآن في الشهر الحادي والثلاثين في السجن . أتممت السنتين ونصف السنة في ٢١ يناير . وأنا اعرف ماذا تعني هذه المدة الطويلة للذين يحبونني من عذاب وشقاء وحرمان . ولقد احتملت نصيبي من هذا كله برضاء . ولكن الذي لا احتمله هو نصيبكم انتم من هذا الشقاء . هذا الشعور يجعل قلبي يدمي . لولا آلام الذين يحبونني لما شعرت بأي فرق بين وجودي في السجن ووجودي خارج السجن . الذي يحز في نفسي انكم تتعذبون أكثر مما أتعذب . وتشقون أكثر مما أشقى . انني أقلق باستمرار عليكم أتتبع أخباركم . وعندما تصلني كلمة منكم أعيش معها وبها . احاول ان اجعل الكلمة الصامتة تنطق وتتكلم وتحكي وترد على الوف الاسئلة وتسمعني آلاف التفصيلات .

ان حياتي مليئة بالذين يحبونني والذين أحبهم . بأناس لم أعرفهم ولكنهم يتصلون بي ويكتبون الي . انني لا أشكو السماء لانها تركتني في هذا السجن ، بل أشكرها لهذا الحب الذي أعطته لي . لا أشعر هنا بشقاء ولا قسوة ولا حرمان . فإن الذين حولي يغمرونني بالعطف والحب

والحنان . لا أحس بالاختفاء داخل القضبان ، بل أجد روحي منطلقة الى الملايين التي أحبها وتحبني .. الى الفقراء الى التعساء .. الى المظلومين الذين أولوني ثقتهم . عندما أحس بالبرد وتعجز البطاطين عن أن تمنع جسدي من القشعريرة أفكر في حب الناس أشعر بالدفء .

انني في السجن لست وحدي أبدا !

أرسلت بلاغا الى النائب العام فاختفى من مكتبه وظهر في النيابة العسكرية

١٩ مارس سنة ١٩٦٨

عزيزتي ..

حدث في هذا الاسبوع أشياء عجيبة .

وصل الى السجن إخطار من النائب العام أن أذهب الى رئيس النيابة في دار القضاء العالي في يوم الخميس ١٤ مارس لأدلي بأقوالي في بلاغ النائب العام . . وفي نفس الوقت وصلت إشارة مستعجلة تأمر بإلغاء ذهابي بناء على أمر وكيل الداخلية .

وتكرر هذا الحادث الغريب عدة مرات . النائب العام يستدعيني للتحقيق ووزير الداخلية يأمر بعدم تنفيذ طلب النائب العام .

ولم أعرف سبب هذا الموقف الغريب العجيب المريب . لم أعرف الأسباب في أن الحكومة لا تريد أن أدلي بأقوالي في التعذيب وترفض أمر النائب العام الا سببا واحدا وهو أن الحكومة تريد أن تتستر على ما جرى لي ، ولا تريد أن يعرف الناس الجرائم البشعة التي حدثت ضدي .

ثم حدث أمس أن حضر الى السجن الرائد أحمد فهمي رئيس النيابة العسكرية وسمع بلاغ الاستاذ حسن الهضيبي عن التعذيب ، ثم استدعاني لسماع أقوالي . وذهبت الى رئيس النيابة العسكرية فوجدته جالسا في غرفة بمستشفى السجن يسمع أقوال الاستاذ حسن الهضيبي .

وطلب مني رئيس النيابة العسكرية ان أنتظر في غرفة كبير الاطباء الى أن يستدعيني ثم أرسل يستدعيني . ولكن حراس السجن قالوا لي ان

مدير الليمان أمر بألا اذهب للإدلاء بأقوالي قبل أن أقابل مدير الليمان أولا !

وحرت هل أنفذ أمر رئيس النيابة العسكرية أم أمر مدير الليمان !

ولكني كمسجون رأيت أن من الأسلم الا أنفذ أوامر مدير الليمان .

وذهبت الى مدير الليمان ، فقال لي انه لا يستطيع ان يسمح لي بالإدلاء بأقوالي قبل استئذان وزير الداخلية .

وتركني مدير الليمان في مكتبه ، وذهب إلى مكتب آخر ليتصل بمدير مصلحة السجون ، الذي سيتصل بوكيل وزير الداخلية ، الذي سيتصل بوزير الداخلية !

وقال لي الضباط ان مدير الليمان في حيرة لأن لديه أوامر مشددة من وكيل الداخلية بألا أدلي بأقوالي في التعذيب .

فماذا يفعل الآن ؟

وقام مدير الليمان باتصالاته ، ثم عاد وسمح لي بالذهاب الى رئيس النيابة العسكرية في المستشفى للإدلاء بأقوالي .

وحمدت الله أن الأزمة قد حلت ..

وعندما قابلت رئيس النيابة العسكرية لاحظت أنه يحقق في البلاغ الذي قدمته الى النائب العام في ٢١ فبراير سنة ١٩٦٨ .

وقلت له انني لم أقدم بلاغا للنيابة العسكرية ، وانما قدمت البلاغ للنائب العام وان جميع زملائي المسجونين السياسيين الذين قدموا بلاغات عن التعذيب الى النائب العام سئلوا أمام النيابة العامة في دار القضاء العالي ، فلماذا تسألونني أنا أمام النيابة العسكرية .. وأنا لست من القوات العسكرية ؟!

واكتشفت ان النائب العام ليس هو الذي حول بلاغي الى النيابة العسكرية ، واكتشفت ان وزير الداخلية والمخابرات العامة هم الذين منعوا ذهابي الى النيابة العامة ، واكتشفت فوق هذا ان بلاغي انتزع من مكتب النائب العام ، وارسلته المباحث العامة الى النيابة العسكرية لتمنع النائب العام من التحقيق .

ودهشت لهذا التصرف الغريب ، ولم افهم الغرض منه . اللهم الا

اذا قصدوا أن يكون سماع أقوال الهضيبي وأقوالي - دون جميع المسجونين - في أضيق نطاق . ولهذا تولته النيابة العسكرية ، حتى لا يخرج شيء عن تعذيبنا الى الناس ، ويعرفه القضاة ووكلاء النيابة . أو أن الأمر أخطر من هذا - وهو ان الدولة ترغب في التستر على جرائم تعذيبنا وانها وجدت انها قادرة على السيطرة على القضاء المدني ، وهي تستطيع ان تأمر الدجوي مثلا كرئيس للمحكمة العسكرية بأن يحكم بأنه لا يوجد تعذيب ، بينما هي لاتستطيع ان تفعل ذلك مع المستشارين المدنيين .

ومع ذلك أدليت بأقوالي عن كل ماتعرضت له من تعذيب ، وسجل رئيس النيابة العسكرية أقوالي كاملة . وسجلت فى المحضر نص الخطاب الذي أرسلته الى الرئيس جمال عبد الناصر في ديسمبر سنة ١٩٦٥ من سجن الاستئناف وذكرت فيه كل ماتعرضت له من تعذيب وهوان . كما ذكرت انني أرسلت صورة من الخطاب الى ام كلثوم وفائق السمرائي سفير العراق السابق في القاهرة وسعيد فريحه صاحب دار الصياد ، لأنهم لا يتولون مناصب قد يصل إليها بطش وإرهاب صلاح نصر ، وأن أم كلثوم قرأت الخطاب وبكت ، وأن فائق السمرائي قرأ الخطاب وذهل ولم يصدق عينيه ، وأن سعيد فريحه قرأ الخطاب وفزع . . وأرسل لي سعيد فريحه رسالة يقول فيها ان من رأيهم جميعا الا يصل هذا الخطاب الى الرئيس لأنه لو وصل اليه ، فسوف يعلم به صلاح نصر ، وسيقتلك صلاح نصر فى السجن . ان صلاح نصر كالاخطبوط فى الدولة ، وإذا استطاع ان يفعل بك كل هذا من قبل فهو قادر على ان يفعل بك أضعاف هذا الآن .

وطلبت ان يسأل رئيس النيابة العسكرية هؤلاء الثلاثة .

وطلب مني رئيس النيابة العسكرية خلع ملابسي ، وقال لي انه درس الطب الشرعي . . فخلعت . . وسجل وجود آثار في جسمي ناتجة عن التعذيب رغم مرور حوالي ثلاث سنوات .

وقلت له أنني أطلب ان أعرض على الطبيب الشرعي ليثبت الاصابات

وقال انه لا يستطيع ان يأمر بإرسالي الى الطبب الشرعي ، ولكنه يجب أن يستأذن أولا .

وسألني لماذا لم أخبر رئيس نيابة الدولة بالتعذيب ؟

قلت له ان صلاح نصار رئيس نيابة أمن الدولة كان جزءا من جهاز مخابرات صلاح نصر ، بدليل انه لم يحقق معي مرة واحدة خارج بناء المخابرات ، وبدليل انه لم ينفرد بي أبدا ، بل كان يحضر ثلاثة من ضباط المخابرات معي داخل غرفة التحقيق ، وبدليل انه تركني مسجونا أربعة شهور في سجن المخابرات مع انه ليس سجنا عموميا ، وبدليل انه رأى بعينيه كل جرائم التعذيب مع المتهمين السياسيين الآخرين ولم يسجل في محضره كلمة عنها .

وسألني لماذا لم أتكلم في محكمة الدجوي عن التعذيب .

فقلت له أردت ان اتكلم فى المحكمة عن التعذيب ، ولكن محاميّ الدكتور محمد عبدالله نصحني بألا أتحدث عن التعذيب ، لأن الدجوي لا يحب إثارة مسألة التعذيب ، وقلت انني لما وجدتني لا أستطيع أن أتحدث عن التعذيب فى المحكمة رفضت ان أفتح فمي أثناء المحاكمة ، ولهذا خلت المحاكمة من أي أقوال لي الا في نهاية الجلسة ، عندما وقفت وألقيت كلمة قلت فيها انني بريء وسوف يثبت التاريخ براءتي .

وسألني : هل جاءت لجنة وكشفت عليك لترى التعذيب ؟

فقلت : لم يحدث ..

وختم رئيس النيابة العسكرية المحضر بقوله «تم المحضر الساعة كذا .. وقررنا الانتقال الى ديوان الوزارة لعرض نتيجة التحقيق» .

واستمر التحقيق حوالي ثلاث ساعات .

ولقد كنت أفضل أن يكون التحقيق في النيابة العامة ، وإن كان المحقق العسكري أظهر روحا كلها عدل وإنصاف ونزاهة وشجاعة وقال ان هذا محضر تاريخي .

وقال لي ان كل التعليمات التي عنده أن يسمع أقوال الهضيبي وأقوالي ولا يطلع أحدا على التحقيق ، وان يرفعه الى وزير الحربية .

وعدت الى زنزانتي وقابلت الهضيبي وقلت له ان نزع التحقيق من النائب العام وتحويله الى النيابة العسكرية يؤكد لي أن ما يقال من ان النية اتجهت الى العودة الى العدالة والديمقراطية وسيادة القانون هو كلام فارغ . وانني اعتقد أن المقصود من التحقيقات ليس البحث عن الحقيقة وانما امتصاص سخط الشعب ، ولن يمر وقت طويل حتى تعود الدكتاتورية كما كانت قبل الهزيمة .

وقال لي الاستاذ الهضيبي : أنا لا أنتظر خيرمن هؤلاء القوم . انني لم أسمع أن طاغية أصبح رحيما ، وان ظالما أصبح عادلا ، وان الشياطين يصبحون فجأة ملائكة ! انهم لو مضوا في تحقيقات التعذيب فسوف يحاكمون أنفسهم وسوف يحكمون على أنفسهم . فهل تتصور أن الضمائر التي ماتت ممكن أن تعود الى الحياة ! انا أعتقد ان كل هذا الذي يقال عن الاتجاه الى تحسين الاحوال هو مسرحية يراد بها الهاء الشعب عن الهزيمة . في كل بلاد الدنيا عندما تنهزم دولة يستقيل حكامها على الفور . هذا حدث في كل صفحات التاريخ ولكننا هنا نعتبر «فقد» ثلث مساحة بلدنا نكسة ، ونعتبر بقاء حكامنا المسؤولين عن الهزيمة في مناصبهم انتصارا !

قلت : ومن الذي ينقذ البلد مما هي فيه ؟

قال الاستاذ الهضيبي : ان ما وصلنا اليه هو أسوأ مما يستطيع أي واحد منا أن ينقذه .. ان الله وحده هو الذي يستطيع أن ينقذنا مما نحن فيه ..

الإفراج عن عيد الأم !

ليمان طرة في ٢٦ مارس سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

اقبلك وأشكرك على خطابك المؤرخ في ١٨ فبراير فقد وصلني اليوم . أي أنه قطع المسافة من لندن الى القاهرة في ٣٧ يوما . وهو رقم قياسي في السرعة ! ويظهر أن الخطاب جاء ماشيا على قدميه ! أو انه تلكأ في عواصم العالم ، وامضى في كل مدينة جميلة يوما أو يومين حتى وصل بسلامة الله الى ليمان طرة . المهم أن الخطاب وصل . وهذا شيء يجب أن نشكر الله عليه . فالمهم أن أعيش معك في هذه الخطابات وانا أشعر وأنا أحتضنها انني أحتضنك . خطاباتك تذكرني بقطارات السكة الضيقة في ريف بلادنا في الزمن القديم . عندما كان سائق القطار يتوقف بالركاب في الطريق ليشرب كازوزة ، أو يترك القطار واقفا ليزور حماته ، ثم يمر القطار على جماعة يتناولون افطارهم فيقولون له «بسم الله» فيوقف السائق القطار ، وينزل ليشارك الداعين الطعام ، ثم يوقف القطار ليشترك في تشييع جنازة أحد المعارف ، ثم يرى فلاحة جميلة تحمل «البلاص» على رأسها فيهدىء سرعة القطار ويغازلها ، فاذا أبدت تفاهما أوقف القطار ولطع الركاب حتى ينتهي موعد الغرام ! وكان الفلاحون الركاب يقبلون أيديهم وجها وظهرا ويحمدون الله على وصول القطار بالسلامة في نهاية المطاف ! أما اذا كان أحد الركاب عصبيا ، واحتج على سائق القطار لهذه «اللكاعة» فإنه يوقف القطار ، ويقسم بالطلاق أنه لن يتحرك من مكانه ، وينزل الركاب ويحضرون مأذون القرية ليفتي فتوى تسمح للسائق باستئناف مسيرة القطار دون أن يقع يمين الطلاق .

وعلى كل فإن خطابك كان يعدو بسرعة الصاروخ اذا قورن بخطاب ابنتي رتيبة المؤرخ يوم ٢٨ فبراير فوصلني يوم ٢٦ مارس . أي أنه قطع

المسافة بين الزمالك وطرة في ٢٧ يوما ! ولا بد انه جاء راكبا سيارة أوتوبيس ، وكان ملطوعا على المحطة ، وسيارات الاتوبيس لا تتوقف له لأنها كاملة العدد . ويظهر ان أزمة المواصلات في القاهرة أصبحت أزمة خانقة . فقد سمعت في الاذاعة اغنية للمطرب الشعبي محمد عبد المطلب يشكو فيها من الصعوبات التي يلاقيها في حبه وهواه ويقول : «حبيبي ساكن في السيدة وانا ساكن في الحسين» ! فإذا كان المطرب محمد عبد المطلب لا يستطيع أن ينتقل من الحسين الى السيدة زينب ليصل الى حبيبته فلا بد أن أزمة المواصلات أزمة خطيرة فعلا ، وهذا شيء يؤسف له . لأنه يدل على أن العلم تقدم كثيرا عن الحب . فبينما العلماء يحاولون الآن الوصول الى القمر وينجحون ، فان محمد عبد المطلب يحاول أن يصل من حي الحسين الى حي السيدة زينب ليرى حبيبته ، فلا يجد مكانا يتعلق به على سلم الاوتوبيس !

أنا متفائل من المستقبل . نحن عندما نرى الظلام حولنا لا نلعن الظلام ، وإنما نضيء شمعة . وإذا انطفأت الشمعة أشعلنا عود ثقاب وتصورنا أنه شمعة ، واذا احترق عود ثقابنا الاخير أغمضنا عيوننا وتصورنا ان الشمس ساطعة . وهكذا لا نرى الظلام أبدا . اننا اذا وقفنا على حبل المشنقة فلن نفقد الأمل . سوف نأمل بأن حبل المشنقة الذي يحيط بأعناقنا سوف ينقطع ، أو يموت الجلاد بالسكتة القلبية ، ولا أتصور اننا سنفقد تفاؤلنا عندما نسلم الروح ، سوف نأمل ان يجيء الدكتور الجراح المشهور برنارد بقلب آخر حي ، ويضعه مكان قلبنا الذي توقف ، فيعود قلبنا يدق من جديد ! وأعتقد ان تفاؤلنا العجيب يغيظ الناس العاديين الذين لا يفهمون مدرسة التفاؤل التي أنت استاذها انهم عندما يرون رجلا على فراش الموت يجلسون يبحثون تفاصيل الجنازة ويعدون النعي الذي سينشر في الصحف . أما نحن فإننا نذهب ونحجز له تذكرة في حفلة غناء أم كلثوم . اننا دائما حتى آخر لحظة نتصور أن الله قد يصنع المعجزة وينقذه ولهذا فنحن نشتري له التذكرة خشية الا يجد له مكانا في الحفلة الشهرية لأم كلثوم ! وعندما نرى صديقا عزيزا داسته سيارة ، لا نلطم خدودنا كما يفعل

غيرنا في مثل هذه الظروف ، وإنما نلطم وجهه بأيدينا وندلك قلبه ، محاولين أن نعيد اليه الحياة .

الناس العاديون يعيشون حياتهم وهم يتصورون انهم يشيعون جنازة . ومشيعو الجنازة يفكرون طوال سيرها في أنه سيجيء يوم يكونون فيه داخل النعش بدل الفقيد .

أما نحن فإننا نتصور أننا نعيش في فرح كبير ، وأنه سيجيء يوم نكون فيه في الكوشة بجوار العروس .. والعروس هنا هي الحرية ! وفي بعض الاحوال تبدو أشبه بالمجانين ، ولكنا نجد هناء في هذا الجنون . انني في الماضي عندما كنت أطل من مكتبي في دار اخبار اليوم على خرابة ، لا أرى الخرابة البشعة وانما ارى العمارة الشاهقة التي يمكن أن تقام مكانها . وعندما أرى هنا مسجوناً سيئا أحاول أن أجد فيه أشياء طيبة لا تراها العين المجردة . ان زنزانتي تطل على دورة المياه في عنبر ٢ ، وعندما أطل من نافذتي لا أرى التواليتات وأقذارها ، وانما أرى بضع أشجار جميلة قائمة بجوارها . وعندما أقابل مسجونا أعور ، لا أنظر الى عينه العمياء ، وانما أتطلع الى عينه الصحيحة .

ولهذا أنا لا أرى بلادي المهزومة المفلسة المقيدة بالاغلال في الوقت الحاضر ، وانما أرى المستقبل ، أؤمن أنه سيجيء يوم تنتصر فيه بلادي ، وتسدد ديونها ، وتحطم قيودها وتستمتع بالحرية والديمقراطية !. . وهكذا أنا ارى في جنازة مصر مولدها الجديد .

***

أمضيت يوم ٢١ مارس معك . لقد عاد عيد الأم . انني أعيش اليوم انتصارنا . لقد صدر في العام الماضي قرار بإلغاء عيد الأم ، حتى ينسانا الناس ، وأطلقوا عليه عيد الاسرة . واذا بخطابات الاحتجاج تنهال على رئيس الجمهورية من مئات الالوف من الأمهات في مصر وخارج مصر . واضطر الرئيس ان يأمر باعادة احتفالات عيد الأم كما كانت .. وهكذا انتصرت وأنا في زنزانتي وأنت في منفاك على قرار ظالم ! وتصورت سعادتك وأنت تمسك الصحف وفيها اخبار الاحتفالات بعيد الأم ، الذي كان لك ولي فضل إدخاله في بلادنا . ولقد حدثت لخبطة نتيجة

الهرولة في تنفيذ قرار رئيس الجمهورية بإعادة عيد الأم المغضوب عليه ، بعض المذيعين لم يعرفوا بأمر القرار ، فتحدثوا عن عيد الأسرة ، ولكن الغالبية تحدثت عن عيد الأم . ولقد قيل للمسجونين انه لمناسبة عيد الأم يمكنهم ان يكتبوا خطابا ثالثا فوق الخطابين المقررين كل شهر . وأعتقد انه سيجيء يوم تفتح فيه السجون يوم عيد الأم لدخول الامهات لتمضية اليوم كله مع أبنائهن المسجونين . وأعتقد انه سيجيء يوم آخر يسمحون فيه للمسجون حسن السير والسلوك ان يخرج يوم عيد الأم من السجن يمضيه مع أمه . وكنت أتمنى أن أضع زهرة على قبر أمي . وشعرت بأسى أن يبقى قبر أمي يوم عيد الأم عاريا من الزهور . فبفضلها هي عرفنا قيمة الأم ، وجعلنا لها عيدا في بلادنا وكل بلد عربي . انني على كل حال أغمضت عيني وتذكرت أمي ، واذا لم أستطع ان أذهب اليها ، فقد أحسست انها جاءت الي . وأمضت معي اليوم في الزنزانة . عشت بخيالي معها في أحلام الصبا ، استعدت أيامنا الحلوة ، ضحكاتنا ، حنانها ، وعندما نمت شعرت بيدها ، وهي تمسك الغطاء وتغطيني . اننا أحيانا نعود أطفالا . نشعر كأن ذراع أمنا تمتد الينا من وراء الغيب ، تساعدنا على السير فوق أشواك الحياة .

تلقيت اليوم الخطاب الذي كتبته في لندن بمناسبة عيد ميلادك ، عشت معك تلك السهرة . شعرت كأن الشمعتين الفضيتين اللتين تلقيتهما في عيد ميلادك تضيئان ظلامي . تفرجت معك على الراقصات الاسبانيات في فندق سافوي . شاهدت الاعيب الحاوي العجيب . في بعض الاحيان نحتاج الى حاو في حياتنا .. حاو يحول حياتنا الفارغة الى حياة مزدحمة كما كانت حياتنا ونحن نعمل في «أخبار اليوم» . حاو يحول زنزانة السجن الى فندق سافوي . حاو يحول دموعنا الى ضحكات . وكثيرا ما لا نجد حواة ولا سحرة يقومون بهذه الاعاجيب فنجعل من أنفسنا الحواة التي تسلينا . ونجعل خيالنا يخدعنا ويقرأ بصوت عال ما هو مكتوب في ورقة مطوية ! أتصور أحيانا أننا نغضب على أنفسنا اذا لم نجد من ينصب علينا ولكن الغريب أنني لا أشعر أبدا أنني أخدع نفسي بإيماني العجيب بالغد ، بإحساسي العميق ان الغد فيه قوة قاهرة

سوف تسحق الحاضر بكل ما فيه من عنفوان . سوف يحطم الغد السلاسل التي تقيدني في زنزانتي . سوف يكسر الاغلال التي تمنعني اليوم من الحركة . سوف تجعلني أقوى كثيرا من الذين يبطشون بي اليوم . انني لا أعتمد على رجل معين يفتح لي أبواب السجن - أي رجل في مصر أو خارجها أضعف من ان يحطم أقفال السجن - انما أنا أعتمد على حركة التاريخ . أؤمن أن غدا سيكون كالاعصار يقتلع من أمامه كل ما يتوهم البعض الآن أنه كالقلعة لا يمكن اقتحامها ، أوكالجبل لا يمكن اقتلاعه . إعصار الغد سوف يحول كثيرا من العمالقة الى أقزام ، وسيجعل كثيرا من القرارات التي تبدو مقدسة اليوم خرقا بالية تمسح بها الاقدام ، وسيجعل كثيرا من الشعارات والاعلام المرفوعة كفنا تلف به جثة الحاضر وهو يوارى التراب . وهكذا فأنا عندما أبيع الأمل والتفاؤل للناس ، أبيع بضاعة أعتقد أنها ستكون موجودة غدا ، أبيع في الظلام أشعة الشمس لأنني واثق انها ستشرق في الصباح ! وبعض الناس يتصورون انني أخدعهم وأنصب عليهم ، بينما انا عندما أزرع التفاؤل في قلوب الناس أحصد ابتسامتهم . أجني السعادة التي أراها في بريق عيونهم ، بعد أن زرعت في صحراء نفوسهم بذرة تفاؤلي وإيماني بالغد !

وعندما أسمعك تتحدث عن التفاؤل أتذكر اغنية شريفة فاضل التي تقول «على مين ؟ على مين ؟ ح تبيع الميه في حارة السقايين ؟» أوشيئا من هذا القبيل . انك أشبه بمن يجيء يزاحم بائعا متجولا في شارع ويحاول أن يبيع نفس البضائع لنفس الزبائن . صحيح أن بضاعتك ملفوفة بورق مفضض ، وبورق سولفان ، أما أنا فإنني ألف بضاعتي بالورق الموجود الوحيد عندي في الليمان وهو ورق جرائد أو ورق تواليت ! العجيب أنني وأنا أبيع نفس بضاعتك أقبل عليها بلذة ونهم ، وأنا أجد لذة وأنا أضع أسناني في تفاحة تفاؤلك وكأنني أقبلها !

ولهذا لا تتصور أنني لست متفائلا بشأن البلد . أنا متفائل جدا بمستقبل الحرية ، ومتشائم جدا ان الاستبداد هو الذي سيفتح لي ولغيري أبواب السجن . أنتم تحلمون بشمعة تضيء في الظلام ، وأنا

احلم بشمس تشرق على البلد كله . الشمعة الواحدة قد تضيء زنزانتي ولكن ستبقى مصر كلها في ظلام . وما فائدة أن أخرج من سجن كبير ؟ ما لذة أن تكون مساحة زنزانتي هي مساحة أرض مصر كلها ؟ وأي قيمة لحرية أنالها اذا كانت حرية بالقطارة ! ان حرية بالقطاعي معناها استبداد بالجملة . الحرية التي تعطى كمنحة يمكن استردادها . ان الحرية التي يتحدثون عنها هي أن أخرج من السجن ولا أفتح فمي ! وهذه هي العبودية الكاملة ! أنا هنا أقول كل ما أريد أن أقوله دون أن أتلفت حولي في ذعر .. ان هذا أكثر حرية من أن أخرج من السجن وأعيش خائفا أن يعيدوني اليه ! الناس من خوف السجن في سجن ! انهم يريدون أن يخرج جزء من جسمي من السجن وتبقى يدي مقبوضا عليها لا أكتب ، ويبقى لساني معتقلا لا ينطق ، ويبقى عقلي مجمدا لا يدرك ولا يفكر . وهذا أشر من السجن وأقسى على نفسي من الزنزانة .

انني أرفض حرية بالقطارة ! أرفض حرية لشخصي . أريد حرية كاملة . حرية لبلادي .. وعندئذ سيصبح كل العبيد أحرارا !

كيف طبقوا بيان ٣٠ مارس في الليـمان

٣ ابريل سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

كان الجو في السجن جو تشاؤم . توقف استدعاء المسجونين السياسيين الذين قدموا بلاغات للنائب العام ضد تعذيب صلاح نصر وشمس بدران لهم . شاع في السجن أن أمرا صدر بوقف إرسال المسجونين السياسيين الى النيابة للإدلاء بأقوالهم في شأن التعذيب ..

ولكن اذا لم تكن هناك نية للتحقيق في قضايا التعذيب فلماذا حققت النيابة في قضايا التعذيب ، ولماذا أحالت بعضهم الى الطبيب الشرعي ، ولماذا سمحت للصحف أن تتحدث عن التعذيب ؟

انني قرأت بيان ٣٠ مارس وتشاءمت ! انه مكتوب بأسلوب هيكل . وقد ذكرني بالقرار الذي أصدره مجلس الثورة في سنة ١٩٥٤ بعودة الضباط الى ثكناتهم وعودة الاحزاب وحرية الصحافة .. وقد ظهر أن المقصود به أن الرئيس جمال عبد الناصر اراد أن يمتص السخط ، وبعد أيام ألغى القرار ، وبدأت الدكتاتورية تكشف عن أنيابها !

انني أتصور أن كل ما هو مكتوب في بيان ٣٠ مارس هو وعود لن تنفذ . وبالونات منفوخة بالهواء . وعبارات مطاطة يمكن تفسيرها بألف تفسير وتفسير ، واذكر كلمة قالها لي جمال عبد الناصر . «أنا لا أحب أن احبس نفسي في كلمات جامدة ، لا بد أن يكون في الكلمات ثغرات ليكون لي دائما حرية الحركة ..» وأنا أحسب أن بيان ٣٠ مارس يسمح للرئيس بحرية الحركة كما يشاء فالبلد يريد تغييرا ، وهو يقدم له تغييرا في بعض الوجوه ، وتغييرا في بعض الشعارات ولكن روح الحكم واحدة . ولهذا فأنا اتوقع أن تبقى المعتقلات مع الافراج عن عدد محدود من المعتقلين السياسيين . ويبقى المسجونون السياسيون في سجونهم مع إغلاق الزنازين ١٧ ساعة بدلا من ١٨ ساعة ! وأتوقع أن تخفف الرقابة على

الصحف مؤقتا ، ثم تشتد بعد ذلك وتصبح أعنف مما كانت ! وأتصور أن الحراسة سوف تستمر مع زيادة ما يصرف للموضوعين تحت الحراسة جنيهين أو ثلاثة جنيهات !

هذا هو التغيير المنتظر . سوف يكتبون على زجاجات «السم» «ماء زمزم» ويقولون لنا اشربوا !

انني أتصور أن سبب تغيير وزير العدل وتعيين وزير جديد هو ان الوزير القديم سمح بالتحقيق في قضايا التعذيب دون أن يستأذن !

ولقد حدث في هذا الأسبوع أن أحيل اثنان من المسجونين السياسيين الى الطبيب الشرعي ، واستدعي مسجون سياسي ثالث لسماع أقواله في بلاغ تعذيب ، ثم حدث أن زار السجن مقبل شاكر رئيس نيابة حلوان في زيارته الشهرية لتفقد السجن ، وفتح باب زنزانتي ، وسألني اذا كان لدي أي شكوى ؟ فقلت : ماذا جرى لبلاغي الى النائب العام . انني أرسلت بلاغا للنائب العام وليس لرئيس النيابة العسكرية ، فاذا ببلاغي يصل الى النيابة العسكرية بدلا من النائب العام ! وأكد لي رئيس نيابة حلوان أن بلاغي وصل الى النائب العام وأنه أمر بالتحقيق فيه ولا يعرف كيف وصل إلى النيابة العسكرية !

وتركني مقبل شاكر وذهب الى مدير السجن وسأله كيف لم يبلغني بوصول بلاغي الى النائب العام .

وقال مدير السجن ان أمرا من الداخلية صدر بأن «يكتموا عليه» حتى تجيء الموافقة من فوق !

وطبعا لم تجيء الموافقة من فوق !

والسجن يعيش في جو مضطرب . فقد قيل لي ان وزارة الداخلية طلبت لفت نظر الحراس الى أنها لاحظت أنهم يعاملون المسجونين معاملة حسنة ، وأن هذه المعاملة الحسنة أسقطت هيبة الادارة ، وأنه يجب تفتيش المسجونين باستمرار حتى يعيش المسجون في قلق ولا يفكر في الهروب ! أن حياة المسجون في قلق مستمر تعرضه لانهيار عصبي ، وربما الى الجنون ، ولا أظن أن سياسة مصلحة السجون هي تحويل السجون الى مستشفى العباسية أو السراي الصفراء !

ثم صدر أمر بهدم الرفوف الخشبية التي يضع عليها المسجون حاجاته في الزنزانة ، وقضي الأمر بوضع كل شيء على البلاط ! ورأى أحد الضباط صورة رسمها أحد المسجونين على الجدار لأبو زيد الهلالي والزير سالم فأمر بهدم الجدار . وجمع كل ما في الزنازين وحرقها أمام العنبر ، ولم يترك لكل مسجون الا بطانيتين وبرش . ان دخول الحراس الى زنزانة مسجون وعبثهم بما فيها ، وتحطيم كل ما فيها ، يتعس المسجون تعاسة لا حد لها . والمهم أن المسجون القادر سوف يحصل خلال أيام على كل ما تحطم ، وسوف يشتريه بسجائر ، وبعضهم سوف يحرم نفسه من القوت ، لكي يحصل على البطانية الزائدة التي سحبوها منه . وينتج عن ذلك أن تسوء تغذية السجناء ويمرضوا بالسل ، وتنفق الدولة ألوف الجنيهات على علاجهم ، ويخرجوا من السجون وهم محطمون مرضى ، تعساء حانقون . لقد رأيت المسجونين اليوم بعد المذبحة التي حدثت لهم وكأنهم يسيرون في جنازة كبيرة كل واحد فيهم هو النعش وهو المشيعون !

وقيل للضباط انهم يفرجون المسجونين على التليفزيون بغير إذن ، وطلبوا أن يكون فتح التليفزيون بأمر المدير ، ومعنى هذا أن كثيرين من الضباط لن يجرؤوا على فتح التليفزيون ، وسيحرم المسجونون من متعتهم الوحيدة .

وجاءت تعليمات من مصلحة السجون بعدم إدخال أطعمة للسجون في الزيارة الشهرية العادية ، وأن يدخل الطعام للمسجون مرتين كل عام ! واذا تصورت نوع الطعام القذر الحقير الذي يقدم للمسجون ، وعرفت أن المسجون يعيش شهرا كاملا في انتظار الزيارة العادية ليحصل على بعض الطعام الذي يعيش عليه ثلاثين يوما ، فتصور ما أحدثته هذه الأوامر الجديدة في نفوس هؤلاء المنبوذين المعذبين التعساء !

هذه هي طريقة تطبيق بيان ٣٠ مارس في ليمان طرة !

كان الله في عون باقي الشعب المسكين .

انني أشعر بعذاب لا حد له عندما أرى حولي الأفواه الجائعة

والبطون الخاوية والأجسام الهزيلة والنفوس المحطمة والأشباح العليلة . انني لا أجد طعما للطعام وفي الزنزانة التي بجواري جائع لا يجد الطعام .

كنت قد وضعت لنفسي قاعدة هنا : الا أشكو من شيء ولا أعترض على شيء ولا أطالب بشيء ، وأن أعطي مثلا للمقاومة السلبية . وكنت اتصور أن المسجونين يخطئون بالشكوى ، وأنهم لو وقفوا سلبيين فسيرغمون الطغاة على تحسين معاملتهم . ولكن يظهر أنني كنت مخطئا . يظهر أن هناك من لا يسمع الا اذا صرخت في وجهه ومن لا يرى الا اذا وضعت اصبعك في عينيه . ان الحياة في سجوننا تحتاج الى ثورة . ولكن الثورة يجب أن تقتلع الظالمين خارج السجن فإن كل أوامر الظلم تجيء من خارج السجن . اننا نعلم المسجونين كيف يكونون مجرمين وحاقدين وساخطين . اننا نحول البريء الى مجرم ، والمجرم العادي الى معتاد للاجرام ، والمحكوم عليه في جريمة ضرب الى قاتل . ان سجوننا مدارس لتخريج كبار المجرمين . ولوائح السجون هي برامج الدراسة ، ومنفذو اللائحة هم أساتذة فن الاجرام ! انني عندما أقرأ عن معاملة المسجونين في السجون الاجنبية في البلاد الديمقراطية أذهل . الذي أخشاه أن يكون هذا ليس هو حال المسجونين في السجون فقط ، أخشى أن يكون الرؤساء يعاملون العمال في المصانع هكذا أو أن المديرين يعاملون الموظفين في الادارات معاملة العبيد . هذه القسوة والوحشية وانعدام الانسانية لا يمكن أن تكون مقصورة على السجون وحدها . لا بد أنها تمتد الى كل مكان وأن السوط لا يختار الظهور التي يلهبها ولا الأمكنة التي يضربها . انه يصيب بلدغته كل جزء من هذا الشعب . بعضنا يصرخ وبعضنا لا يجرؤ على الصراخ . وغيرنا يهتف بحياة الضاربين !

الاجنبي الذي يزور بلادنا يعجب بالديكور ، لا يتصور أنها مناظر مرسومة على الورق ، تخفي حقائق بشعة . لا أحد يفكر في أن يرى ما خلف المناظر المسرحية المصنوعة المزوقة بأزهى الالوان ، لولا اعصار

هزيمة ٥ يونيو لما سقطت بعض هذه المناظر ، ولما رأى الشعب الاهوال التي خلفها .

ان الذي يزور السجن مثلا يتفرج على فرقة موسيقى تعزف أعذب الالحان ، وسوف يدهش اذا عرف الحقيقة وهي أن المسجونين لا يصرح لهم بأن يسمعوا هذه الموسيقى الا اذا جاء زائر الى السجن ! الزائر سوف يشهد مسرحا للعرائس ، ثم لن يصدق أن هذا المسرح لا يتفرج عليه المسجون ولا مرة واحدة في السنة . انه مقام ليتفرج عليه الزائرون فقط لا غير ! الزائر سوف يرى حدائق غناء ، وأحواشا واسعة ، وسوف يغمى عليه اذا اكتشف أن المسجونين محرم عليهم أن يضعوا أقدامهم في هذه الحدائق ، أو أن يسيروا في هذه الاحواش ! الزائر سوف يجد ممرات السجن وقد وضعوا حولها درابزين أنيقا من الحديد .. سوف يفجع عندما يعرف أن هذا الدرابزين هو سراير المسجونين وأنها نزعت منهم لتزين بها ممرات السجن بينما ألوف المسجونين ينامون على البلاط !

أنا أتصور أن هذا هو حالنا خارج السجن . اشتراكية من نوع خاص تجعل الشعب يتضور جوعا ، وحفنة من أثرياء الاشتراكية يعيشون حياة أصحاب الملايين . حرية من نوع خاص تجعل الشعب مكمما والصحافة مقيدة ومجلس الشعب ممنوعا من الكلام بينما الحكام وحدهم لهم حرية الكلام !

عدالة من نوع خاص تجعل المجرمين يجلسون في مقاعد القضاة وتضع الابرياء في قفص الاتهام . أعياد نصر نحتفل بها ونعطل دور الحكومة والمدارس والمصانع ، بينما ثلث أرض الوطن يحتله جيش أصغر دولة في العالم .

استقلال من نوع خاص ! السفير الروسي يتدخل في تعيين الوزراء . الخبراء الروس يحكمون الجيش المصري ولا يستطيع ضابط مصري أن يحصل على اجازة الا بإذن الضابط الروسي . ولا نستطيع أن نطلق مدفعا أو نحرك دبابة أو نطير طيارة الا بعد استئذان موسكو !

أنا أعتقد ان الشعب الآن يرى ما خلف الديكور الملون الزاهي البراق ، ولن يطيق الشعب والجيش هذا الهوان !

ان البلاد تعيش في قلق . لانها لا تعرف ماذا سيحدث لها غدا . هل اتفقت امريكا والاتحاد السوفييتي على استمرار الوضع الراهن : أن يبقى الاحتلال الاسرائيلي كما هو ، ويبقى النفوذ الروسي كما هو ونعيش سنوات طويلة في عصر لا حرب ولا سلام ، وتأمل أمريكا من وراء هذا أن نيأس ونعقد صلحا مع اسرائيل ، ويأمل الاتحاد السوفييتي من وراء هذا أن نيأس ونعتنق الشيوعية ؟ انني لم أعد أصدق ما تكتبه الصحف لأنني أعرف أنها تعيش في حصة املاء يومية !

والمسجونون هنا يعيشون في قلق . المسجون يعيش في أوامر متلاحقة وتعليمات مضادة ، وأوامر مختلفة . ما يسمح به اليوم يمنع غدا . وما يباع في هذا الأسبوع يحرم في الأسبوع التالي . المفروض أن يعيش المسجون في قلق كباقي أفراد الشعب ، لا يعرف ماذا يأكل ، ولا يعرف ماذا يشرب ، ولا يعرف كيف ينام . يحدث أن يكون نائما على السرير في الصباح ، وفي العصر يسحبون منه السرير ، وفي المغرب يسحبون منه المرتبة ، وفي العشاء يكون نائما على الاسفلت !

يصرح لك اليوم بالذهاب الى مستشفى السجن لتحليل الدم ثم يصدر أمر بمنع ذهابك الى المستشفى لتحليل الدم ، ثم يصدر أمر ثالث بأنه مفيش تحليل دم .

ومن حسن الحظ أنني أضربت منذ دخولي الى السجن عن شرب الشاي . ان شرب الشاي في السجن محنة يتعرض لها المسجون ، الشاي الذي يباع للمسجون بارد ، ويشبه لون العرقسوس ، ويشبه لون الخروب ، ويشبه لون التراب والطين ، ولكنه لا يشبه أبدا الشاي ! ويحاول المسجون أن يحصل على شاي يصنعه لنفسه . وهنا الطامة الكبرى . اذا ضبطوا المسجون ومعه الشاي فهذه جريمة كبرى ، واذا ضبطوا المسجون ومعه «التاوتاو» ـ وهو وابور غاز اخترعه المسجونون ـ فهذه جريمة أكبر ، ولكن المسجون لا يستغني عن «التاوتاو» فهو لا يستطيع أن يأكل طعامه باردا ، ولا يستطيع أن يشرب

الشاي دون أن يغليه . وفي كل أسبوع يهاجم الحرس الزنازين ويصادرون «التاوتاو» ويحطمونه بأقدامهم . وبعد ذلك بدقائق يحصل المسجون على «تاوتاو» جديد . والذي يدفع ثمن هذه الحماقة هو الدولة فإن التاوتاو من الصفيح الموجود في مخازن وورش السجن ، وهكذا تتكلف الدولة آلاف الجنيهات كل شهر ، لأن اللوائح الغبية تمنع وجود تاوتاو ، ولأن المفروض ان المسجون يجب أن يأكل طعامه باردا ويشرب اللبن وكأنه الدندرمة !

حضر الى عنبرنا في ليمان طرة مسجون سياسي جديد ، انه الدكتور محمد حلمي عفيفي الطبيب بالاسكندرية . وهو محكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، وتهمته الاشتراك مع ضباط في مؤامرة لقلب نظام الحكم .

وسألته كيف قلب نظام الحكم ؟

فقال ان كل ما حدث انه انتقد قيادة الجيش الموضوعة في السجن الآن !

قال أحد الزملاء : لا بد أن يفرجوا عنك الآن بعد أن أصبحوا يقولون عنهم الآن ما كنت تقوله عنهم بالامس !

قلت ضاحكا : من حق الحكام فقط أن ينتقدوا بعضهم .. أما نحن الرعايا فليس من حقنا أن ننتقد أحدا ! ولهذا فأنا لا أعتقد أنهم سيفرجون عن الدكتور حلمي عفيفي ، لأن معنى الافراج عنه ان حكامنا أخطأوا في سجنه ، وحكامنا - لا سمح الله - لا يخطئون أبدا ولا يغلطون أبدا !

وروى لي الدكتور حلمي عفيفي أنهم أرغموه في السجن الحربي على أن يأكل لحم قدمه الذي نهشوه بالسياط ! وخلع حذاءه فرأيت آثار التعذيب البشع ..

وقال الدكتور حلمي ان المعاملة في السجن الحربي أصبحت معقولة بعد طرد حمزة البسيوني مدير السجن السابق وسجنه . وأن باب الزنزانة عندنا في ليمان طرة يغلق في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وذكر انه يسمح للمسجونين بالاحتفاظ بنقود معهم ويحضر كل يوم جندي

ويسأل المسجون عما يطلبه من مأكولات ويشتريه من السوق ، وكل مسجون يحتفظ في زنزانته براديو ترانزستور وسخان كهربائي ، وهذا شيء محرم عندنا في الليمان . والمسجون في السجن الحربي يزوره الآن أهله مرة في الأسبوع أو مرتين ، والزيارة تستمر حوالي الساعتين .

وكان قد قيل لنا في تبرير المعاملة القاسية التي يلقاها المسجونون السياسيون في ليمان طرة ان وزير الداخلية مهتم بإساءة معاملتنا اهتماما خاصا وانه يقول دائما لمساعديه «المسجون السياسي هو أخطر مجرم في الدولة ويجب معاملته بكل شدة وقسوة وحزم» .

وقد حدث أن شكا المسجونون السياسيون في الطابق الذي انا فيه والذي يسمونه «ملحق مستشفى السجن» شكوا من أن أبواب الزنزانة تغلق عليهم ٢٠ ساعة كل يوم . وهذا شيء لا مثيل له في أي مستشفى في العالم حتى مستشفى الامراض العقلية .

وقال لي مقبل شاكر رئيس النيابة انه أبلغ شكواهم الى النائب العام ، وان النائب العام اتصل بمدير مصلحة السجون فقال له المدير ان هذه أوامر الوزير شخصيا !

وقال النائب العام انه سيتصل بشعراوي جمعة وزير الداخلية في هذا الشأن .. .

وطبعا رفض شعراوي جمعة أن يلغي قراره أو يعدله ، لأنه يتصور أنه سيبقى طول حياته وزيرا للداخلية يأمر وينهي ، ويستبد بالناس كما يهوى ويريد !

ولكنه لا يعرف ان الدنيا تدور وأنها أشبه بصينية لونابارك تقف فوقها اليوم ، وتطيح بك غدا !

وهكذا ينفذون بيان ٣٠ مارس في ليمان طرة .

السبق الصحفي الأخير !

٣٠ ابريل سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

عندما يصلك هذا الخطاب يكون قد مضى على فراقنا ثلاث سنوات كاملة ! نحن الذين كنا لا نفترق أبدا . واذا افترقنا كنا على لقاء مستمر بالتليفونات والبرقيات والرسائل . انني لا أعرف كيف استطعنا ان نحتمل هذا الفراق الطويل ! كيف استطعنا أن نعيش مع الصمود . ما جعلنا نستقبل هذه المحنة بإيمان عجيب ، انني مازلت أذكر يوم ودعتك آخر مرة في ٢١ مايو سنة ١٩٦٥ ، عندما أدرت ظهرك في طريقك الى الطائرة . أحسست كأن الدنيا كلها أدارت ظهرها لي . كان حولي عشرات من أصدقائنا وزملائنا ، ولكنني أحسست في تلك اللحظة أنني وحدي في الحياة . كأن سكينا قطعت ما بيني وبين الغد . كأن جدارا ثقيلا سقط وفرق بيني وبين الهواء والنور . كأن عصا سحرية شقت الأرض وأقامت بيني وبينك بحرا واسعا ، فأصبحت أنا في عالم وأنت في عالم آخر . يومها ذهلت لما أصابني .. لقد كان الاتفاق بيننا أننا سنلتقي بعد أسابيع . لقد حرصت أنت على ان تطلب الحضور الى القاهرة عدة مرات في كل عام حتى لا يطول فراقنا . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي نفترق فيها .

اننا سافرنا مئات المرات . ولكن هذه كانت المرة الأولى التي أحسست فيها بهذا الشعور العجيب . كأنني كنت أقرأ الغيب . كان الاحساس العجيب الذي يجمع التوأمين جعلني اشعر بأن هذا الفراق سيكون مختلفا عن أي فراق آخر . وعندما كتبت وصفا لسفرك كان الذين يقرأون هذا الوصف يبكون . كانوا يقولون انه أحسن ما كتبت في حياتي . حتى الآن لا يزال الناس يذكرون الكلمة التي كتبتها في وداعك . ويحفظون بعض كلماتها ، يرددون أغلب عباراتها ، كأنها أغنية في

وصف فراق حبيب ، كأنها قصيدة شاعر يرثي فيها نفسه . سبق صحفي انني بعد هذه السنوات الثلاث اتصور انني قمت بآخر سبق صحفي لي ، كأنني رثيت نفسي قبل ان اموت ، كتبت وصف جنازتي قبل أن أدخل النعش . كنت في أوقات كثيرة وانا جالس في مكتبي اشعر برغبة في أن اقوم بسبق صحفي . ان أعد وصف موتي قبل أن اموت . ان اكتب عناوين الخبر ، حتى أوفر على المحررين مهمة البحث عن عنوان ، ان اكتب كلمة تلقى في حفلة التأبين ، فاكون أول ميت يتحدث الى الناس من قبره . وكثيرا من هذه الاوراق مزقتها ، وبقى بعضها في مكتبي ، ولكنني عندما كتبت الكلمة التي وصفت بها فراقنا كنت اشعر فعلا انني وأنت سنفترق ، سنفترق لمدة طويلة جدا .

ان خطاباتك تخفف كثيرا عذاب الفراق . انها تسعدني . لو كان الأمر بيدي لقرأتها كل يوم وكل ساعة ، ولكن التعليمات تقضي بأن أعيدها بعد قراءتها . ولهذا عندما أكتب اليك لا أستطيع ان أرد عليها خطابا خطابا ، لأنها لا تكون معي عندما أبدأ في الكتابة اليك . ولكني أفرح بالخطاب عندما يطول ، وأحزن عندما ينتهي ، فإنني أتمنى لو كان الخطاب مكونا من ألف صفحة ، فإنني أجد لذة في أن أعيش معك كل دقيقة من حياتك ، أن أجلس مع أصدقائك ، أن اقرأ في كل كتاب تقرأ فيه ، أن أشهد معك برامج التليفزيون ومباريات الكرة . وانني أشعر كأن هذه الخطابات هي شريط وهمي يصلني بك . وعندما تتأخر الخطابات أتصور أننا نتحدث بغير كلام ونتخاطب بغير صوت . ان بين قلبي وقلبك خطا تليفونيا مستمرا ، يبقى مفتوحاً طول الليل والنهار . لا تحسب فيه المحادثات بالدقائق ، وإنما الاحاديث متصلة دائما . اكاد أسمع فيها نبضات قلبك ، وخلجات نفسك ، وأكاد اقرأ الافكار التي في رأسك . واكذب عليك اذا قلت لك أن هذه الاتصالات الروحية تسعدني . انها تعذبني لأنني أحس منها بعذابك ولوعتك وشقائك . لقد كان من أحلامي أن أدفن معك في قبر واحد . كنت لا اريد أن أنفصل عنك حتى الموت . ولكن القدر شاء ان يفصلنا في الحياة ، نحن الذين كنا نأبى أن يفصلنا الموت . ان عملية تقسيمنا كانت أشبه بتقسيم الذرة .

فإن الانفجار حطم حياتي وحطم حياتك ، وحطم أحلامنا التي كانت الدنيا لا تسعها . انه أشبه بعملية فصل التوأمين السياميين اللذين ما كاد يفصلهما مشرط الجراح حتى مات الاثنان معا . وفي بعض الاوقات أشعر أنني مت ، وانه لم يبق منا الا الارواح ، وان أرواحنا هي التي تتخاطب وتتناجى ، فإن فراقنا جعل كل واحد منا حائرا ، تائها ، محطما . انها تجربة لم يتعرض لها توأمان من قبلنا . أن يموتا وهما على قيد الحياة . أن يدفنا ولا تزال أنفاسهما تتردد . والذي نفعله الآن أشبه بعملية استحضار الارواح . نستخرج من الغيب أشباحا ، ونتصور أننا نسمع أصواتا ، ونفهم كلماتها !

انني عندما أكتب اليك أشعر كأنني أكتب الى كل انسان أحبه . أكتب من الآخرة الى الدنيا ، من العدم الى الحياة ، من الظلام الى النور . ولست أظن أن أهل الدنيا يستطيعون حديث الآخرة ، عالمنا في السجن هو عالم تحت الارض ، جمود وخمود . جثث من الأحلام ، وجماجم من الأماني ، وعظام داس عليها الزمن . نحن لا نرى الاشجار فوق الارض ، والنسيم يهز الاشجار وكأنها تغني . بل نحن نرى جذورها وهي تغوص تحت الأرض وكأنها تدفن أو تبكي . ان رسائل المحبين تصبح زهورا توضع على القبور ، وعندما يموت الانسان يزين قبره كله بالورود ، ثم تنقص أعداد الورود والزهور مع الأيام ، وتتضاءل حتى تصبح زهرة واحدة ، ثم تجف الزهرة الواحدة ، فيبقى القبر عاريا ! الا تذكر عندما كانت تذهب أمي الى مدافننا ، فترى عدة قبور عارية نسيها الأحياء ، فتضع بيدها وردة على كل قبر منسي . ان المسجونين مثل هذه القبور . انني أرى لهفتهم وخيبة آمالهم وسحوبهم عندما يجيء من يحمل البريد ، فيوزع خمسة خطابات أو ستة على مائة مسجون . انني أراهم أشبه بهذه القبور العارية في مدفن أسرتنا بالامام - الشافعي ! كم تمنيت في تلك اللحظات أن أكتب الى كل مسجون محروم خطابا ، ن أختلق له حبيبة ، اذا لم تكن له حبيبة تحبه ، أن أصنع له من الوهم صديقا اذا كان فقد كل أصدقائه وخلانه ، أن أخترع له أسرة اذا كانت أسرته تنكرت له . ولكن لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه مصرح لي

أن أكتب خطابين اثنين كل شهر . انني أشعر بعذاب الاخرين . كأن دموعهم تسقط على وجهي . كأن نارهم تحرقني . كأن آلامهم تشقيني . انني أضيع في ضياعهم وأجوع في حرمانهم ، وأموت بين قبور أحلامهم ، كم أتمنى أن يكون في قلبي نيل من الحب ، حتى أستطيع أن أروي به كل العطاش . كم أتمنى أن يكون لدي أضعاف ما عندي من الصبر ، لأوزعه على اليائسين القانطين . كم أتمنى أن أقتسم أحلامي مع الذين ينامون في كابوس ويستيقظون في كابوس ، لا يرون في بسمة الغد الا قهقهة ساخرة بهم وبأحلامهم ! كل هؤلاء العرايا في حاجة لأن نغطيهم ببطانية من الأمل . كل هؤلاء التائهين في حاجة الى ايمان بالغد ينقذهم من حيرتهم . كل هذه الاشباح المحطمة في حاجة الى الحب ، يحيي مواتهم ، ويضيء ظلامهم ، ويفتح طريق الرجاء أمام عيونهم .

ان ايماني بالله يجعلني أطير في الخيال ولا أهوي الى الحقيقة . انني لا أسأم الخيال مهما بدا وهما . كانت على حياتنا أوهاما ، فحولناها الى حقائق . ولم نيأس أبدا من رحمة الله . اذا تخلت عنا الدنيا عدونا وراءها اذا لم تعد الينا . اذا تنكر لنا الحظ لم نغضب عليه ونلعنه وانما لحقنا به وقدمنا أنفسنا اليه . اذا أساء صديق لنا لا نحاسبه حساب الملكين ، بل نخلق له الاعذار والمبررات ونحاول أن نلوم أنفسنا على الاساءة التي أصابتنا . ان هذا الايمان هو الذي أبقى الربيع حيا في خريفنا ، هو الذي ملأ حياتنا بالخير والحب والجمال .. وكل ما أرجوه من الله أن يبقى لنا هذا الايمان الى آخر يوم من أيام عمرنا .

انني أشكرك كثيرا على نصائحك بشأن العناية بصحتي . ولكني متضايق لأن وزني زاد برغم أن الاطباء يرون تخفيض هذا الوزن بسبب مرض السكر ، وإنني أفكر في أن أزاول أي رياضة حتى يعود وزني الى ما كان عليه ، وقد كنت سعيدا جدا بنقص وزني . وذلك تطبيقا لمبدأ ضرورة الاستفادة من الكوارث ولكن حتى هذه الفائدة لم أستطع ان أحافظ عليها . ان سبب زيادة وزني هو عدم الحركة . انني أسير ساعات طويلة على قدمي في داخل الزنزانة ، أو أمام الممشى ولكن يبدو أن هذه الرياضة ليست كافية .

وفي الختام أقبلك وأقول لك كل ثلاث سنوات وأنت طيب ..

والى اللقاء ..

خطابات المسجونين

١٠ مايو سنة ١٩٦٨

عزيزتي ..

السجين يفرح بكل خطاب يتلقاه . أرقب وجه الواحد منهم عندما يتلقى خطابا وقبل أن يفتحه تتغير قسمات وجهه من الحزن الى الهناء . وترتعش يداه وهو يفض الرسالة . وتلمع عيناه وهو يقرأها . أعجب أن بضع كلمات وبضعة سطور تصنع في روح المسجون كل هذا التغيير .. الكلمة البسيطة تتحول في أذن المسجون الى أغنية . النثر يصبح شعرا . العبارات تنقلب الى موسيقى وألحان . الورقة تستحيل الى امرأة ترقص وتمرح ، تضحك وتبكي ، تعود به الى بيته وتجمعه بأولاده . الورقة الصغيرة تكبر بين أصابع المسجون كأنها كتاب كثير الصفحات . السطر الواحد يصبح صفحة . اللفظ العادي يجد فيه المسجون بلاغة لا يحس بها الذين لم يعرفوا السجن ولم يذوقوه . المسجون في وحدته يضرب بسياط غير منظورة . لا نراها وانما نحس بآلامها وهي تلهب أرواحنا . وتجيء هذه الخطابات لتمسح الجروح ، وكأن القدر الذي بيده هذا الكرباج يتوقف عن ضرباته والمسجون يقرأ خطاباته . المسجون في وحدته أشبه بالمقعد المربوط في مقاعد المعوقين . وتجيء هذه الخطابات وتفك أسره ، وتوقفه على قدميه ، وتروي روحه الذابلة بماء سحري فتعيد اليها الحياة والجمال بضعة أيام .. ثم ينضب الماء السحري بعد أيام وتعود القيود والذبول . وأغاني الهجر وشعر البعاد والفراق يصبح لها في أذن المسجون معان غير التي كانت لها وهو يعيش في جنة الحرية . تماما كمنظر رغيف العيش ، انه يعني في نظر الجائع شيئا مختلفا عما يعني في نظر الشبعان . وانا أجد راحة في كتابة الرسائل وتهريبها خارج السجن . الرسالة التي أكتبها تفك بعض سلاسلي وقيودي . تحول الآهة الخرساء الى صرخة مسموعة ، أحسب أن أفواهنا المستغيثة لا يسمع أحد صوتها الا اذا كتبناها . أفكارنا

المشلولة لا تتحرك الا على الورق .. انا عندما أكتب الى أصدقائي اشعر أنني أزرع أحلاما يحصدونها بخيالهم . انني اتنفس فيهم . عندما لا اكتب أحس أنني مكتوم الانفاس .. أختنق واموت !

أقسى الآلام هي التي نكبتها ولا نطلقها . فأنا احس في كل رسالة انني أقول «آه» . أحيانا احاول أن أكتم الآهة في نفسي حتى لا أزعج من يحبونني وأحيانا أجد الالم قاسيا مبرحا فلا أستطيع الا أن أقول آه ! وأنا عندما أتلفت حولي وأرى المسجونين المقيدين في الاغلال . أرى على شفاههم المحرومة أشلاء من قبلات مضت عليها سنوات طويلة لم تتكرر .. فبعد سنوات تتباعد القبلات وتقل الزيارات حتى تنعدم . أرى في قسمات وجوههم جثثا من الاماني . الاماني الحلوة تموت في الزنزانة ، فالاماني كالزهور في حاجة الى شمس وماء وهواء لتتفتح . وفي الزنزانة لا تدخل الشمس ولا يدخل الهواء ولا يوجد الا ماء البول ! أرى في المسجونين حولي أشلاء سعادات . ضحايا . ضائعين . تائهين . مكبلين بالوحدة والقهر والذل والهوان . وامسك قلمي واكتب فأحس أنني وجدت نفسي . فأنا لا اكتب لأسعد الناس وانما لأسعد نفسي . فالكتابة عندي هي نوع من الانانية . في بعض الاحيان أحس أنني متعب فأمسك قلمي لأكتب فأستريح ، كأنني أضع رأسي على وسادة الأوهام .

زنزانتي لها نافذة صغيرة ، والخطابات التي تصلني من أصدقائي وأحبائي هي نوافذ جديدة . كلما كبر حجم الخطاب زادت مساحة الشباك . عندما أتسلم رسالة لا أشعر أنني كسيح .. احس أنني انطلق . كل خطاب يصلني في السجن هو أشبه بزيارة لمسجون لا يزوره أحد .. زائر يبقى معه بالليل والنهار .

في بعض الاحيان أحس أنني لست المسجون الوحيد في زنزانتي . عواطفي مسجونة في روحي . دموعي مسجونة في عيوني . أفكاري مسجونة في رأسي . أحلامي مسجونة في قيودي . وعندما يصلني خطاب من الذين أحبهم أحس كأن مفتاح باب الزنزانة يطلق سراح كل هؤلاء المسجونين !

أرى المسجونين وهم يتلهفون على الاستفسار عن خطاباتهم ، كأنهم غرقى يبحثون عن قشة يتعلقون بها . هذه الخطابات هي ضمادات يوقفون بها نزيف الدم من قلوبهم . هي النسمات تتسرب الى ارواحهم المخنوقة . هي شمس ربيع جميل تشرق فوق خريفهم المظلم ..

احيانا أقرأ خطاباتهم الساذجة .. تحوي مئات الاسماء . فيها جملة واحدة «فلان يسلم عليك ألف مليون سلام ، وفلانة تسلم عليك ألف مليون سلام» . لا شيء سوى هذا . ومع هذا يبدو على المسجون الأمي وهو يسمع زميله يقرأ له خطابه كأنه تلقى فعلا آلاف الملايين من السلامات !

في الخارج توجد تقاليد جميلة . هناك جمعيات لرعاية المسجونين تبحث عن كل مسجون لا يكتب له أحد . تبحث عن أشخاص يراسلونه ، ويزورونه ويقدمون له الهدايا ، ويشعرونه أنه محل رعاية واهتمام . آلام الوحدة والنسيان والاهمال أشد وأقسى من آلام السرطان ..

اننا في السجن لا نكتب دائما بأقلامنا . أحيانا نكتب بدمائنا وأعصابنا . قد لا تكون كتاباتنا صرير اقلام ، وانما صوت السلاسل في أيدينا وأرجلنا وأرواحنا . أحيانا نغضب على الذين نحبهم لأنهم لم يكتبوا لنا ، ونقسو عليهم في غضبنا فليعذرونا فان كتاباتنا ليست بأقلام الحبر في أيدينا ولكن بأفواه البنادق التي تحرسنا . نحن ننسى في وحدتنا وفي سجننا ان الزنزانات التي نحن فيها أوسع كثيرا من الزنزانات التي سجنوا أنفسهم فيها . اذا كنا نشكو فراشنا لأنه ليس وثيرا فهم لا يشكون مع أنهم ينامون كل ليلة على مسامير من الوحدة والحرمان واليأس والشقاء . انهم وهم يكتبون لنا بدموعهم يحاولون أن يبحثوا عن كلمات مفرحة راقصة يخفون بها هذه الدموع . الزهور التي يحملونها الينا في رسائلهم لنزين بها زنزاناتنا هي باقات زهور كانت موضوعة فوق قبور أحلامهم ، وغسلوا منها رائحة الموت لتحمل لنا عبير الحياة . كم رأيت أم مسجون تحرم نفسها من ضروريات للحياة لتجيء له بالسجائر ليدخنها . نحن لا نشعر بكل تضحيات الذين يحبوننا لأننا مسجونون في اقفاص انانيتنا . انا عندما أقرأ خطابات أهالي المسجونين

السياسيين الى أولادهم احس انني اسمع صوت بحة حزينة مخنوقة بالعبرات في أنغام كلمات راقصة .. اسمع أنينا أخرس في ضوضاء ضحكات مغتصبة . أراهم يتحدثون عن الصبر والتجلد والشجاعة وقوة الاحتمال ، وأرى بين الكلمات قلوبا مكسورة ، وهم يرون بصيص الأمل الذي صنعته أوهامهم يخبو ويموت ويتحول الى رماد .. انني عندما أقرأ كلمات هذه الرسائل لا أقرأ حروفها ، بل أحاول أن أنفذ الى أعماقها . فأرى فيها أشباح اليأس الأسود والعذاب والقهر وهي تطل من عباراتهم الوردية . ابتساماتهم مخضبة بدموعهم . أحلامهم تمشي متعثرة في سلاسل الحديد . خيالهم الواسع يصطدم بقفص الحقيقة الضيق فيختنق فيه . مهما يحاولون أن يخفوا أحزانهم فان أنينهم يظهر بين الحروف ! أنا لست أعرف ما هي الحكمة في أن تفتك الحكومة بأسرة المسجون السياسي وتطاردها . ترفت وتنقل وتحيل الى المعاش ! انها تخلق في البلد طبقة منبوذين ، وهي لا تعلم أن هذا الاضطهاد المستمر لا بد أن يؤدي الى الانفجار .

انني مدين بتحمل شظف الحياة ، في السجن وقسوتها الى أمي ! لقد عودتني أمي أن أرضى بكل أنواع الحياة ، وأعود نفسي على قبولها . ومن أجل هذا نمت في أعظم القصور وفي أفخر فنادق العالم ثم نمت على الاسفلت ولم أشعر بهوان الانتقال من الفراش الوثير الى الاسفلت . وعرفت الرؤساء والحكام ، وعرفت اللص والنشال وقاطع الطريق ، واختلط علي الامر حينا فلم أعرف أيهم هو قاطع الطريق ! وتناولت طعامي في أعظم مطاعم العالم ثم أكلت في السجن الفول المدمس المخلوط بالسوس والتراب ، وأسعدني طبق الفول كما أسعدني طبق «الفيزان» في مطعم مكسيم بباريس !

أصبحت الآن فقط أفهم لماذا كانت أمي تصر على أن آكل كل طعام تقدمه لي . ترفض أن أقول لها انني أحب هذا الصنف ولا أحب هذا الصنف . لقد جعلتني أحب الفول المدمس وأفضله ألف مرة على الديك الرومي ..

لعلها كانت تقرأ الغيب .

« أحذية الطغاة فوق أعناقنا » !

اول يونيو سنة ١٩٦٨

عزيزتي ..

لا اريد ان اثقل عليكم بالطلبات . انا أعرف ان الحالة المالية ليست على ما يرام . ولهذا أرجوك ألا ترسلي أي شيء الا بعد أن تتحسن الحالة المالية تماما . انني آسف اذ أضعكم في مثل هذه الازمات والمآزق . واحب أن تصارحوني بكل شيء ، ولا تتحملوا المتاعب وحدكم . انا أستطيع أن ادبر نفسي هنا . وأن أرتب حياتي على أي صورة . الشيء الذي يهمني والح فيه الا تربكوا أنفسكم أكثر مما ارتبكت حتى الآن . يظهر أن أحدا لا يتصور المتاعب التي يعيش فيها المسجون السياسي ولا المصاريف التي يضطر المسجون الى انفاقها . وقد رأيت أن أبدأ بالتوفير واقتصد في عدد السجائر التي ادخنها بل أقتصد في كل شيء حتى تمر الازمة .. وبعد أن تنتهي الأزمة يعود كل شيء كما كان .

أحمد الله ان الناس في داخل السجن يخدمونني لله . لو كانوا يعاملونني كأي مسجون آخر لكانت مصيبة المصائب ! قطعة الثلج التي ثمنها قرشان في الشارع تباع في داخل السجن بخمسين قرشا وأحيانا يصل ثمنها الى جنيه في اليوم الواحد ! كل مرة يدخل الطعام الى مسجون في السجن يكلفه ذلك بين الخمسين قرشا والجنيه ! كل باب يقف عليه جمرك . ولكي يمر الطعام على هذه الابواب العديدة يجب أن يدفع المسجون علبة سجائر بلمونت على كل باب . الذي يحمل الطعام يأخذ علبة سجائر ، والشاويش الذي يجيء مع الطعام يأخذ علبة سجائر . والشاويش الذي يفتح بوابة العنبر يأخذ علبة سجائر والشاويش الذي يفتح الزنزانة ليدخل الطعام يأخذ علبة سجائر .

والقهوة ممنوعة . الرجل الذي يصنع لك القهوة يأخذ علبة سجائر ، لأنه لو ضبط يصنع لك القهوة يوضع في التأديب ، وتمنع عنه الشمس والهواء لمدة ستة ايام . والذي يسخن لك الطعام يأخذ علبة سجائر ،

لأن الولعة جريمة ، يعاقب عليها ، فهو يأخذ هذا المبلغ الكبير تعويضا له عن الخطر الذي يتعرض له بتسخين الطعام . وفي كل يوم يهاجم الحراس الزنزانات ويستولون على ما لدى المسجونين من غاز أو آلات لتسخين الطعام . ويلقون الغاز على الارض ، ويدوسون «التاوتاو» بأقدامهم .

وفي كل يوم يبدلون ويغيرون غرف المسجونين . وعندما يضطر المسجون الى الانتقال الى زنزانة جديدة عليه أن يدفع عدة علب سجائر ليدهن بياض الجدران وينظف الزنزانة من الحشرات ، ويدفع علب سجائر أخرى ليركب النور الكهربائي ، ويدفع علب سجائر ليدق الرفوف على جدران الزنزانة ! وتتكرر عمليات التغيير والتبديل والنقل في الزنزانات ، لا يكاد يستقر المسجون في زنزانة حتى يصدر اليه أمر بالانتقال الى زنزانة أخرى ، فإذا أراد أن يحتفظ بزنزانته يجب أن يدفع سجائر ليستقر في هذه الزنزانة القديمة . ويجب أن يدفع المسجون علبتي سجائر للكهربائي شهريا ، فإذا لم يدفع الجزية قطع الكهربائي السلك فانقطع النور ، وبات المسجون في ظلام . والكهربائي يجد دائما سببا فنيا لانقطاع النور ، لا تستطيع أن تكتشفه أكبر لجنة فنية كهربائية متخصصة في استخراج الكهرباء من السد العالي !

والويل للمسجون الذي لا يدفع أتاوة للمسجون الذي يوزع الطعام . عدد السجائر التي يعطيها هي التي تفرق بين قطعة اللحم وقطعة العظم ! المسجون الذي لا يملك سجائر يموت جوعا ، ويصاب بالسل من قلة الطعام . ولا يستطيع المسجون أن يشكو من وزير التموين المكلف بتوزيع الطعام . فهذا المسجون هو مندوب أركان حرب الليمان ، وهو المكلف بأن يجيء له بأخبار المسجونين وأسرارهم .. ومن أجل ذلك الهدف الأسمى يباح له أن يجعل المسجونين يموتون جوعا ، في سبيل أن يعرف حضرة الضابط كل كلمة هايفة تحدث في العنبر ! واذا غضب وزير التموين على مسجون حرمه من الطعام ، ومن هنا يشتري المسجون نفسه بأن يدفع أتاوات يومية للمسجون الذي يوزع الطعام أو يسكت عن السرقة اليومية ، والمغالطة في توزيع الطعام .. وهكذا يكون نصيب المسجون من الطعام نصيب اليتيم من مأدبة اللئام !

ويجيء الطعام في جرادل . ويستعملون هذه الجرادل أحيانا للبول ولا يهمهم اذا وضعوا الطعام في جردل البول . ويصنعون الفول المدمس بالزيت . وما يكاد يصل جردل الفول المدمس الى العنبر حتى يجيء وزير تموين العنبر ، ويفرغ من الجردل كل ما فيه من زيت ويبيع الزيت للمسجونين القادرين ويوزع على باقي المسجونين المساكين التعساء الفول بغير زيت !

وينام المرضى على سراير ، فاذا لم يدفع المسجون المريض علبة سجائر لرئيس المرضين أو للممرض وجد نفسه نائما على الارض . ويجد الممرض دائما فتوى فنية قانونية طبية تقتضي سحب السرير من المسجون المريض الذي لم يدفع علبة السجائر .

ومن المناظر العجيبة ما يحدث عندما يموت أحد المسجونين في السجن . لا يكاد يلفظ النفس الأخير ، حتى يستخرج الممرض تذكرة علاجه ويضيف اليها عشرات الأدوية الغالية ، من كلور مايسين وبنسلين وفيتامينات ، وكلها موزعة ومقسمة بعناية على الأيام التي كان المسجون فيها مريضا . ويبلغ مجموعها عادة حوالى ثلاثمائة جنيه .. فلا تكاد تطلع على تذكرة علاج المسجون المتوفى حتى تبدي اعجابك بالاهتمام الشديد بالمسجونين المرضى ، في حين أن الذي حدث في الحقيقة هو أن أحدا لم يصرف للمسجون دواء واحداً بمليم واحد وهو على قيد الحياة ، وعندما مات قيدوا على حسابه جميع الادوية الغالية التي سرقها المرضون ، وبذلك يقيم المرضون فرحا بدل المأتم للمسجون الفقيد ، فان وفاته السعيدة سوف تؤدي الى أن تصبح جميع دفاتر السجن سليمة ، والعهدة كاملة ولائحة المخازن منفذة حرفيا !

وحدث في هذا الأسبوع أن تأخر بعض المرضى الذين ينامون على سراير في عنبر واحد الذي أقيم فيه عن دفع الجزية ، وصدر قرار بإخراجهم جميعا من المستشفى ، وأسرع خمسة منهم ودفعوا الجزية فأعيدت لهم السراير في الحال ، وفي اليوم التالي بدأت المفاوضات مع عدد آخر من الذين ذاقوا النوم على الأرض ، فدفعوا الجزية ، فتقرر ان يناموا على سراير من جديد .

ولا يستطيع الأطباء أن يفعلوا شيئا ليواجهوا علي بابا والأربعين حرامي . المرض الشاطر يربح أكثر من الجراح الممتاز . وهو أشبه بمأذون القرية الذي يستطيع بسهولة ، أن يحلل الحرام ويحرم الحلال ، ويجد من النصوص البلهاء والقواعد والسوابق مايبرر علبة السجائر التي أخذها ، أو يعاقب من امتنعوا عن دفع الجزية !

وبعض الشاويشية يقاسمون المسجون في كل شيء . بعض فقراء المسجونين يحملون جرادل بول المساجين وبرازهم من الزنزانات ، ويتقاضون سجائر في مقابل هذا العمل الشاق الذي يستدعي أن يصعدوا مئات الدرجات خلال أربعة أدوار ، وينزلوا أربعة أدوار عدة مرات في اليوم . وكان المفروض أن يستفيد هذا المسجون المسحوق من السجائر التي يحصل عليها ليشتري ما يحتاجه من طعام . ولكن الشاويش الشاطر يقاسم هذا المسجون البائس في السجائر القليلة التي يحصل عليها . فإذا لم يدفع الجزية ، حرمه من شرف خدمة الادوار ، وتركه في زنزانته يتضور جوعا . وكلما اشتد الغلاء في الخارج زاد بؤس المسجونين في الداخل . فالشاويش يتقاضى عادة فرق زيادة الأسعار ، فإذا ارتفع سعر السكر ثلاثة قروش يجب أن يدفع المسجون الجزية ثلاثة قروش حتى يوازن السجان ميزانيته !

أعتقد ان الصورة الصغيرة التي نراها في السجن هي مصغر الصورة الكبيرة لخارج السجن . نفس الفساد . نفس الظلم . نفس الاستغلال . نفس الفراعنة الصغار الذين يمتصون دم المسحوقين والضعفاء ويدوسون عليهم بأقدامهم .

الطغيان الكبير هو أشبه بمصنع للأحذية يصنع أحذية صغيرة تدوس على رقاب الضعفاء .

عصفور فوق نافذتي

٥ يونيو سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ..

رأيت عصفورا يبكي على نافذة زنزانتي . انها أول مرة تبدو فيها زقزقة العصافير كأنها دموع وبكاء . ترى هل أصبحت نافذة زنزانتي حائط مبكى جديدا للطيور تهرع اليه لتندب وتبكي وتصرخ وتصيح . ألم يكفني ان زنزانتي غارقة في دموع البائسين . تكاد تحترق من أشواقهم . تمتلىء بأحزانهم وأنّاتهم . كل المسجونين يجيئون الى زنزانتي ليبكوا فيها ، ليحملوا الي متاعبهم وآهاتهم وعذاباتهم كأنني أصبحت مخزنا لآلامهم . يفرغون عندي ما في قلوبهم من مآس ، وما في عيونهم من دموع ، وما في رؤوسهم من مصائب . يتركونني مع كل هذه العذابات وينصرفون كأنني مكلف أن أحمل على ظهري آلام البشر . كأنه لايكفيني بلائي وعذابي وشقائي . وتعودت الا أقفل قلبي أمام باك ، ولا أغلق أذني أمام صراخ مظلوم . انني أحاول أن أبيع الأماني للأشقياء وأبيع الأحلام لليائسين . أقبض دموعهم وأسلمهم أحلاما وآمالا وأماني عذابا ! أنا البنك المفلس الذي يقرض المأزومين . أنا المريض الذي يصف الدواء للمرضى والأطباء . وفي بعض الأحيان اخاف أن يضبطني هؤلاء الذين أبيعهم الأحلام ، ويكتشفوا أنني أبيع لهم الأوهام . أخشى أن يعلموا ان دوائي ليس ترياقا لبكائهم ، وإنما هو ذوب دموعهم ، أخشى أن يكتشفوا أنني أنصب عليهم وأحتال ، وأن شيكات الأحلام التي أعطيها لهم كلها بغير رصيد . ولكنهم يخرجون من زنزانتي سعداء ، كأنهم خلعوا عندي شقاءهم ، وارتدوا أثواب الأماني التي قدمتها اليهم . ومن حسن حظي أنهم لا ينظرون الى المرايا ، والا لعرفوا أنهم عراة !

ولكن ما الذي جاء بهذا العصفور الى نافذة زنزانتي ليبكي ؟ ولماذا

يبكي ؟ وضحكت أنه اختار شباك زنزانتي ، دون نوافذ الدنيا كلها ، ليذرف دموعه عندي . وازداد ضحكي !فالعصفور الطليق يبكي ، وأنا المسجون أضحك ! ما أغرب الدنيا .. على شفتي الحر دمعة ، وفي وجه الأسير ابتسامة !! هل العصفور يخدعني كما أخدعه ؟ هل يبكي ليعزيني ، كما أنا أضحك لأسرّي عنه ؟ هل يشقيه منظري مقيداً في الأسر ويسعدني منظره وهو منطلق في حياة الأحرار ! ولكن ما يدريني ان كان هذا العصفور حرا . كم من الذين لا قيود في أيديهم يشعرون بأغلال في قلوبهم ، وبسلاسل في أرواحهم . لعل هذا العصفور يشعر أن أحداً يطارده . والمطارد لا يشعر بالحرية ، أولعل العصفور يخاف من بندقية تصطاده ، والخائف يفقد حريته . ما أدراني أنه ليس مسجونا مثلي قادما من سجن أو في طريقه الى سجن ؟

وشعرت برغبة في أن أتحدث الى العصفور . ونحن المسجونين عندما تغلق علينا الأبواب نشعر برغبة شديدة في أن نتحدث . نتحدث الى الجدران . نتحدث الى القضبان . نتحدث الى الباب المغلق . نتحدث الى أنفسنا . ثم نكتشف أثناء الحديث اننا تحولنا الى جدران وقضبان وسلاسل ، قد لا تكون فينا صلابتها . ولكن فينا جمودها !

ولكن ماذا أقول للعصفور . ان في فمي ماء ساخنا . النار المشتعلة في نفسي تجعل لعابي يغلي ، فأقفل فمي ، حتى لا تخرج منه الحمم ، كما تخرج القذائف الساخنة من البركان . في فمي ماء الحنظل ، في حلقي مرارة الظلم ، أنفاس ساخنة كلعنات المظلومين . قلبي كالخرائب والأطلال فيه رائحة الهجر والترك والاهمال . كل كلمة من فمي ستخرج كرصاص مدفع رشاش ، كغازات خانقة حارقة ، كقنابل النابالم . فلأقفل فمي أيضا حتى لا يصاب العصفور المسكين ببعض « الرشاش » !

ورأيت العصفور يتطلع الي . هل رآني من قبل فأدهشه الفرق بين ما كنت واصبحت ؟ انه يتطلع الى شعر رأسي لعله يعد الشعرات البيضاء لعله تعب من عدها وإحصائها . فإذا تعب من الاحصاء ، فسوف يتعب أكثر ، إذا عرف ان كل شعرة بيضاء في رأسي تمثل عذابا

وتعذيبا . تمثل ضربة سوط ، أو طعنه خنجر تمثل تهمة ظالمة . أو حملة غاشمة . تمثل خيانة صديق أو نكران جميل من شخص خدمته . تمثل ليالي لم أذق فيها النوم ، وأياما لم أذق فيها الطعام . العصفور يتطلع الى تجاعيد وجهي . هل استطاع الزمن أن يكتب على وجهي كل مأساتي ؟ ام أن الرقابة شطبت كثيرا من الخطوط ، لو أن الزمن حفر في وجهي كل ما رأيت لتحول وجهي كله الى خطوط وحفر وتجاعيد . العصفور يحملق في عيني ، وكأنه يطل على قلبي . يبحث عن ذلك البريق الذي كان في عيني فلا يجده . وما العيون الا مرايا . تنطبع عليها ما تراه . هي الأخرى تلمع وتنطفيء وتنير وتظلم ، ترتسم فيها مواكب الظافرين وطوابير المقهورين . لعل العصفور يطل في عيني ليرى أعماقي . ليرى إنساناً مصلوبا بلا خطيئة ، مشنوقا بلا جريمة ، معلقا على مقصلة بغير ذنب ، مسجونا يجر سلاسله وقيوده . يعيش في بحر من الوحل والطين . في عالم مقلوب . نحن فيه الصاعدون الى الحضيض . الهابطون الى القباب . الراكعون واقفين ، والواقفون راكعين ! عالم يمشي على رأسه ، ويفكر بقدميه . عالم الصامتين في ضوضاء الخرس الذين يثرثرون . عالم من المنبوذين الحائرين ، المزقين الملعونين ، المغلوبين في غير معركة ، المدفونين على قيد الحياة !

هذا العصفور سييء الحظ . جاء الى دكاني بعد مواعيد العمل . بعد أن أغلقت باب زنزانتي وانصرف الزبائن . منذ دقائق فقط كنت أبيع الأمل بلا ثمن . وأبيع الاحلام بلا ثمن، وأبيع الزهور بلا ثمن وأبيع الشمس بلا ثمن . كنت أضمد جراح زملائي المسجونين الذين يستنجدون بالصيدلية التي فتحتها في قلبي أبيع مجانا بلسما لكل جرح ، ودواء لكل مرض . فهل بعت كل الأدوية التي عندي ولم يبق عندي دواء يشفيني ؟ أم أن أدويتي ومراهمي أعجز من أن تشفي مرضي العضال؟ غريب أن أخترع الأدوية المنومة للناس وأبقى وحدي ساهرا وأن أضع كفي على رؤوسهم لأخفف حرارتها ولا أجد كفا تمسح جروح روحي ، وأن أضع الضحكات فوق شفاههم ولا أجد بسمة أضعها في قلبي الحزين . جراح قلوبهم أحدثتها شكة دبوس وجراح

قلبي صنعتها طعنات خناجر . النزيف من الخارج يمكن أن يشفى ولكن النزيف من الداخل مستحيل الشفاء . ما أقسى أن تشرب القلق والأرق وتفرز الاطمئنان والنوم . ما أقسى أن تعيش فى كهف وتفكر بعقلية القصور . أن تضع أصابعك في أذانك تسدها لتسمع ! أن تغلق عينيك لترى الحقيقة ! أن تدخل لسانك في فمك لتتكلم . ما أقسى ان توزع كؤوس الأحلام على الشاربين وانت أكثر منهم عطشا تسكرهم خمرك وتجعلك تفيق في وقت أنت في أشد الحاجة أن تخدر روحك حتى لا تشعر بما فيها من آلام . قلبي سجين بغير قضبان . مقيد دون سلاسل . أبوابه مغلقة . نوافذه موصدة . ظلامه دامس . بين وقت وآخر أشعر أنهم نزعوا قلبي وأخذوه الى غرف التعذيب ، وصلبوه ، وجلدوه ، وعذبوه ، وضربوه بالسياط . زاد عدد الجروح في قلبي حتى أصبحت اتصور أن قلبي كله أصبح جرحا . ومع ذلك فإن وظيفتي في السجن أن أضمد جروح المسجونين .

العصفور حسن الحظ لأنه تأخر في قدومه عندي ساعة . لولا ذلك لرأى صديقي السجين رقم واحد . دخل زنزانتي وهو ممزق مقطع الأوصال كأنه دخل زنزانتي على دفعات . كأنه قطع ممزقة وأعضاء متفرقة وأوصال قطعت بالسكين . وظيفتي أن أحاول أن أعيد هذه البقايا الى بشر جديد . لقد تزوج لمدة شهر ونصف شهر ثم زجوا به في السجن . ومضى على فراقهما ثلاث سنوات . تكتب هي اليه كل يوم ويكتب هو اليها كل يوم ثم مضى شهر ولم تكتب له خطابا واحدا وجاء موعد الزيارة فلم تحضر . يا للخائنة ! انها لم تصمد لضربات الزمن حنثت في « أيمانها » . زاده يأكله غيره . الوردة التي زرعها وتعهدها قطعها الغريب . أخذ الغريب الرحيق وترك له شوك العذاب . كان يتحدث وكأن لعنات الدنيا انصبت عليه . منبوذ . محطم . مغلوب . مقهور !

كنت أشعر في قرارة نفسي أنه يظلم زوجته . يتصور أن الشهر ونصف الشهر زواجا تكفي المرأة زادا تعيش عليه ثلاث سنوات من العذاب . لو أن قبلاته قسمت على سنوات الفراق لما أصابها قبلة واحدة

كل اسبوع . كم نقسو عندما نطلب من المحرومين أن يعيشوا سنوات على ذكرى دقائق شبعوا فيها ! نحن ننسى أن الألم يترك فينا أثرا أكثر مما تترك السعادة . الفقير يذكر طوال حياته تفاصيل فقره وجوعه وحرمانه بينما الغني لا يكاد يذكر ما استمتع به من مآدب شهية وحياة باذخة ! أردت أن أقول له يكفي هذه المرأة ان عاشت ثلاث سنوات شريدة طريدة مهجورة مهزومة تفكر طوال لياليها في رجل مسجون الى الأبد . تحتضن الورق بدلا من اللحم . تحاول أن تخدع نفسها بأن حرارة الانفاس يمكن أن تستغني عنها بحرارة الكلمات . الناس كالمعادن بعضها لا يتحمل النار الا دقائق ثم ينصهر وبعضها يصمد اياما ، واقلها شهورا واندرها ثلاث سنوات ثم ينصهر وبعضها يصمد اياما واقلها شهورا ، واندرها ثلاث سنوات ! ثلاث سنوات انتظار أيها الظالم ! كم تريد منها أن تنتظر اكثر ! ولكن لم أرض أن أفجع صاحبي بهذه الآراء بل قلت له إن الغائب حجته معه وإنه لا بد أن هناك من الأسباب الوجيهة الهامة ما جعلها تتوقف عن الكتابة . الحب لا يموت بالسكتة القلبية . يموت بالشيخوخة عادة . غير معقول أن تكتب لك زوجتك خطابا كل يوم ثم تتوقف فجأة . الذي يحدث دائما أن تبدأ وتكتب كل يومين ثم كل أسبوع ، ثم كل شهر ثم تنقطع عن الكتابة . أنت تشكو من أنك حرمت من محاكمة عادلة لم يسمع أحد دفاعك ، كيف تجيء اليوم وتظلم زوجتك كما ظلموك وتحاكمها غيابيا وتحكم عليها بغير أن تسمع كلمة دفاع ؟ عليك أن تختلق لها الأعذار اذا لم تقدم لك الاعذار والمبررات .

ولكن صاحبي لم يستمع لنصحي ، وكتب الى زوجته خطابا مليئا بالاتهامات انها غادرة كالزمان ، خائنة كالأيام ، متقلبة كالأحداث ، جبارة كالحكام !

وجاء الرد منها يقول «لم أكتب لك لأنني لا أملك ثمن طابع البريد . لم أزرك في السجن لأنني لا أملك أجر الركوب . لولا مرضي لمشيت على قدمي ثلاث ساعات حتى أصل من بيتي الى سجنك . انني أخفيت عنك عذابي حتى لا أزيد عذابك . بعت كل ما في البيت لآكل وأكتب اليك ولأزورك مرة

كل شهر . بقيت معي بضعة قروش وكنت أفضل الا أشتري رغيف الخبز لكي أشتري طابع البريد ، وأخفيت عنك عدة مرات أنني زرتك عدة مرات مشيا على الاقدام .. كنت أغادر بيتي في عابدين في الفجر فأصل الى ليمان طرة عند الظهر وأقف عند بوابة السجن أمسح حذائي وأجفف عرقي وأخفي تعبي تحت المكياج الذي استعرته من جارتي لكيلا ترى ما تحت البودرة من شقاء . لم يبق جار لي لم أقترض منه ولا صديق لك لم يهرب مني . ياحبيبي ! ان الذي خانك ليس قلبي وإنما هو طابع البريد الذي لا أجد ثمنه .

***

وخرج زميلي المسجون الأول ليدخل المسجون الثاني زنزانتي وقد كان له قبل أن يدخل الى السجن زوجة وعشيقة . ما كادت تحكم عليه المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة حتى أنكرته الزوجة وتخلت عنه ووقفت العشيقة بجانبه كانت العاشقة تبيع نفسها كل ليلة لتوفر لعشيقها السجين السجائر التي يدخنها ، والأطعمة التي يأكلها والدواء الذي يحتاج اليه ..

ولم يعجب الزوجة أن تصمد الغانية وتنهار هي فأبلغت الزوجة سلطات الأمن ضد العشيقة بأنها تقوم بنشاط سياسي مشبوه . وزج بالعشيقة الى السجن . وانقطع الطعام وانقطعت السجائر وانقطع الدواء . وانهارت صحة المسجون العاشق المريض ، ونقل بين الحياة والموت الى مستشفى الحميات . وهناك عرف ممرضة ، وأحبته ، وبدأت تقتطع من مرتبها البسيط ثمن سجائره وطعامه ودوائه . وشفي العاشق وعاد الينا في الليمان من جديد .. وخرجت الغانية من سجنها ، وعادت تبيع نفسها من أجل أن تشتري الدواء للسجين المريض بأمراض أخرى غير الحمى .. ووبخ الزوجة ضميرها فقررت أن تعود وتقف الى جوار زوجها ووالد أولادها . واستمرت الممرضة تحرم نفسها من ضرورات الحياة لترسل له كل شهر مبلغا على السجن !

وكان العاشق الدون جوان يكاتب الثلاث معا ، ويوهم كل واحدة منهن أنها الوحيدة التي وقفت بجواره في محنته . واستطاع حمدي أن

يقسم الزيارات على العاشقات الثلاث ، وأفهم كل واحدة منهن أن الزيارة أصبحت مرة واحدة كل ثلاثة شهور لا مرة واحدة كل شهر .. وصدقت العاشقات الثلاث علاقة العاشق المسجون بهن جميعا .

وأسقط في يد العاشق وهرول حمدي الى زنزانتي يسألني ماذا يفعل ازاء هذه الكارثة التي حلت به ؟ عليه الآن أن يختار بين الثلاث . هل يختار الغانية أو الممرضة أو زوجته السابقة أم أولاده ؟

قلت له ان أي شخص غيري ستسأله سيقول لك أن تختار أم أولادك . ولكني لا أقولها فالمرأة التي تخلت بالأمس سوف تتخلى عنك غدا . إنها لا تقف بجوارك من أجلك وإنما لتنتقم من كل امرأة أخرى وقفت الى جانبك . وأحب أن تعلم انني لا أختار لنفسي وإنما أختار لك . وأعتقد أن الممرضة لن تنفعك وعلى الأصح لن تنفعها ، واجبك أن تتركها لتعيش حياتها وهي في حاجة الى هذه القروش التي ترسلها لك كل شهر . ولهذا فإنني اختار لك الغانية . لأنها ضحت من أجلك أكثر مما ضحت الزوجة والممرضة ، لأنها دخلت السجن بسببك ، لأنها عادت اليك بعد خروجها من السجن وقد كان يكفيها انها فعلت لك كل ما فعلت حتى سجنت من أجلك .

ولست أعرف هل قبل حمدي نصيحتي أم لا ؟

وقال أحد زملائنا ان حمدي سيختار من تحول له مبلغا أكبر .

وضحك حمدي وقال انه قرر أن يحاول الاحتفاظ بالثلاث معا !

وخبرتي به كدون جوان قدير تجعلني أعتقد أنه سوف يستطيع ذلك .

***

ثم دخل المسجون الثالث وقد تقوس ظهره ، يحمل همومه على كتفيه . وذكر أنه تزوج وقبض عليه وهو في شهر العسل ، وتعرض لتعذيب لا يطيقه بشر ، واضطر ان يعترف كذبا على زوج شقيقة زوجته وعلى شقيق زوجته أنهم شركاؤه في المؤامرة المزعومة !

وهاجمته اسرة زوجته لأنه أعترف على أولادها من وطأة التعذيب وبهذا خرب البيت كله ! وثارت أمه على أسرة عروسه وطردتها من البيت

لأنها جاءت وجاء النحس معها . وأنه لولا شقيقها وزوج شقيقتها لما حكم على ابنها بالسجن المؤبد . وأرسلت الأم الى ولدها المسجون تقول له «إما أنا .. وإما زوجتك» .. وأرسلت الزوجة تقول له «إما أنا .. وإما أمك» ..

وجاء زميلي المسجون الثالث يسألني ماذا يفعل ؟ هو يحب زوجته ويحب أمه . لا يريد أن يتخلى عن أمه ولا يريد أن يتخلى عن زوجته . وأنا بطبيعتي أقف بجوار الأم في كل مشكلة دون أن أفكر . هذه نقطة ضعف فيّ . قلبي هو الذي يفكر في أي مشكلة فيها أم .

وقرأت خطاب الزوجة التعسة وهي تصف كيف أنها تعيش الآن فى بيت أمها فى جو عدائي لزوجها ، وهي ممزقة بين شقيقتها وبين زوجها . حائرة بين بيت عاشت فيه طوال عمرها ، وبيت عاشت فيه أياما . ثم هي فوجئت بجنين في بطنها . لا أحد يريده ! والزوج المسكين لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا عن بيته ، ولا عن الجنين الذي في بطن زوجته . وهو يرى بيته يتهدم ولا يستطيع أن يمد يده ليمنع المعاول التي تهدمه . ولقد نصحته أن يؤجل قراره . وقد يستطيع الزمن أن يمحو الكراهية من قلب أمه . قد يستطيع الجنين عندما يولد أن يجمع بين الأسرتين المتنافرتين . قد تشعر الزوجة أنها لا تستطيع أن تصبر أكثر مما صبرت وتطلب الطلاق . أو تصمد أمام الضربات فتستحق أن تقف بجوارها . الوقت هو الذي يصدر القرار ولست أنت .

أنظمة السجن في بلادنا لا تحكم على المخطىء وحده . انها تعاقب الأسرة كلها .. تتفنن في تعذيبها وتمزيقها وتشريدها . تقطع العلاقة بين رب الأسرة وأفرادها ، وتتركهم معلقين من أرجلهم في الهواء . النظام الذي منع المسجونين السياسيين ثلاث سنوات من أن يكتبوا خطابا الى أفراد أسرهم ، أو يتلقوا منهم خطابات الا بطريق التهريب ! النظام الذي منع المسجونين السياسيين ثلاث سنوات من لقاء زوجاتهم وأولادهم .. النظام الذي يجعل المسجون يقابل أسرته لمدة دقائق وهو محشور فى قفص فيه عشرات المسجونين يتكلمون في وقت واحد ! هذا النظام يحطم الأسر ، ويمزق العلاقات الانسانية ، ويشرد الأطفال

الابرياء ، يعهر الزوجات ويخرب البيوت ، فالحكم الذي يصدر لم يعد حكما ضد فرد واحد ، انما هو ضد الأسرة كلها . وهذا عودة الى شريعة الغاب أيام كانت تعذب القرية كلها بذنب فرد واحد من أفرادها !

وفجأة طار العصفور من نافذة زنزانتي .

لعل آرائي لم تعجبه ، لعله شعر أن هذه الآراء مسجونة مثلي ، مقيدة مثلي بالسلاسل والاغلال . أو لعله ضاق بالآهات والزفرات والعبرات في زنزانتي فطار يبحث عن نافذة قوم أحرار .

البحث عن نوبتجي للدولة !

٢٥ يونيو ١٩٦٨

اخي العزيز

قلت لك ان العملة المستعملة في السجن هي علبة السجاير البلمونت . وهي عملة صعبة مثل الدولار الأمريكي أو المارك الألماني أو الفرنك السويسري . وثمن علبة السجاير يرتفع وينخفض طبقا لبورصة خاصة . فهي تنخفض في أيام فتح كانتين السجن وترتفع عند اغلاق الكانتين . وفي السجن بنوك . بعض المسجونين تخصصوا في إقراض علب السجاير « بالفايظ » ، فهو يعطيك علبة سجاير اليوم ، ويأخذ بعد اسبوع أو أسبوعين علبة ونصف علبة أو علبتين . ويوجد في السجن كما يوجد في الحياة نصابون ، يقترضون السجائر من المسجون ، ولا يعيدون ما يقترضون ، وكلما علت مراكزهم في حياتهم قبل السجن زادت عمليات النصب والاحتيال . والعجيب أن الفقراء والجهلاء والمحتاجين لا ينصبون ، وانما الذين تخصصوا في النصب مسجونون من أسر طيبة ومن القادرين . وكثيرا ما تشتري هنا علبة سجائر ، وبعد أن تفتحها لا تجد فيها سيجارة واحدة ، فقد حشيت العلبة ورقا وأغلقت بمهارة بحيث تخدع أي عين خبيرة . وحدث لي هذه الحادثة أخيرا . وعندما فوجئت بها أغرقت في الضحك على خيبتي .

امضيت أياما في تعاسة لا حد لها . المسجون النوبتجي الذي ينظف زنزانتي ويحمل جردل البول ويجيء لي بجردل ماء الشرب نقلوه الى عنبر آخر لأنه رفض أن يكون جاسوسا علي ! كانت له عيوب كثيرة ، ولكنني تعودت عليه ، فأنا أكره التغيير والتبديل في الذين يخدمونني ، وجربت مسجونين آخرين . وكان أحدهم قذرا ، حتى عندما تراه يحمل جردل البول تتساءل من منهما جردل البول ! واذا حمل الطبق بين يديه أغمي عليك وعدلت عن تناول أي طعام . وعندما يدخل الزنزانة لينظفها يحمل اليها كميات لا حد لها من البق والذباب والصراصير والناموس حتى

نحسبه جمعية الحشرات « بنصبها وفصبها » . وهو لا يفهم أي شيء ، تطلب علبة السجائر فيجيء لك بالحذاء ، وتطلب علبة كبريت فيحضر لك صابونة ، وتطلب كوب ماء فيجيء لك بجردل البول . وكنت أتصور أن هذه القذارة نتيجة الحرمان ، وعندما أعطيته سجائر ليستحم وليشتري ملابس جديدة أخذها واشترى قطعة حشيش ! ورفض أن يقتنع بأن النظافة من الايمان ، وهو يعتبر أن الاستحمام وقاحة وقلة أدب لأنه يضطر الى خلع ملابسه أمام الناس والحمامات في السجن جماعية ، ولهذا فهو لا يستحم الا في الأعياد الرسمية !

واستقال النوبتجي احتجاجا على تدخلي بين البصلة وقشرتها وإصراري على أنه لا بد أن يستحم مرة كل يوم ! وكان النوبتجي الثاني قاطع طريق ، لا يدخل الزنزانة الا ويخرج منها وقد سرق شيئا وهو لا يفرق بين الرخيص والثمين . يسرق الجريدة ، وهو لا يقرأ ولا يكتب . ويسرق دواء السكر وهو ليس مريضا بالسكر . وفي خلال ٢٤ ساعة اكتشفت أنه سرق كل شيء في الزنزانة ولم يبق فيها سواي . ولما كنت نصحتني بأن أحرص على نفسي ، فقد رأيت أن أستغني عنه حتى لا يسرقني أنا أيضا !

والنوبتجي الثالث كان يعمل في زاوية العميان . وهو يصطدم بكل شيء في الزنزانة ، ولا يكاد يدخل الزنزانة حتى يقلب كل ما فيها ، الكرسي يقع . الطبق يقع حتى السرير نفسه يقع أيضا . ولكي أتخلص من هذه « الواقعة السودة » تخلصت منه أيضا !

وإذا بمسجون سياسي حاصل على شهادة كلية الآداب يعرض أن يقوم بخدمتي ، وخجلت أن يكون النوبتجي الذي يخدمني حامل شهادة عليا ، ولكنه أصر على طلبه ، ووجدته شابا متعلما ممتازا أمينا فجعلته سكرتيري الخاص ، واخترت فلاحا من الصعيد ليكون النوبتجي وهو قاتل ولكنه يخاف من خياله . الحكم عليه يقول انه مجرم أثيم وحقيقته أنه مظلوم بريء . كان يعمل خادما عند عمدة ثري ، وأراد العمدة أن يتخلص من خصم له فأطلق عليه الرصاص وقتله . واتفق مع نجيب على أن يعترف بأنه القاتل في مقابل أن يدفع لأسرته ثلاثة جنيهات كل شهر .

وقبل نجيب ان يحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لتأخذ أسرته ثلاثة جنيهات كل شهر ! وهو يتصور انه عقد صفقة رابحة . أسرته تأكل بالجنيهات الثلاثة وهو يأكل مجانا في السجن ، وفي السجن تجد كثيرا من هذا النوع من المتبرعين بأنهم ارتكبوا جرائم لم يرتكبوها ، أو قتلوا اشخاصا لم يقتلوهم ولم يعرفوهم !

تنص لائحة السجن على أن المستشفى يصرف للمسجون المريض بالسكر ربع فرخة .. ولما كانت عين الحكومة بصيرة ويدها قصيرة ، فإنها استبدلت بالفراخ البيض ، وهي تصرف لنا الآن ١١ بيضة كل اسبوع .. وأفاجأ كل مرة بأن عشر بيضات فاسدة وبيضة واحدة طيبة ، ويقول المرض ان حظي من السماء أن وجدت بيضة جيدة من ١١ بيضة ، وأن غيري من المسجونين غير المحظوظين لم يجدوا بيضة واحدة جيدة ! ويظهر أن السر في ذلك أن البيض يصرف لنا بدل الفراخ ولهذا يحرص بائع البيض على أن يضع كتكوتا في كل بيضة !

وأنا أستطيع وأنا جالس في زنزانتي أن أعرف حالة الدولة في الخارج ! الظلم الذي أراه هنا . الاستبداد . السرقة . الرشوة . استغلال النفوذ . المحسوبية . الرغبة في اذلال الناس . تحكم القوي في الضعيف . الطلاء الخارجي الذي يخفي الخرائب الداخلية . النهب والتهليب . كل هذه صور مصغرة لما يحدث خارج السجن . أنا أرى بلدي في داخل سجن ، أؤمن أن القيود هي التي تولد المخالفات . الأنظمة الدكتاتورية هي التي تقتل شخصية الأفراد وتحولهم إلى قطيع . لقد مضى الآن أكثر من عام على الهزيمة ولم يحدث في مصر أي شيء يدل على أننا تقدمنا شبرا واحدا . لم نستطع أن نحرر شبرا واحدا من أرضنا المحتلة ، لم نستطع أن نحطم سلسلة واحدة ولا قيدا واحدا من الاغلال المقيد بها هذا الشعب . مازلنا نحارب بالكلام وبالشعارات . لم يحدث في التاريخ أن دولة كبيرة قامت على الشتائم والسباب .. من يقرأ صحفنا يشعر اننا لم نتعلم شيئا ! مازالت الصحافة مكممة ، والرأي الآخر محجوبا عن الناس . مازلنا نحاول الانتصار بعقلية الهزيمة وأسلحة الهزيمة ورجال الهزيمة !

ان الانباء التي تجيء الينا من خارج السجن عن حالة البلد مروعة . عملية بناء القوات المسلحة سوف تحتاج إلى بضع سنوات . الروس يعتقدون أن استمرار حالة اللاحرب واللاسلم سوف يؤدي الى قيام حكم شيوعي في مصر . الامريكان يعتقدون أنه لن تقوم لنا قائمة . وأن هزيمتنا أبدية .. الدولة يهمها أن يدافع الجيش عنها ، ثم بعد ذلك يدافع عن البلد .. لا يهم أن العدو يحتل هذه المساحة الضخمة من أرض مصر ، مادام حكامنا يحتلون مقاعدهم ، الإذاعة تنشر انتصارات وهمية ومعارك خرافية . الشعب أصيب بأزمة عدم تصديق . عندما اكتشف الخديعة التي كان يعيش فيها أصبح لا يصدق أي شيء ولا يثق بأي شيء !

الدولة في حاجة الى « نوبتجي » يتولى تنظيفها .. يتولى القضاء على ما فيها من حشرات وصراصير وذباب ..

فلنفتح النوافذ والأبواب .. لتختفي كل الصراصير ... والحشرات !

ســـــر الملك

٢٧ يونيو سنة ١٩٦٨

اخي العزيز

انني متشوق لأن أقرأ في يوم من الأيام كتاب هيوماكلين عن فاروق . وأنا أوافق على وجهة نظره التي نقلتها عنه الصحف البريطانية التي لخصت الكتاب الجديد بأن الملك السابق كان ضعيفا جنسيا ، وأن هذه كانت عقدة حياته . وكان الملك السابق بحكم نشأته بين خدمه المصريين والايطاليين يعتقد ما يعتقدون بأن قيمة الرجل في فحولته وقوته جنسيا . وكان كل واحد منهم يعود من بيته الى القصر ويتفاخر أمام الأمير الصغير بالليلة الحمراء التي أمضاها بين ذراعي عشيقته أو زوجته .

وكان الأمير الصغير يبهر بما يسمع ، ويحاول أن تكون له علاقات مع الكلفاوات من خادمات القصر فيفشل .

وكان هذا الفشل ينغص عليه حياته ، وأصبح يحاول أن يعوض هذا النقص فيقوم باستعراضات كاذبة ، ليظهر أمام الناس أنه زير نساء فتاك ، وأنه دون جوان لا مثيل له ، وأنه قاهر النساء الذي يستبدل كل ليلة امرأة جديدة .. وكان يخترع القصص عن مغامرات غرامية لم تحدث ، وعن انتصارات مع نساء لم تحدث .

وكان يتعمد ان يظهر في المجتمعات العامة في صحبة نساء جميلات ، ويتعمد ان يغازلهن أمام الموجودين ، ويضحك معهن بصوت عال لافت للنظر ، ليوهم الناس انهن عشيقاته ومحظياته ، ثم يتعمد أن يظهر أمام الناس وكأنه يصحب الواحدة منهن إلى بيتها .

ولكن الذي يحدث عادة أن يودع الملك الدون جوان المرأة الفاتنة أمام بيتها ، ولا يصعد ابدا الى مخدعها ! . ثم يعود ادراجه يحكي لخدمه وأخصّائه تفاصيل عن مغامراته وبطولاته في مخادع النساء !

وكان خدمه الايطاليون يتظاهرون بأنهم يصدقونه ، ويتغامزون عليه

فيما بينهم . فهم يعرفون أن مأساته انه أضعف كثيرا جدا من أي شاب في عمره .

وقد روى لي أحمد حسنين باشا الذي كان رائده ، ومن أقرب الناس اليه انه بعد أن تزوج الملك فاروق من الملكة فريدة كان يسمع من بعض قريبات الملكة ان الملك يخون عروسه كل ليلة ..

وكان حسنين يكذب هذه الاشاعات ، فكانت السيدات يقلن له ان الملك نفسه اعترف للملكة بهذه العلاقات بكل تفاصيلها !

وكان حسنين يقول ان أي زوج يخون زوجته لا يذهب اليها كل ليلة ويعترف لها بخيانته الزوجية ، بل هو يتعمد اخفاء هذه الخيانات ، ولكن الملك كان يدعي هذه العلاقات المزعومة ، ويؤلف هذه القصص المختلقة عن غرامياته ، ويرويها بكل تفاصيلها للملكة ليعتذر عن عدم قيامه بواجباته الزوجية ، وحتى لا تعرف الملكة فريدة أنه ضعيف فتعيره بهذا الضعف وتحتقره وهو يعتقد ان الرجل المحترم هو الرجل الفحل ذو العلاقات الغرامية المتعددة ..

وقال لي حسنين باشا ان الملك كان يروج هذه الاشاعات الكاذبة عن صديقات الملكة ، فتصدق الملكة الصغيرة السن العديمة التجارب هذه الأكاذيب وتقطع علاقتها بصديقاتها ، وتصدر أوامر بمنع دخولهن القصر ، وتتناثر الاقوال عن اتهامات الملكة لصديقاتها ، فيعجب الناس لأن الملكة تظلم صديقاتها بلا دليل . بينما الملكة هي المظلومة لأن زوجها الملك هو الذي يعترف لها بأنه ارتكب الخطيئة مع الاميرة فلانه أو النبيلة علانة !

وعندما تواترت هذه الاشاعات بين الناس وترددت ، وعندما كان يقول الناس ان الملك لم يترك زوجة كبير الا واغتصبها ، ولا توجد سيدة مجتمع الا وبينها وبين الملك علاقات غرامية - كانت هذه الاخبار تسعده وكأنها أخبار فتوحات حربية وانتصارات سياسية .

وقد حدثني كريم ثابت باشا مستشاره الصحفي واقرب رجال حاشيته اليه انه ذات مرة وصله تقرير يقول فيه صاحبه ان الوفديين يشيعون في كل مكان انه زير نساء وانه يستبدل عشيقاته كما يستبدل

جواربه ، وأنه لا يشبع من النساء وأنه مثل جده الخديوي اسماعيل لا يفرق بين الملكة والخادمة .

وتصور كريم ان هذا التقرير سوف يزيد من عداوة الملك للوفديين ، وكان كريم يعمل على تقريبهم من القصر وانتظر كريم ثابت ان يثور الملك ، وإذا بفاروق يقرأ التقرير وهو يهتز طربا ، ويهز رأسه فخرا ، ويعرض التقرير على خدمه مباهيا مزهوا ..

ثم قال كريم ان الملك التفت نحوه فجأة وقال :

تعرف يا كريم الوفديين دول ناس طيبين . ويجب أن ندخلهم في وزارة قومية !

وذكر كريم ان هذا التقرير الذي كتبه مفتش في الداخلية من أشد خصوم الوفد كان سببا مباشرا من أسباب ادخال الوفديين في وزارة حسين سري الائتلافية بعد أن كان فاروق لا يطيق ذكر اسمائهم !

وهذه الرواية تفسر حرص الملك فاروق على أن يظهر دائما في المنتديات العامة برفقة سيدات جميلات أنيقات ، ولم يحدث مرة واحدة أن قابل امرأة في قصر عابدين أو قصر القبة أو قصر رأس التين أو قصر المنتزه ، وانما يصحبها إلى ملهى الاوبرج بشارع الهرم أو نادي السيارات أو نادي الصيد في القاهرة أو نادي الصيد في الاسكندرية .

ولقد عشق الملك نساء كثيرات وأحب ، وتدله في الحب ، ولكن ما ذاع وشاع من أنه فارس مغوار في ميدان الحب والغرام ينصب غالبا على الحب الافلاطوني الذي كان هو يشيعه في كل مكان أنه حب دنس فاجر وأنه يرتكب الخطيئة كل يوم عدة مرات . وكان معه دائما شهود من خدمه الايطاليين يشهدون له شهادة الزور التي يحب أن يسمعها بأنه كازنوفا زمانه .. وفالنتينو عصره !

ومن الغريب ان زوجته الملكة فريدة صدقت أكاذيبه ، ونظرا لحداثة سنها تصرفت على ضوء هذه الاكاذيب ، والاعترافات الخيالية . ولو كانت أكبر سنا لاكتشفت دوافعها ، وعرفت انها لا أساس لها من الصحة ، ولما أصرت على طلب الطلاق من الملك . ومما يستحق الذكر أنني كتبت سلسلة مقالات عن غراميات فاروق نشرتها في الأخبار وأخبار

اليوم . وكتبت المعلومات التي عندي عن ضعف فاروق الجنسي ، وجاء الرقيب وشطب هذه الفقرات وقال لي :

من مصلحة الثورة أن يقال ان الملك فاروق كان فاتن النساء ، وكان رجلا فتاكا ، وفحلا مغوارا ، له كل ليلة محظية ، وذلك حتى يكرهه الناس .

وعبثا حاولت اقناع الرقيب ان هناك أشياء كثيرة جدا تجعل الناس تكره الملك السابق غير فحولته وقوته الجنسية المزعومة !

التليفزيون القاتل !

٣٠ يونيو ١٩٦٨

اخي العزيز

أعيش هنا قصص المسجونين . انها دوامة من العواطف البشرية قصص الذين يتحاورون بغير حوار . يتكلمون بغير شفاه . يصرخون بغير صوت . ينزفون بغير أن يسقط منهم الدم . شخصيات تبحث عن مؤلف . ويوم يدخل السجن كاتب قصة لن يشكو من قلة موضوعات القصص والروايات . كل واحد من هؤلاء الالوف من المسجونين هو قصة . أعجب ما في القصة ان صاحبها لا يعرف كيف يرويها . فهو يحذف منها ويضيف اليها . يحذف منها ما يتصور انه يدينه ، ويضيف ما يعتقد انه يبرئه . ولو روى القصة كما هي لكانت رائعة .

هذه قصة عبده المسجون معي .. ترك زوجته وثلاثة أطفال . كان يتلقى من زوجته كل أسبوع خطابا يفيض بالحب والشوق والحنين . كانت هذه الخطابات هي المناديل التي تجفف دموعه ، وهي المراهم التي تضمد جراحه ، وهي الشمعة الوحيدة التي بقيت مضيئة في ظلام حياته . كان ينتظر هذه الخطابات كأنه ينتظر لقاء حبيب . يعيش مع كل خطاب الى أن يصل اليه خطاب تال . يجمع الخطابات بعضها فوق بعض ، ويخفيها تحت رأسه ، وينام في زنزانته وهو يحلم بكلمات الخطابات الساذجة ، التي تبدو في أذنيه أجمل وأروع وأبلغ ما سطر العشاق . وكانت زوجته وهيبة لا تعرف القراءة والكتابة ، ولكنها كانت تملي خطاباتها على صراف القرية وهو أعز اصدقائه . وكان الصراف الصديق يلبي رغبتها ، ويدون كلمات وهيبة الساذجة ويحولها إلى جمل كالاغاني وعبارات كالموسيقى . وكان السجين عبده سعيدا بوفاء صديقه ، وبأنه يترك أعماله الكثيرة ليكتب له ما تمليه وهيبة من لهفة وشوق وحنين لعبده . وكان عبده يصعد الجبل ، ويكسر الأحجار ،

ويؤدي عقوبة الاشغال الشاقة ، فإذا انهكه العمل المضني سرح في خطابات وهيبة . وأخرج آخر خطاب من جيبه ، وراح يتغفل الشاويش ويقرأ خطاب وهيبة وكأنه يجفف عرقه . كأن الخطاب هو مياه كولونيا يرشها على وجهه ، فتبعث فيه النشاط ، وتنسيه قسوة حرارة الجبل وقسوة أحجار الجبل . كانت أشبه بالكمادات يضعها على تسلخات أصابعه التي جعلتها الفأس الغليظة تتحول إلى شقوق . انه لا يندم لأنه قتل ! ارتكب الجريمة من أجل وهيبة . هذه المرأة الوفية تساوي أن يقتل من أجلها كل سكان القرية . عاش سنوات يسمع أن في بيت العمدة تليفزيون . زوجة العمدة تجلس أمام التليفزيون طول الليل والنهار . ترى القاهرة وهي جالسة في أبو قرقاص . تسمع أم كلثوم وهي تغني في باريس . ترى المسرحيات وتشهد الافلام ، وتروي لزوجات الفلاحين الاعاجيب التي تراها على الشاشة . مرة واحدة دعت زوجة العمدة وهيبة لتشاهد التليفزيون . ومكثت وهيبة خمس سنوات كاملة تروي له وتعيد وتكرر ما رأته في التليفزيون . وتساءل عبده لما لا يكون لدى المرأة التي يحبها تليفزيون كتليفزيون زوجة العمدة . وهيبة أجمل ألف مرة من زوجة العمدة وأكثر منها نضارة وشبابا . وهو يحب وهيبة أكثر مما يحب العمدة زوجته . ولكن من أين يأتي بالمبلغ الكبير الذي يشتري به هذه الآلة السحرية . لقد قالوا له ان تليفزيون العمدة من النوع الفاخر . ثمنه ١٨٠ جنيها . لو وفر من أجره قرشا كل يوم لاشترى أحفاده التليفزيون ! وكيف يستطيع ان يوفر قرشا من أجره البسيط الزهيد ؟ أصبح التليفزيون شبحا يعكر عليه حياته .. يؤرقه عندما ينام . يزغده عندما يسرح . كل حياته تحولت الى حلم بالتليفزيون الذي يريد أن يهديه الى زوجته وهيبة . قبل أن يسمع عن هذه الآلة الملعونة كان يحلم بأن يمتلك قطعة أرض . وكان يحلم بأن يملك البيت الذي يقيم فيه . كل هذه الأحلام شحبت وتضاءلت وأصبحت لا قيمة لها بجوار الحصول على التليفزيون . لو كان يملك أرضاً لباعها واشتراه . ولكنه يعمل فلاحا أجيرا في أرض الحاج حسين تاجر الأصواف المقيم في البندر .

يابخت الحاج حسين . لا بد أنه يملك التليفزيون هو الآخر باعتباره من علية القوم . أليس هو يملك عشرين فدانا في القرية ويملك عمارة في البندر . ويملك محلا تجاريا في القاهرة . ثلاث معجزات لا معجزة واحدة . انه شخص فوق البشر ، والا لما ملك كل هذا . هو قادر على أن يشتري مائة تليفزيون لا « تليفزيون » واحدا . وعم حسنين رئيس الانفار قال له ان الحاج حسين يغير التليفزيون كل عام . قال له ان التليفزيون له موضة كالملابس ، والأثرياء يغيرون تليفزيوناتهم كما يغيرون ملابسهم . وجلس عبده يدرس ميزانيته . لو اختصر طعامه ، لو بقي بجلابية واحدة ، لو ضاعف ساعات عمله ، فهل يستطيع أن يجيء بالمائة والثمانين جنيها ؟! ورمى القلم من يده . مهما اقتصد ! لو أنه بقي عشر سنوات جائعا لما حصل لوهيبة على تليفزيون .

وسمع عبده أن الحاج مطاوع وكيل الحاج حسين صاحب الأرض قدم الى القرية ليحصل من المزارعين على الايجار . الحاج مطاوع يحمل اليهم كل عام كتبا يدعي بأنها مقدسة على شكل ايصالات بقيمة الايجار .. أوراقا لا تقبل المناقشة أو التأويل والتغيير . ويدفع الفلاحون صاغرين ، وفي دقائق يحمل الحاج مطاوع مبلغا يزيد على المائتي جنيه ، ويركب حماره في طريقه إلى محطة البندر ليسلم المبلغ الى صاحب الأرض .

وتلفت عبده الى زوجته وهي نائمة ، فوجد وجهها الجميل الفاتن مقطبا . لا بد أنها هي الأخرى حزينة لأنها لا تملك تليفزيون . ولمعت في رأس عبده فكرة . لماذا لا ينتظر الحاج مطاوع بقرب المحطة ويطلق عليه الرصاص ويستولي على المائتي جنيه ويشتري التليفزيون لوهيبة . وشعر أن الرصاصة سوف تحل مشاكله وستحقق كل أحلامه . ستسهل الصعب . ستقرب البعيد . ستحدث المعجزة ويصبح المستحيل ممكننا . ستجعل هذا الوجه الجميل القانط اليائس المقطب مشرقا تملؤه السعادة ويرفرف عليه الهناء . وحمل عبده بندقيته وانتظر في الظلام خلف عيدان القصب قدوم الحاج مطاوع وأطلق عليه رصاصة أردته قتيلا ، وأسرع اليه وانتزع محفظته وعاد بسرعة الى بيته ونام في

فراشه بجوار وهيبة . ولكنه لم ينم . جلس يحصي المبلغ المسروق فوجده ٢٢٥ جنيها يزيد ٤٥ جنيها على ثمن التليفزيون المطلوب . وقرر أن يشتري ملابس جديدة لوهيبة لتزداد جمالا فوق جمالها . سيشتري لها قميص نوم شفافا كالذي رآته في التليفزيون عند زوجة العمدة ، وكانت ترتديه نجمة السينما وملكة الاغراء . ستكون وهيبة أروع من نجمة السينما والاغراء .. وقام وحفر في الأرض حفرة عميقة وأخفى فيها البندقية ، وأخفى مع البندقية المبلغ المسروق ، وذهب في الصباح الى الحقل كالمعتاد ، وبدأ يعمل في هدوء ، وسمع زملاءه الفلاحين يتحدثون عن مصرع الحاج مطاوع ، وأن الشرطة قبضت على القاتل ، وأنه اعترف ! وانتفض عبده ، وسأل عن اسم القاتل المقبوض عليه فعرف أنه جاره عواد !

وروى الفلاحون أن عواد تشاجر مع الشيخ مطاوع عندما طالبه بالايجار المتأخر فلم يدفع ، فهدده الحاج مطاوع بأنه سيطرده من الأرض التي عاش هو وآباؤه وأجداده يزرعونها ، وثار عواد على الحاج مطاوع وقال انه سيقتله قبل أن يترك الأرض التي رواها بعرقه ودمه ودموعه . وبعد دقائق من هذا التهديد وجد الخفير جثة الحاج مطاوع ملقاة على الأرض . وأقبل ضابط النقطة والعمدة وضربوا عواد ضربا مبرحا حتى اعترف بأنه هدد الحاج مطاوع بالقتل ، وانهالوا عليه بالسياط حتى تهاوى واعترف بأنه القاتل ! ثم تقدم شهود من القرية يقولون انهم رأوا عواد وهو يطلق الرصاص على الحاج مطاوع ، وذهل عبده مما سمع ، انه واثق أن الرصاصة التي قتلت الشيخ مطاوع كانت من بندقيته هو . ولم يسمع رصاصة سواها . فكيف يكون القاتل سواه ! وأحس أن ضميره يعذبه ، وفكر في أن يتقدم لوكيل النيابة ويعترف بأنه القاتل ، ثم تذكر تليفزيون وهيبة الذي سيشتريه لها . ووجد ضميره ينام من جديد ، ويستريح الى ما وصل اليه التحقيق . وجلس مع زملائه الفلاحين يشيد بعدالة وكيل النيابة المحقق وبذكاء ضابط النقطة ويلعن القاتل السفاح عواد . وشعر عبده أن الدنيا تبتسم له . لقد حصل على ٢٢٥ جنيها ، وليس هو القاتل فهو لم يرتكب جريمة

لأن القانون والعدالة والتحقيق أثبتت أن القاتل سواه . ومع الوقت بدأ يصدق التحقيق ويكذب عينه . لعل رصاصته طاشت ، ورصاصة عواد هي التي أصابت القتيل . لا بد أنه في رهبة الموقف لم يسمع الرصاصة الأخرى ، واطمأن أنه لم يقتل ولم يسرق . كل ما حدث أنه وجد كنزا في جيب جثة فأخذ الكنز وأخفاه . المهم أنه سيشتري التليفزيون ، ويسعد وهيبة ويحقق حلمها الطويل . وانتظر عبده حتى قدم عواد الى المحاكمة . وحكم عليه بالاعدام . ونفذ الحكم . وفي يوم التنفيذ ذهب واشترى التليفزيون . وعانقته وهيبة والدموع في عينيها ، وروى لها في فخر وزهو كيف قتل وسرق من أجلها . الحب الذي يلد أنبل المشاعر قد يخلق اخطر الجرائم ، قد يحول القديس الى شيطان . قبل أن يحب وهيبة جاع عبده ، ولم يفكر في أن يسرق ليشتري خبزاً . فضل أن يبيت جائعا ولا يلمس المال الحرام . عاش سنوات في الحرمان والجوع والعدم والشقاء ، ولم يخطر بباله يوما أن يرتكب جريمة . ولكن حبه المبرح لوهيبة جعله يتحول الى لص وقاتل . هو لم يقتل رجلا واحدا من أجلها ، بل قتل رجلين القتيل والمحكوم عليه بالاعدام .. وعاش أياما قليلة سعيدة مع وهيبة أمام التليفزيون . ثم بدأ يقشعر بدنه عندما يسأل الناس كم دفع ثمنا للتليفزيون الذي اشتراه . كان يكذب عليهم ويقول انه دفع ١٨٠ جنيها ، والواقع أنه دفع ١٨٠ جنيها وحياة رجلين ..

وبدأ الفلاحون في القرية يتحدثون عن قصة الثروة المفاجئة التي هبطت على عبده . وذات يوم وصل الى الشرطة خطاب من مجهول أن ثمن التليفزيون هو المبلغ الذي كان في جيب الحاج مطاوع القتيل . وتحركت النيابة وفتشت بيت عبده فوجدت فيه البندقية المدفونة في التراب . وقال الطبيب الشرعي ان رصاصة البندقية هي التي قتلت الحاج مطاوع ..

وقبضت النيابة على عبده . وقدمته الى المحاكمة بتهمة عجيبة . وهي أنه شريك عواد في قتل الحاج مطاوع . لم يشأ رجال التحقيق أن يذكروا الحقيقة . خجلوا من أن يعترفوا بأنهم أعدموا بريئا ، فغيروا وبدلوا في وصف الجريمة . وقدموا عبده بأنه شريك في قتل الحاج مطاوع .

صحيح أن عواد قتل الحاج مطاوع ، ولكن المؤكد أنه أعطى البندقية لعبده فأخفاها في بيته ، وأعطاه نصف المبلغ المسروق .. وأقسم عبده أنه لم يكن شريكا لعواد ، وأنه لم يتفق مع عواد على قتل الحاج مطاوع ، ولم يستطع أن يثبت مصدر المائتي جنيه ، وحكمت محكمة الجنايات عليه بالسجن عشر سنوات ..

واعتبر عبده هذا الحكم انتقام الله منه لانه سكت عن ظلم بريء ، ولم يحزن لما أصابه ، فقد كان كل ما يهمه الا يصادر الحكم التليفزيون . وفعلا صودرت البندقية التي قتلت الحاج مطاوع ، ولم يصادر التليفزيون الذي هو القاتل الحقيقي !

وكان عبده واثقا بأن التليفزيون سيذكر وهيبة به كلما فتحته في الصباح والعصروالمساء . سوف يصبح التليفزيون صورته المعلقة في البيت .. صورة تتحرك وتتكلم وتقول ان عبده لايزال هنا . سوف تذكره وهيبة كلما سمعت في التليفزيون اغنية حب ، كلما شهدت مسرحية غرام ، كلما رات قميص نوم شفافا ترتديه بطلات الافلام .

وفي كل خطاب كان يرسله عبده من السجن الى زوجته في القرية كان يسأل عنها وعن أولاده وعن التليفزيون . لقد أصبح التليفزيون أحد أفراد الاسرة . هو مندوب عندهم ورسول لديهم . هو صورته التي تعلقها وهيبة في غرفة النوم . هو صوته الذي يملأ عليها البيت . لن تشعر وهيبة بالوحدة إلا ساعات توقف الارسال . سوف يحدثها بالنيابة عنه . يناجيها . يسليها . وها هي ذي خطاباتها الأسبوعية أدلة حية على وفائها وحبها . انها تذكر دائما التضحية التي قدمها من أجلها ليسعدها ويحقق أحلامها . لقد أمضى في السجن ثلاث سنوات ، وسوف يخرج بعد عامين في عفو انتهاء العقوبة لمناسبة انتهاء نصف المدة . وسيعود الى زوجته الحبيبة . وسيجلسان معا الى جوار التليفزيون يستمتعان ببرامجه وهما يتبادلان العناق والقبلات .

وذات يوم حضر الى السجن وكيل النيابة ليسمع أقوال عبده في بلاغ تقدمت به أم عبده الى العمدة . تقول أم عبده في بلاغها ان وهيبة زوجة عبده حملت وانها في شهرها الثامن وان زوجها مسجون منذ ثلاث

سنوات ، ومن غير المعقول أن تحمل وهيبة ويبقى الجنين في بطنها ثلاث سنوات .. وان هذا يدل على أن وهيبة خانت زوجها . وطلبت تقديم زوجة ابنها الى المحاكمة بتهمة الزنا ..

وعرض وكيل النيابة الزوجة على الطبيب الشرعي فاثبت أنها حامل في ثمانية شهور . والقانون يقول ان الزوجة لا تقدم الى المحاكمة بتهمة الزنا الا بموافقة زوجها . ولهذا جاء وكيل النيابة ليعرف رأى عبده .

وتهاوى عبده وسقط على الأرض . احس أن مطرقة هائلة سقطت فوق رأسه . لا يمكن أن يكون هذا صحيحا . وزوجته الحبيبة تكتب اليه كل أسبوع لم تنقطع أسبوعا واحدا . تملأ خطاباتها بكل الحب والاخلاص والوفاء . آخر خطاب كتبته له منذ أسبوعين . لا بد أن أمه تتجنى على وهيبة . تنتقم من الزوجة التي كانت سببا في دخول ابنها السجن . لا يمكن أن تكتب وهيبة كل عبارات الهوى والغزل والشوق وهي حامل من رجل آخر .

وقال وكيل النيابة لعبده ان الزوجة اعترفت بأنها استدعت صراف القرية وصديق عبده لتملي عليه خطاباتها لزوجها ، وكافأته على ذلك بأن دعته ليتفرج معها على التليفزيون . وحدث عندما كانا يشاهدان منظرا غراميا على الشاشة أن لسعتهما حرارة المشهد ، ووجدت الصراف يحيطها بذراعه وراحا يكملان ما لم تقله شاشة التليفزيون أو تجرؤ على البوح به .

وأحس عبده بطعنة أكبر من الطعنة الأولى وأشد ايلاما . صديقه الصراف دون جميع أهل القرية هو الذي خانه . الرجل الذي تمليه وهيبة كل الخطابات الغرامية التي تلقاها طوال هذه السنوات الثلاث . اذن عبارات الغزل هذه لم تكن موجهة له . كانت موجهة الى الصراف . كانت محاضر أسبوعية تدون فيها عبارات الهوى والغزل التي يتبادلها العاشقان الفاجران . فجأة تحولت الخطابات التي كانت مكمدات الى سكاكين . الخطابات التي كانت مناديل تجفف دموعه أصبحت أشواكا ومسامير . عاد يسترجع العبارات التي كان يحفظها من رسائل وهيبة . أصبح لكل كلمة معنى آخر . ما أغرب القدر واقساه . الكلمة التي كانت

تسكره أصبحت الآن تلسعه . الكلمة التي كانت تشفيه أصبحت تقتله . نفس العبارات التي كانت رحيقا من السعادة والهناء واللذة ، أصبحت جرعة من المر والعذاب .

واستعجله وكيل النيابة أن يبدي رأيه ! هل يطلب تقديم وهيبة الى المحكمة بتهمة الزنا ؟ .

وشعر أن هذه الكلمة توقظه من غفوته . ماذا يقول ؟ لو قدمها بتهمة الزنا فسوف يزج بها في السجن . سوف يشرد أولاده . يبقى أولاده طوال حياتهم مدموغين بتهمة أنهم أولاد المرأة الزانية . سوف يمشون في طرقات القرية منكسي الراس . يدفعون ثمن جريمة لم يرتكبوها ، بل كانوا بعض ضحاياها .

وزادت حيرته . هل ينتقم منها . لقد قتل رجلين من أجلها ولو أنه أودعها السجن فسيشرد أطفاله الصغار وسوف يبقى الصراف حيا يخدع زوجات باقي الفلاحين . وقال عبده بصوت يشبه رنين القدح المكسور : لا أريد أن أقدمها الى السجن أريد أن أقابلها هنا مرة واحدة ، وبعد ذلك سوف أطلقها ..

ودهش وكيل النيابة ان يظهر هذا المسجون المسحوق كل هذا التسامح في لحظة لا يرتفع فيها الا صوت الرغبة في الانتقام .

وسأله وكيل النيابة : لماذا تشفق على المرأة التي لم تشفق عليك ؟ لماذا تحافظ على عرض امرأة لم تصن عرضك ؟ لماذا ترحم امرأة لم ترحمك .

ولم يستطع عبده أن يجيب . أجابت عنه دمعة ساخنة سقطت على ورق محضر التحقيق الذي فتحه وكيل النيابة فعبثت بحروف بعض كلمات التحقيق .

وعاد عبده إليّ في العنبر يتعثر في خطواته ، وعاد الى رسائل وهيبة وعشيقها يقرؤها من جديد .

ووجدت في عينيه لمعانا غريبا فقلت له : انك تريد أن تقابلها لتقتلها .. تذكر انك قتلت قبل ذلك اثنين ..

ووعدني عبده واقسم أنه لن يقتلها !

وجاءت وهيبة الى السجن .. وطلبت مقابلة خاصة .

وارتدى عبده أنظف ملابسه . وحلق ذقنه وكأنه يذهب الى حفلة زفافه .

ودخلت وهيبة الى غرفة الضابط ، وإذا بها تجد عبده يهش لها ويبش ، ويأخذها في أحضانه ويضمها الى صدره وهو يقول :

ـ يا حبيبتي يا وهيبة .. يا حبيبتي يا وهيبة ..

ثم مد أصابعه فجأة وقلع عينيها !

وأقبل حراس السجن على صراخ وهيبة .. وقيدوه بالحديد وحملوه الى عنبر التأديب .

وقابلته في الطريق فوجدته يضحك ويقول :

ـ لن ترى وهيبة التليفزيون بعد الآن .

الجبهة الوطنية في الزنازين !

٧ يوليو سنة ١٩٦٨

عزيزتي ...

كل يوم تجيء من معتقل طرة أخبار جديدة . في كل يوم أسمع اسم معتقل جديد . أشعر في بعض الأحيان أن مصر كلها في السجن . أبرز المحامين في مصر مقبوض عليهم وموجودون في معتقل مزرعة طرة . عندنا شوكت التوني المحامي وحمادة الناحل المحامي والدكتور نور الدين رجائي المحامي والدكتور عبد المنعم الشرقاوي المحامي وعلي عبد العظيم المحامي وعبدالوهاب حسني المحامي والاستاذ عيسى العيوطي المحاسب وغيرهم وغيرهم ..

وفي المعتقل عدد من الشعراء منهم الشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الأستاذ بكلية اللغة العربية والشاعر السعودي عبدالله عبدالجبار والشاعر كامل أمين والشاعر محمد وجدي والشاعر الفلسطيني سليم اليعقوبي والشاعر محمد بدر الدين والشاعر محمود شاوير ربيع والشاعر الماحي .. وبعض هؤلاء يهربون لي من المعتقل أشعارهم ، وهي اشعار تلعن الظالمين وتطالب بالحرية وتصف سوط الجلاد !

ومن بين القصائد التي وصلتني قصيدة للشاعر محمود شاوير ربيع يصف فيها السجن الحربي والتعذيب في ملحمة جاء فيها :

ياحمزة ياابن البسيوني	أعوانك يوما جلدوني
كتبوا في جسدي ملحمة	بسياط الباغي المافون
لا دين لهم .. ولسيدهم	والظلم يعيش بلا دين !

وفي المعتقل عدد كبير من الوفديين ، وقد شاهد ليمان طرة الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية السابق وعبدالفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية السابق ، فقد حكم عليهما الدجوي بالاشغال

الشاقة المؤبدة في مؤامرة ملفقة .. ومن الطريف أن عددا من الوفديين الذين اشتركوا في جنازة النحاس باشا في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٦٥ قبض عليهم مساء يوم الجنازة ، ولايزالون في السجن حتى اليوم بغير محاكمة ، ولم يثبت أنهم نظموا الجنازة ، ولكن الأمر صدر بالقبض عليهم وابقائهم في السجن عقابا لهم على أن الشعب أقام جنازة شعبية للنحاس باشا !

وفي السجن عدد من الشيوعيين .. وعدد آخر من مختلف الاتجاهات يسمونه « النشاط المعادي » ... وهكذا فان مصر ممثلة خير تمثيل في ليمان طرة ! واذا رأت الحكومة أن تؤلف جبهة قومية لمواجهة الموقف فلن تتعب في البحث عنها فهي موجودة في زنازين الليمان !

وقد التقيت في مستشفى الليمان بالنائب الوفدي السابق الاستاذ الدرملي فأخبرني انه يوم أن فرضت الحراسة عليه كانت زوجته وأولاده في قريته ببني سويف ، وكان هو في القاهرة . وجاءت قوة من البوليس الحربي واقتحمت داره في القرية واستولت على كل ما لدى زوجته من نقود ومجوهرات . ثم رأى الضابط خاتما في يد زوجته وحاول أن يخلعه فقالت ان هذا خاتم زواجي فنهرها وقال ان الأوامر أن نجردك من كل شيء ! وحاول أن يجذب الخاتم الذهبي فلم يخرج من اصبعها ، فقال لها أمامك ثلاث دقائق اما ان تنتزعي الخاتم من أصبعك ، أو أقطع اصبعك وآخذه هو والخاتم !

وأخذت الزوجة المسكينة تجذب الخاتم ، حتى انتزعته مع بعض لحم اصبعها وقدمته له ملوثا بدمها !

ثم قال لها الضابط : ان الأمر يقضي بأن أقبض عليك أنت وأطفالك . وأن تغادروا القرية ... فجزعت الزوجة وقالت ان زوجها في القاهرة ولا تعرف عنوانه هناك ولا تستطيع أن تترك بيتها بغير اذنه . فجذبها الضابط ودفع الأطفال خارج البيت ، وأقفله بالشمع الأحمر ، ثم وضعهم في سيارة بوكس فورد حملتهم إلى القاهرة . وتوقفت السيارة في ميدان التوفيقية ، وطلب منها الضابط النزول هي والاطفال ..

وكانت الساعة الثانية صباحا ! ..

ومشت الزوجة هائمة في الشوارع ، لأنها لا تعرف اسم الفندق الذي يقيم به زوجها ..

ومشى خلفها الأطفال يبكون !

واستمروا يهيمون في شوارع القاهرة الى أن أشرقت الشمس وهنا تذكرت الزوجة أن لها أقارب في القاهرة فمشت علي قدميها أكثر من ساعة ونصف حتى وصلت الى بيت أقاربها ... ذلك لأن الضابط الشهم لم يترك لها قرشا واحدا أجر الترام !

محاولة قتل مسجون سياسي

اخي العزيز ..

١٤ يوليو سنة ١٩٦٨

بين المسجونين معنا مسجون أطلقنا عليه اسم « شنبو » تيمنا بقصة أحمد رجب في الاذاعة بعنوان « شنبو في المصيدة » . كان ضابطا في القوات المسلحة وعمل في البوليس الحربي ، واتهم بتهديد الراقصات في الكباريهات فطرد من الخدمة ، وسافر الى اسرائيل وادعى أنه عالم مصري في الصواريخ واحتفلوا به ثم اكتشفوا أمره فطردوه ، ولجأ الى الأردن ، وادعى أن لديه تنظيما في الجيش قادرا على عمل انقلاب ثم عرفوا أمره ، فهرب الى بيروت وبلغت سذاجة مخابرات صلاح نصر أن صدقت ادعاءاته ، وتوهمت انه شخصية خطيرة فأرسلت عددا من ضباط وجنود المخابرات الى بيروت ، وخدروه بمادة مخدرة ، ثم شحنوه في صندوق في احدى سيارات السفارة المصرية الى القاهرة ، وتكلفت هذه العملية الدولية حوالي مائة الف جنيه بينما لو كانت أعطت هذا الشاب مائة جنيه لعاد الى القاهرة من تلقاء نفسه . ولكن المثل الذي يقول « رزق الهبل على المجانين » كان شعار الدولة في وقت من الأوقات . المهم انه حكم على هذا الشاب وهو مختل القوى العقلية بالأشغال الشاقة المؤبدة !

والغريب في عقلية هذا الشاب انه يؤمن بأن « التلفيق » هو أساس الملك ! وأن كل كبار رجال الدولة وصلوا إلى مناصبهم بالتلفيق . ويعتقد أن عمل المخابرات هو التلفيق ، ولهذا لا عمل له في السجن الا تلفيق التهم والأكاذيب حتى يعتقد الجميع أنه من رجال المخابرات !

والغريب أيضا أن هذا المجنون عاقل في أمر واحد ، وهو يعتقد أن الدولة تريد تعذيب المسجونين السياسيين ، وأن تنكد عليهم الحياة ، وأن تجعل حياتهم لا تطاق في زنازينهم ، ولهذا فهو يقوم بهذه المهمة خير قيام بالنيابة عن الدولة !

حدث مرة أن جاء النوبتجي الذي يتولى بريد المسجونين ، جاء يوزع الخطابات على المسجونين السياسيين . وفوجئت بهذا الضابط المسجون يقول لي : سأذهب الآن لأقدم بلاغا ضد موزع البريد لأنه يتاجر في الحشيش !

وسألته : هل يتاجر في الحشيش ؟

قال ببساطة : لا . ولكنه سلم خطابات المسجونين المدنيين اليهم قبل أن يسلمني خطابي .. والمفروض أن المسجون العسكري أعلى مقاما من المسجون المدني !

وفعلا قدم البلاغ الكاذب ضد المسجون البريء !

وقامت الدنيا وقعدت . وحفظ البلاغ بعد أن عرف المسؤولون في السجن أن الذي قدم البلاغ هو مدير عام التلفيق !

وكثرت اعتداءاته على الضباط والاطباء والمسجونين فتقرر وضعه بعيدا عنا في سجن التأديب ! ولكن ولاة الأمور أعادوه ليعيش معنا ، لأنهم علموا أنه يعكنن علينا الحياة ، فآثروا أن يبقى ليستمر في مهمته ويقوم بها خير قيام .

ثم حدث أن رأى أحد المسجونين السياسيين فى المستشفى وهاجمه بآلة حادة في أنفه ، وقال لزملائه انه فعل ذلك لأنه علم أن كل من يقتل مسجونا سياسيا يصدر له قرار جمهوري بالعفو عنه على الفور .

ثم حدث أن قدم بلاغا يقول إنني أنا وعددا من المسجونين السياسيين وضابط العنبر اقتحمنا زنزانته وقيدناه وإن الضابط قام بحرق ظهره بالسجائر المشتعلة ، والغريب أن وزارة الداخلية تصورت أن الهضيبي الذي يبلغ من العمر ٧٥ سنة وأنا وعمري ٥٤ سنة وغيري من المسجونين السياسيين نهاجم شابا قوي العضلات ونقوم بتعذيبه ، وإذا بمصلحة السجون ترسل وكيل المصلحة للتحقيق معنا ، وهي تعلم طبعا أن البلاغ كاذب ، ولكن التعليمات العليا هي جعل حياة المسجونين السياسيين لا تطاق !

واذا بأحد المسجونين العاديين الذي يجاوره في زنزانته يعترف بأن شنبو أعطاه خمس علب سجائر ليطفىء السجائر في ظهره حتى يدعي

أن ضابط السجن هو الذي قام بتعذيبه ! وجاء كبير الأطباء ، وأثبت أن كل الاصابات في شنبو مفتعلة !

ولكني أصررت على أن يجري تحقيق بمعرفة النيابة في هذا البلاغ الكاذب ، وقلت انه لو ثبت أن المسجونين السياسيين فعلوا في « شنبو » ما يدعيه فهذا دليل على انهم جميعا مجانين ويجب احالتنا كلنا الى مستشفى المجاذيب . واذا ثبت أن شنبو كاذب فيجب احالته الى مستشفى المجاذيب . واذا لم تفعل ادارة السجن شيئا فيجب أن تحال الادارة الى مستشفى المجاذيب .

ولكن ادارة السجن لم تستطع ان تفعل شيئا !

كل ما حدث أن مدير السجن قال لنا انه مجنون !

ومادام هو مجنونا فلماذا تبقونه مع المسجونين السياسيين في طابق واحد ! قالوا انها الاوامر !

وكان أغرب ما فعلوه انهم وضعوه بجوار المسجون السياسي الذي حاول أن يقتله قبل ذلك ، ثم نقلوه الى زنزانة أمامه ، بعد أن احتج على وضع القاتل بجوار القتيل !

ثم حدث أن فوجىء المسجونون السياسيون بصدور امر بأن يوضع معنا في نفس الطابق المخصص للسياسيين مجرم قتل أحد أصدقائه ليسرق منه خمسة وعشرين قرشا ومزق جثته الى قطع صغيرة وأحرقها ، وحكم عليه بالسجن المؤبد !

ودهش المسجونون السياسيون لهذا التصرف الغريب .. وقالت الادارة في تبرير هذا التصرف انه مجرم كثير الشكاوى والاتهامات ، وإنهم وضعوه معنا حتى يمتنع عن الشكوى من ادارة السجن ! ولكن هذه الاجابة أثارت ريبة المسجونين السياسيين وشكوكهم .. وأرادوا أن يحتجوا على هذا فقلت ان احتجاجنا لن يفيد أحدا سوى الذي أصدر هذا القرار المجرم . اذا كان هو مدير مصلحة السجون فسيرقى وكيلا للداخلية ، وإذا كان وكيل الداخلية فسيرقونه وزيرا للداخلية ، فاذا كان وزيرا للداخلية فسوف يرقونه رئيسا للوزراء لأنه نكد الحياة على المسجونين السياسيين .

وبدأ المسجون القاتل يقوم بمهمته المكلف بها . في كل مساء عندما يهدأ كل شيء في العنبر يصعد على نافذة زنزانته ويصيح : ـ أيها المسجونون السياسيون !يا كلاب !يا خونه يا أعداء الوطن ،ثم يوجه اليهم شتائم وسبابا وكلمات قذرة لا تكتب !

وكنت أتحمل هذه الشتائم كل ليلة ، واقول لزملائي انه لا بد أن يتعب في يوم من الايام ويكف عن الشتائم ، أو أنه سيتوقف عن الشتائم عندما يكتشف انهم لم يدفعوا له الثمن المطلوب وهو الافراج عنه . وكانوا يثورون عليه ، وكنت اقول لهم ان الذنب ليس ذنبه ، وإنما ذنب الذين ظلمونا ووضعونا في هذا المكان .وإذا كنت سامحت الذين حكموا علي ظلما ، فلماذا لا أسامح الذي يشتمني ظلما !

وبعد أيام ذهلنا عندما سمعنا المسؤلين في السجن يقولون في اذاعة السجن ان هذا المسجون ـ المسجون الذي يشتمنا كل ليلة ـ هو المسجون النموذجي في الليمان !

ولم أصدق أذني عندما سمعت هذا الكلام في اذاعة السجن ، وإذا بادارة السجن تقوم بعمل شريط لهذه الخطبة العصماء ، وتقوم باذاعة الشريط كل يوم ، وكأنه آخر اغنية من اغاني أم كلثوم !

واعتقد المسجون القاتل أن هذا النطق الملكي هو أمر له بان يضاعف شتائمه وسبابه ضد المسجونين السياسيين !

وثار المسجونون العاديون على التعذيب اليومي .

وأرسل لنا مأمور العنبر رسولا يقول لنا ان علينا أن نعطي المسجون القاتل سجائر وطعاما حتى يكف عن سبنا !

وشكرنا الضابط على نصيحته « الغالية » . وقلنا له ان الشتائم أرخص كثيرا من السجائر في السجن ، وما لدينا منها لا يكاد يكفينا ، واننا اذا فتحنا هذا الباب فلن ينتهي ، واننا لانقبل أن ندفع للمسجون القاتل الجزية التي كانت تدفعها الدول الصغرى للدول الكبرى !

وتضاعفت شتائم المسجون القاتل أكثر وأكثر .

ولم تحتمل أعصاب أحد المسجونين السياسيين ، وهو الضابط

البحري أحمد لطفي ، الذي كان ياورا للرئيس محمد نجيب في أول الثورة ، فرد على المسجون بعنف ..

وتدخل الضباط وصالحوا الاثنين ، واعتذر المسجون القاتل للسجين أحمد لطفي وقبل رأسه .

وعندما قص علي أحمد لطفي ما حدث قلت له : انني لا أطمئن الى هذا الصلح وأتوقع غدرا !

وكانت الاخبار تجيء الى المسجونين السياسيين بأن « شنبو » يحرض هذا المسجون القاتل على أن يذبحني بسكين ، ويؤكد له أن قتل المسجون السياسي خدمة عظيمة للدولة ، وأن من يفعل هذا سينال عفوا شاملا ، وأن بعض الوزراء الحاليين لم يصلوا الى مناصبهم في الوزارة لا لشيء الا لأنهم قتلوا بأيديهم مسجونين سياسيين !

واقترح أحمد لطفي على المسجونين السياسيين ، بطيبة قلبه ، أن ندعو السجين القاتل ليشاركنا طعامنا ، ونعطيه سجائر ، باستمرار ، وبذلك ننزع السم الذي في أنيابه ، ونعالج الحقد الذي يملأ قلبه .

ورفض المسجونون السياسيون اقتراح أحمد لطفي الطيب القلب على أن يتولى هو وحده تنفيذ اقتراحه ، على الرغم من سوء حالته المالية .

وفي صباح اليوم التالي كان أحمد لطفي يتمشى معي أمام الزنزانة ، ثم تركته لأتناول طعام افطاري في زنزانتي . واذا بي أسمع صراخا . وتركت طعامي وأسرعت الى خارج زنزانتي ، فوجدت المسجون القاتل ينقض على أحمد لطفي ويحاول ذبحه بسكين !

فقد جاء السجين القاتل وحيا زميلنا أحمد لطفي قائلا له : صباح الخير ..

ورد أحمد لطفي : صباح النور .

ومضى أحمد في طريقه . واذا بالمسجون القاتل يخرج من جيبه سكينا كبيرا ، ويهاجم أحمد لطفي من الخلف ، ويطعنه طعنات متوالية ، ويسقط أحمد لطفي على الأرض ، ويبرك السجين القاتل فوقه يحاول أن يذبحه بالسكين !

ووجدت دما يغطي مساحة طولها متر وعرضها متر من أرض الردهة

الخارجية لزنزانتي . وتجمع المسجونون والسجانون حول المجرم ، وانتزعوا منه السكين ، وهو يصر على الاجهاز على أحمد لطفي ذبحا .. أحمد لطفي الذي كان يصر من بضع ساعات على أن يقتسم طعامه وسجائره مع الذي يريد أن يذبحه !

ورأيت جثتي مكان جثة أحمد لطفي ! كان المفروض أن تكون هذه الطعنات في أنا ، لولا أنني دخلت زنزانتي قبل الحادث ببضع ثوان .. ولولا ذلك لأصبت بعدد من الطعنات ، وشاركت أحمد لطفي في المذبحة !

وكان من حسن الحظ أن بين المسجونين السياسيين طبيبا نابغة هو الدكتور محمد حلمي عفيفي ، المحكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، وأسرع يحاول وقف النزيف .. واذا به يكتشف أن طعنة السكين العميقة تبعد عن القلب بنصف سم ، ولولا هذا النصف سنتي لمات هذا الشاب المسكين .

ونقل أحمد لطفي الى مستشفى السجن حيث أسعف بالعلاج .

وتصادف أن كان هذا اليوم ، هو أول يوم في اجازة مدير الليمان في الاسكندرية ، وفوجئت بمحاولة للتستر على الحادث !

فقد اتجه رأي بعض الضباط الذين يهمهم رضاء ولاة الأمور الى « كلفتة » الموضوع .

ان ما يهم بعض رجال الشرطة عندنا حينما يقع حادث أن يتخلصوا من المسؤولية ، حتى لا يمسهم التحقيق من قريب أو بعيد ، والا يخصم من عسكري أهمل في واجبه . هذا هو المهم .. أما حياة المعتدى عليه نفسه ، وجريمة المجرم الذي شرع في قتل أحد زملائه فهي مسألة ثانوية جدا ، تجيء بعد أن تتخلص الوزارة من المسؤولية وتتخلص المصلحة من المسؤولية ويتخلص الضباط والصولات والباشجاويش والعساكر من المسؤولية . حياة المسجون السياسي لا تساوي خصم يوم من مرتب عسكري !

ولهذا بدأت المحاولة تتجه الى « لم المسألة » لتصغير الشروع في قتل انسان الى خناقة عادية . وتضاءل السكين الى موسى حلاقة - وتضاءلت الجروح القاتلة الى جروح سطحية لا تستدعي علاجا أكثر من ٢٠ يوما .

ومادامت الجروح لا تحتاج لعلاج أكثر من ٢٠ يوما فلا داعي لإبلاغ النيابة .

وذهب الضابط ليسمع أقوال أحمد لطفي الجريح ، ورفض أحمد أن يتكلم ويصر على انه لن يتكلم الا أمام النيابة العامة . وبذلت محاولات متعددة معه ، واضطر المسكين وهو في حالة اعياء وضعف نتيجة النزف الشديد أن يعدل عن التمسك بحضور النيابة . ولم أستطع أن أسكت ، وأنا أرى هذا التزوير يرتكب أمامي . كان بحر الدم لا يزال كما هو أمام زنزانتي يناديني بأنه لا بد أن أتحرك وأفعل شيئا !

قلت : انني لا يمكن أن أسكت على الجريمة الجديدة ، المراد بها طمس الجريمة القديمة ! وأصررت أن أقابل مدير الليمان بالنيابة وقلت لهم اننى أعتبر أن القاتل الحقيقي هو وزير الداخلية . ومصلحة السجون هي شريكة للقاتل ، لأنها هي التي أمرت أن يقيم هذا القاتل مع المسجونين السياسيين ، وشجعته على أن يسب المسجونين السياسيين كل ليلة ، وحرضته عندما أثنت عليه ادارة السجن في اذاعتها بعد أن شتمنا وقالت انه سجين نموذجي !

وزارة الداخلية هي التي أعدت الجريمة واشتركت فيها عندما وضعت مجرما قاتلا بين المسجونين السياسيين .

انها هي التي أبقت المسجون القاتل في الطابق الذي نقيم فيه واعتبرته مسجونا سياسيا ، بعد أن أمر طبيب السجن الدكتور أحمد كمال بإخراجه من هذا الطابق قبل الحادث بثمان وأربعين ساعة ، وأعطى هذا الأمر كتابة ، فلم تنفذ تأشيرة الطبيب المسؤول .

ان وزارة الداخلية هي التي أحضرت المسجون « شنبو » الذي حاول أن يقتل أحد المسجونين السياسيين ، ووضعته في الزنزانة المجاورة للمسجون الذي حاول شنبو أن يقتله قبل ذلك بأسبوعين . كل هذا يثبت أن وزير الداخلية شريك في حادث الشروع في القتل ..

ورجاني بعض الضباط أن أهدأ ، وأكدوا أن الادارة ستتصرف فورا .. فقلت انني مستعد أن أهدأ بشرط أن تكتبوا تعهدا بالمحافظة على حياة المسجونين السياسيين .. انني أخشى أن يتحول التحقيق من

« لماذا قتلت المسجون السياسي » الى « لماذا فشلت في قتل هذا المسجون السياسي » .. كل شيء أمامي يدل على أن الدولة متلبسة في جريمة الشروع في قتل مسجون سياسي ! .. والدولة لها سوابق في هذا الموضوع .

وبدأ التحقيق فاذا به يسفر عن أشياء خطيرة . شهد عدد من المسجونين أنهم رأوا هذه السكين مع شنبو قبل الحادث بيوم . وشهد مسجونون آخرون بأنهم رأوا شنبو يسلم السكين للقاتل في ليلة ارتكاب الحادث . كما شهد مسجونون غيرهم بأنهم سمعوا شنبو يقول للقاتل : شد حيلك يا سعادة البيه ! وخلص عليهم .. وأنا تحت أمرك !

ووضع المسجون القاتل في مبنى التأديب ، كما وضع المسجون شنبو في نفس المبنى .

ولكن وزارة الداخلية منعت السجين من ابلاغ النيابة .

واستطعنا أن نهرب برقية الى النائب العام بإمضاء أحمد لطفي نطلب فيها التحقيق وإرسال رئيس النيابة الى السجن !

ولا أعرف ماذا سيحدث ؟

هل سيمنع وزير الداخلية رئيس النيابة من الذهاب الى السجن ؟

هل سيخرج القاتل من التأديب ويعود الى عنبرنا يشتم المسجونين السياسيين من جديد ويحاول ذبحهم من جديد !

هل سيعاقب القاتل لأنه فشل في قتل المسجون السياسي . مسكين هذا القاتل الفاشل .. ربما لو نجح في قتل زميلنا أحمد لطفي لأصبح وزيرا !

الغريب .. الغريب أن الكلمة المجنونة التي قالها شنبو عن الذين قتلوا مسجونين سياسيين وأصبحوا وزراء .. هي حقيقة تاريخية !

وفي يوم من الأيام سوف يتكشف كثير من الاسرار التي مازالت وراء الستار !

كلنا شركاء في الجريمة

٢٠ يوليو سنة ١٩٦٨

اخي العزيز ...

اليوم تنتهي السنة الثالثة لي في السجن ، وغدا تبدأ السنة الرابعة . أحمد الله كثيرا على أنه أعطاني كل هذا الايمان والصبر والاحتمال ! عندما انظر خلفي أشعر بدهشة كيف استطعت أن احتمل كل ما احتملت من ظلم وتعذيب وسجن وتنكيل .

الله يعطي عندما يأخذ ، وقد أعطاني من الايمان والصبر والاحتمال ما يذهل جميع المسجونين والحراس والضباط .. وما يذهلني أنا أيضا !

ترى كم سنة أخرى سوف أستطيع ان أحتملها !؟ لا أعرف . ولكنني مصمم على ان استمر « اقاوم » . بقائي حيا هو نوع من المقاومة . فعلوا كل شيء بالمسجونين السياسيين ليقضوا عليهم ، فلما عجزوا دفنونا أحياء ! وهم يتوهمون أنهم انتهوا منا ولن تقوم لنا قائمة ، وأنا أقول لزملائي ان بقاءنا أحياء هو مظاهرة يومية بسقوط الطغاة ، فيجب أن نبقى أحياء لكيلا ينقص عدد المشتركين في المظاهرة ! وفي كل يوم يجيء لنا مسجون سياسي جديد . فالقضايا لا تنتهي والتلفيقات لا تنتهي . وأنا أشبه الحكومة والشعب الآن بالقصة التي كان يرويها عمر بن الخطاب ، وملخصها انه رأى امرأة جالسة مع أولادها وأمامها نار مشتعلة عليها قدر مغطاة وأطفالها حولها ينتظرون ، وكشف عمر الغطاء عن القدر فوجد ماء ولم يجد طعاما .. وسألها عن السبب .. فقالت الام انها تغلي الماء حتى توهم الاطفال أنه طعام فيصبرون على الجوع ! والحكومة توهم الشعب انها تستعد للحرب في أي لحظة .. ولا يوجد عندنا عمر بن الخطاب ليكشف عن غطاء القدر !

انتقلت من الزنزانة التي كنت بها في الجهة القبلية الى زنزانة أخرى بالجهة البحرية تماما كما كانت الحكومة تنتقل في الصيف من القاهرة

الى مصيفها في الاسكندرية . كان الحر لا يطاق في زنزانتي . « حمو النيل » ملأ كل جسمي حتى كنت أشبه بالمريض بالحصبة ! عجزت المراهم والبودرة عن القضاء عليه . كنت أستيقظ في منتصف الليل فأجد سريري تحول الى بركة سباحة من العرق ، فأضطر الى تغيير الملاءة وتغيير ملابسي ، وتتكرر المأساة ، وفي بعض الليالي أحس أنني أكاد أختنق . وكنت أنتظر بفارغ الصبر فتح باب الزنزانة في الصباح لأخرج الى الردهة الخارجية وأستنشق نسمة هواء . ومن الغريب انني أمضيت صيفية قبل هذا العام في نفس الزنزانة ولم أشعر بهذه الحرارة وهذا الاختناق . ولا أعرف هل السبب هو تقدم السن أو تأخر الصحة .. أو هو سوء الجو فعلا . وأخيرا وافق طبيب السجن على انتقالي الى زنزانة في الجهة البحرية ، ووافق مأمور السجن ، ووافق مدير السجن ، ووافق مدير المصلحة ، ووافق مدير المباحث العامة ، ووافق وزير الداخلية !

وكان الأمر يقتضي أن أقوم بعملية تنظيف واسعة النطاق ، كما تفعل الحكومة الجديدة عندما تحل مكان الحكومة القديمة ! وكان الجو في الزنزانة الجديدة يختلف عن الجو في الزنزانة القديمة : كانت زنزانتي الاولى تطل على زنزانات أخرى ، السجن ورائي وأمامي ! أما نوافذ زنزانتي الجديدة فهي ترى الشارع من بعيد . أستطيع لأول مرة منذ ثلاث سنوات أن أرى المارة في الشوارع ، أن أرى مترو حلوان ، أشهد السيارات والدراجات وعربات الكارو .

أرى من بعيد آنسة ترتدي الميني جيب وبجوارها سيدة ترتدي الملاية اللف ! شعرت كأنني أطل على الحياة من جديد . ثلاث سنوات لا أرى الناس الطلقاء ! رأيت رجلا حافيا يرتدي جلابية . حسدته على حفائه وهو يمشي في أرض الحرية . ما قيمة حذائي وأنا أدوس به على أرض السجن ! هذا الرجل ينتقل من رصيف الى رصيف ، وأنا لا أستطيع أن أنتقل مترا الا بعد أن أستأذن ! هذا الرجل يمشي وحده . وأنا لا أستطيع أن أسير الا وأمامي حارس وخلفي رقيب ! وتمنيت أن

إعيش الى اليوم الذي أستطيع أن أمشي فيه على أرض الحرية حتى ولو كنت حافي القدمين .

ثم ساءلت نفسي ما يدريني ان هذا الرجل لابس الجلابية حر ؟

هل كل الذين خارج السجون أحرار ؟

ما أكثر أشكال الزنازين التي يجد فيها الناس أنفسهم .

ربما كان بعضها أضيق من زنزانتي ! ما بال خطوات الرجل متعثرة . الرجل الحر يكون واثقا من نفسه وخطواته ثابتة !

أيكون مقيدا بقيود غير منظورة لا أراها من بعيد .

هل يكون كل هؤلاء المارين في الشارع أمامي سجناء من أنواع مختلفة ؟!

بعضهم سجناء الاستبداد ، وبعضهم سجناء الهزيمة ، وبعضهم سجناء الخوف . الناس لم تعد هي الناس التي كنت أعرفها . على وجوهها كآبة غريبة . كل واحد منهم أشبه بجيش مهزوم أو شعب مقهور . كأن تعاسة الأمة كلها حلت في كل رجل وكل امرأة . لا أرى في الشارع المرح الذي كنت أراه في الشوارع في السنوات الخالية . وجوه مكفهرة . قسمات واجمة . نظرات حزينة . لا أحد يضحك . زاد عدد الناس في الشارع . تضاعفت أحزانهم ومآسيهم وخيبة آمالهم . واقفلت نافذتي بورق كارتون . وتحسرت على نافذة زنزانتي الأخرى التي تطل على زنازين السجن !

الشعب كله مسجون .. كله محكوم عليه بالسجن المؤبد والإشغال الشاقة المؤبدة . ليس فينا أحد بريء ! كلنا شركاء في الجريمة .. كلنا اشتركنا في صنع السلاسل التي قيدنا بها . في صنع السوط الذي ألهب ظهورنا . في صنع الصنم الذي حكم علينا بالاستعباد !

جريمتنا كانت كبيرة ، ولهذا كان عقابنا هائلا !

واستطعت أن أرقد في فراشي دون أن أحس لأول مرة بمطر العرق ينهمر على وجهي وجسمي كله ، ولم أغير الملاءات ولا ملابسي الداخلية ولا الخارجية . وفوجئت أثناء الليل بزائرتين غير منتظرتين . وهما بقتان . ظهرت البقة الأولى على النافذة والبقة الثانية على الباب . وهكذا

أصبحت محاصرا من جميع الجهات . شعرت أنني أواجه كارثتين في وقت واحد . لو كان من الممكن فتح باب الزنزانة في الليل لهرولت الى زنزانتي القديمة مفضلا الحر القاتل على حشرة البق . وأمضيت الليل كله في قتل البق . اكتشفت أن البقتين اللتين رأيتهما أولا كانتا عبارة عن وفد رسمي أرسلته جيوش البق الموجودة في الزنزانة لترحب بمقدمي السعيد !

وما أن انتهيت من القضاء على البق ، حتى فوجئت بجيش من النمل . نعم جيش . لا نملة ولا خمس نملات ولا عشر ولا مائة ، انما هي كتائب وألوية وفرق !

وأعلنت الحرب على النمل ، ثم فوجئت بزحف جيش آخر من الناموس والذباب . ورحت أقاومه بالفليت وجميع المبيدات الحشرية .. واحترت في الصباح بين أن أعود الى الحر الملعون في زنزانتي القديمة أو أن أبقى مع الحشرات في زنزانتي الجديدة . وفضلت أن أبقى في الزنزانة الجديدة لأستطيع أن أطل على الطريق فأرى وجوه المارة . وأتخيل أن هذا الأب سيلتقي بعد دقائق مع أولاده . وهذا الولد سيجتمع بعد وقت قصير مع أمه . وأغبط الناس الذين يستطيعون أن يروا أهلهم وأحباءهم وأصدقاءهم مرة كل يوم وكل ساعة . كل المتاعب تهون مع الحرية . وأسمع من بعيد نبض الشارع . الشارع يتحرك . يتكلم . يرقص . يضحك . فيه حركة وفيه حياة . وألتفت الى الزنازين فإذا بها أشبه بالقبور . صامتة . خرساء . حزينة . مقبضة فيها طعم الموت ورائحته ورهبته .

لقد جاء المخرج حلمي رفلة الى السجن ليصور فيلما للتليفزيون . ماكاد يراني بملابس السجن حتى انهار وبكى .. ودعوته الى الصعود من الطابق الأول الى الطابق الرابع لأتحدث اليه .. ووضع قدمه على درجات السلم وكأنه يضع قدمه على سلم المشنقة . وما كاد يصعد درجتين من السلم حتى تراجع رعبا وعاد أدراجه !

واكتفيت بأن أتحدث الى حلمي رفلة بالاشارة ! وفهمت أن الحكومة

اشترطت لعرض فيلم معبودة الجماهير الذي ألفته ، ومثله عبد الحليم حافظ وشادية أن يحذف اسمي من الفيلم .

وقال حلمي رفلة انه يخشى لو حذف اسمي أن أرفع عليه قضية وأطالبه بتعويض عشرة آلاف جنيه لأنه حذف اسم المؤلف .. واشترط أن تصدر الدولة أمرا كتابيا برفع اسم المؤلف من الفيلم !

وسلمته الدولة الأمر الكتابي .. متصورة أنها أخفت الى الأبد اسمي من الدنيا والآخرة !

المساكين لا يعرفون أن ليس في يد انسان أن يملك الى الأبد الدنيا والآخرة !

فان الله لن يتخلى عن المظلومين حتى لو كانوا ظلموا بقرار جمهوري .

يسقط الظلم !

٢١ يوليو سنة ١٩٦٨

اخي العزيز

احتفلت منذ بضعة شهور بمرور ألف ليلة وليلة في السجن . مضى علي الآن ألف ليلة وليلة وفوقها ثلاثة أشهر في السجن . ولم أتنبه الى الموعد الا بعد أن فات الميعاد ، وفي يوم الاحتفال حدثت أشياء لا تخطر على البال . أحد المسجونين معنا في العنبر أشعل في نفسه النار ، ومات محترقا على طريقة كهنة البوذيين في فيتنام . كان منظرا يفتت الأكباد أن ترى رجلا تحول الى كومة من رماد . وهو مسجون محكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة . أمضى في السجن ١٤ عاما ، وبقى له عام واحد ليخرج بالعفو عن المسجونين الذين أمضوا نصف المدة وكانوا حسني السير والسلوك . شعر المسكين أنه مظلوم ومضطهد .. احتمل ١٤ عاما من السجن ، ولم يستطع أن يحتمل سنة واحدة من الظلم .

جريمته أنه وجد « البرش » الذي ينام عليه في الزنزانة ممزقا ، ووجد زملاءه الثلاثين معه في زنزانة واحدة ينامون على أبراش مهترئة ينفذ اليها من بلاط الزنزانة البرد القارص والروماتيزم الملعون . وطالب المسكين بأبراش سليمة فلم يستمع أحد لطلبه . وفتح مخزن الأبراش ، وأخذ منه ثلاثين برشا جديدة وزعها على زملائه في الزنزانة الذين يكاد يفتك بهم البرد . وجرى تحقيق كيف يجرؤ هذا المسجون الوقح على أن يدخل الغرفة « المقدسة » بدون اذن . كيف يجرؤ على أن يوزع الأبراش الجديدة وينقذ زملاءه من الموت والسل . وأمرت مصلحة السجون بعقابه بوضعه في زنزانة في الطابق الأسفل في عنبرنا أشبه بالجب ، طولها متر ونصف وعرضها متر ، لا تدخلها الشمس ولا الهواء ، وليس فيها نور كهربائي . واعترض المسجون المسكين على هذا الحكم الجائر . وقيل له ان حكم مصلحة السجون هو حكم نهائي لا يقبل الاستئناف أو

النقض والابرام .. هو حكم « الهي » . وقال المسجون للضابط انه لا يستطيع الحياة في هذا الجب ، وسوف يقتل نفسه ، لعله بهذه الطريقة يستطيع أن ينبه الغافلين ويوقظ النائمين ، ويوصل صوته ميتا الى آذان الذين أبوا أن يسمعوا صوته حيا ، وضحك الضابط والحراس ساخرين بهذا التهديد .

بعضهم لم يصدق انه جاد فيما يقول ، وبعضهم صدق ولم يهتم بما سوف يحدث .. ماذا لو أن عدد المسجونين نقص منه مسجون واحد من بضعة آلاف ..

وجاء المسجون بإناء فيه غاز ، وسكبه على نفسه ، وأشعل النار . كانت زنزانته مغلقة ، وسمعنا صراخا من المسجونين ، ودخانا يتصاعد ورائحة اللحم المشوي .

وأسرع الحارس بفتح باب الزنزانة وحاول اطفاء النار ، وحمل المسجونون بقايا جثة زميلهم الى مستشفى السجن ، وهرول الاطباء يحاولون انقاذه ، وسألوه لماذا أنتحر ؟ فقال انه انتحر لأن مصلحة السجون هي التي قتلته بإجراءاتها الظالمة وأسلم الروح ! وبدأت عملية توضيب شهود الزور . الضابط يلقن العساكر ما يقولون ، والعساكر يلقنون المسجونين ما يقولون ، وهكذا تم طبخ محضر التحقيق .

وتحول السجن كله الى مأتم . كل واحد منا يجلس منكس الرأس في زنزانته وكأنه يشيع جنازة . هذا المسجون مات من أجل كل واحد منا . في أي بلد آخر كان وزير الداخلية ينتقل فورا الى السجن . كانت الصحف تنشر النبأ في الصفحة الأولى . كان هذا الحادث كفيلا بأن يثار في البرلمان ويطالب بتأليف لجنة برلمانية للتحقيق عن الحالة في السجون . شيء من هذا لم يحدث . أحسست أن بعض الحراس فقدوا في عملهم في السجن كل ذرة من الانسانية . كانوا سوف يتأثرون لو أن الذي قتل هو كلب مدير السجن أو قطة المأمور ، أو بطة من عهدة البط الذي يتولى السجن تربيته في الليمان . عدد قليل من الضباط والحراس أبدى تأثره وحزنه وألمه

لهذا الحادث البشع ، وأخشى عليهم أن ينقلوا من مناصبهم عقابا لهم على هذه الانسانية المخالفة للوائح والأوامر والتعليمات !..

وفي نفس اليوم ألقى مسجون نفسه في عنبر آخر من الطابق الرابع فمات على الفور . لأنه عوقب في السجن على جريمة لم يرتكبها . وقدمت أسرته بلاغا للنيابة تقول انها تشك في أسباب مقتله ، وبدأت النيابة التحقيق . ولا أعتقد أن التحقيق سوف يؤدي الى أي شيء لأن فرقة شهود الزور بدأت تستعد للإدلاء بأقوالها في التحقيق !

وقبل ذلك بيومين سقطت مادة حارقة على اثنين من المسجونين الذين يعملون في مصنع الصابون بالليمان ، فاحترقا وماتا على الفور .

ولم يكلف أحد نفسه بأن يحقق ليعلم بأن الاشتراطات الصحية غير متوافرة في المصنع .

ومن المفارقات الغريبة أنه لو وقع هذا الحادث في أي مصنع خارج السجن لدفع المصنع تعويضا لأسرة المقتولين ، ما عدا الليمان ، فإن لوائح السجن تقول ان مصلحة السجون غير مسؤولة عن الذين يقتلون في أثناء عملهم كمسجونين في الليمان !

انني أقرأ في الصحف الانجليزية كل يوم مقالات وتحقيقات عن السجون والاهتمام بها والبحث عن شكاوى المسجونين ، ومما يؤسف له أن الصحف المصرية ممنوعة من التحدث في هذا الموضوع الا اذا كان الحديث عن عبقرية مدير مصلحة السجون وإبداء الاعجاب بالزيتون والصابون اللذين تصنعهما السجون وتهديهما الى بعض الصحفيين !

من رأيي أنه لا يمكن اصلاح السجون الا اذا أصبح مدير مصلحة السجون هو أحد مستشاري محكمة الاستئناف ، ينتدب لهذا العمل ، باعتبار أن المصلحة تنفذ الحكم الذي أصدره القضاء . ومن رأيي أن يكون مدير السجن هو أحد القضاة .. بل انني اعترض على أن تكون السجون تابعة لوزارة الداخلية ، بل أرى

ان تكون تابعة لوزارة العدل ، وأن يكون الحراس من المشرفين الاجتماعيين ، وأن تكون مهمة الجنود مقصورة على حراسة الاسوار من الخارج . ان الذي يجب أن يعلمه الناس أن مدير مصلحة السجون في عهود الاستبداد هو طرطور ! وأن ضابطا برتبة ملازم أول في المباحث العامة يستطيع أن يعطي الأوامر الى سيادة اللواء مدير المصلحة ! وأن المباحث العامة هي التي تحكم السجون التي يوجد فيها مسجونون سياسيون ، حتى أنه في بعض السجون لا يمكن نقل مسجون سياسي من زنزانة الى زنزانة أخرى الا بعد استئذان ضابط صغير في المباحث العامة ! وهكذا لا تنتهي سيطرة وزارة الداخلية على المسجون السياسي بالحكم عليه ، بل يبقى طوال فترة سجنه تحت رحمة وزير الداخلية ، يستبد به ويتعنت معه ويضيق عليه الخناق كما يهوى ويشاء !

السجون في بلادنا بأنظمتها الحالية هي جرائم يومية ترتكب بقرار وزاري !

ومن عجائب القدر أن وزير الداخلية الذي أصدر لائحة السجون الظالمة التي تطبق الآن على المسجونين هو عباس رضوان ، وهو الآن مسجون في السجن تطبق عليه نفس اللائحة غير الانسانية التي اقرها .

وحياة المسجون الفقير في السجن هي جزء من الجحيم .. علبة السجائر البلمونت هي جواز المرور . يجب أن يدفع المسجون سجائر ليفتح الحارس له باب الزنزانة في موعده ، والا فان السجان ينسى أن يفتح الباب ! ويجب أن يدفع المسجون سجائر للسجان لكيلا يغلق عليه باب الزنزانة قبل موعده . ويجب أن يدفع سجائر للكهربائي لكي تضاء زنزانته بالنور ، فإذا لم يدفع لعب الكهربائي في الأسلاك وانطفأ النور . ويجب أن يدفع سجائر للممرض لكي يعرضه على الطبيب ، ويجب أن يدفع سجائر لرئيس الممرضين ليصرف له دواء ، ويجب أن يدفع لمن يحمل له الطعام ليتسلم نصيبه كاملا ، والا لأعطاه قطعا من العظم أو طبقا من الفول مخلوطا

بالسوس والطين ! ويجب أن يدفع لمن يأتي له بخطابه والا فانه يخفيه ، ويجب أن يدفع لمن سيستلم الخطاب الذي يرسله الى أهله . ويجب أن يدفع للنوبتجي ليحمل جردل البول ويفرغه ، ويجب أن يدفع سجائر للحلاق الذي يحلق لحيته ، والا أصبحت له لحية مهيبة ! ويجب أن يدفع سجائر لحارس الليل حتى لا يدق على باب زنزانته كل خمس دقائق ليسأله هل هو نائم أم متيقظ ؟ ويجب أن يدفع سجائر ليحتفظ بالبرش الذي ينام عليه .

وحدث في هذا الاسبوع أن بعض المسجونين المعدمين وجدوا أن حياتهم في السجن لا تطاق بغير سجائر . وأهلهم لا يستطيعون أن يرسلوا لهم نقودا لشراء سجائر . وضاقت الدنيا بهم . وسرق بعض المسجونين سجائر من زملائهم ، فجاءوا بالمتهمين ومدوهم ، وراحوا يضربونهم ضربا مبرحا . كان صوت صراخهم يمزق قلبي ويحطم أعصابي . هذه الطريقة الوحشية في سجوننا يجب أن تتوقف ومن الغريب أن ولاة الامور يعتبرون هذه القسوة دليلا على الحزم ، وهذه الوحشية دليلا على القوة ، ان صوت الكرابيج لا يرتفع الا اذا صمت صوت الشعب . وأنا أعتقد أن سبب انتشار الضرب في السجون وفي أقسام الشرطة ، وفي غرف التحقيق سببه هو الحكم الفردي . الحاكم الفرد عادة ينعزل عن العالم . ونحن عندما نكون وحدنا نخاف . وهذا الخوف هو الذي يجعل الحاكم يقسو ويشتد ويضرب بالكرباج !

***

أرجو أن تعذرني اذا وجدت خطابي مقبضا . هذا شعور طبيعي بالنسبة لنوع الحياة التي أعيشها في السجن . عندما تتحطم جميع الجسور بينك وبين العالم . عندما تتمزق جميع العلاقات . عندما تتهدم كل الاحلام . عندما يرثيك الناس وأنت علي قيد الحياة . عندما تصبح الاعلام مماسح تتنظف فيها أحذية الحكام . عندما ترفع أحذية الظالمين كالرايات ! عندما يصبح كوب الماء البارد الذي تشربه في الصيف الحار مشكلة عويصة تستدعي التفكير والتدبير

والمغامرة . عندما تشرب فنجان القهوة وكأنك تسرق البنك الأهلي . عندما تصبح أطول رحلة تقطعها في حياتك هي نزولك من الطابق الرابع في السجن الى الطابق الأول . عندما تزورك أسرتك مرة كل شهر لبعض دقائق . عندما تعرف أن عليك أن تنافق السجان الذي يسجنك ، وتسترضيه بدلا من أن تلعنه ، وتطيع أوامره بدلا من أن تثور عليه . عندما تصبح حياتك كلها هي الطعام الذي تأكله . عندما تشعر أن الذين رفعتهم فوق رأسك داسوك بالاقدام ، والذين دافعت عنهم اتهموك ، والذين أحببتهم كرهوك ، والذين أنقذتهم من الهزيمة ألقوا بك الى هاوية العار . عندما يحدث للانسان كل هذا يفقد القدرة على الرؤية . يفقد القدرة على الحكم على الأشياء . ومع ذلك فانني أحاول دائما أن أخرج رأسي من الوحل الذي أغوص فيه .. أرفع رأسي لأرى الدنيا كما هي !

المظالم التي أراها حولي تجعلني أشعر بالعجز من هولها ومن كثرتها . كيف يمكن إنصاف كل هؤلاء المظلومين ؟ هذه ليست مهمة فرد بل هو واجب شعب . المظالم في بلادنا تراكمت فوق بعضها البعض حتى أصبح الظلم هو القاعدة والعدل هو الاستثناء !

لا يوجد في الدنيا كلها بلد تدفع فيه رشوة لتنال حقك . المفروض أن من يدفع الرشوة يدفعها لكي يحصل على أكثر من حقه ، وعندنا أصبحت الرشوة كورقة التمغة يجب أن تلصق بكل طلب !

ولا أوافق الذين يقولون ان القيم الأخلاقية انهارت في بلادنا نتيجة الهزيمة ، بل انني أرى العكس ، فان الهزيمة نتيجة انهيار القيم الاخلاقية .

ولقد كان الرئيس جمال عبدالناصر يقول لي في أول الثورة « لا أريد فراعنة يستبدون ولا أريد أرانب يخافون » !

ولكنه تحول الى فرعون ، وحكم الفرد لا يكتفي بفرعون واحد ، بل يتفرع منه فراعين . فنحن نجد أن في كل ركن من أركان بلادنا فرعونا أو نصف فرعون أو ربع فرعون وأصبحنا كلنا أرانب !

وفي رأيي أن الطغيان هو الذي يحطم القيم العالية ، وينشر

الأخلاق الفاسدة . ينشر الجبن والكذب والنفاق والانانية والقسوة والغدر والملق والحسد والحقد . فهذه صفات الظلام ومواليد الظالمين !

وأعتقد أن الشورى أي الديموقراطية سوف تعيد لنا بعض ما فقدناه في الظلام ، كالشهامة والفروسية والصدق والشجاعة والحب والصراحة والقناعة ..

وسوف يحدث هذا عندما لا يبقى في مصر فراعنة يستبدون .. وعندئذ سوف تختفي الأرانب ..

لأن الأرانب هي ظل فرعون ..

الفهرس

الموضــــوع	الصفحة

كتب للمؤلف

- **أمريكا الضاحكة**

حياة طالب مفلس في أمريكا .

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت) .

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت) .

الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ (نفدت) .

- **فاطمــــــــــة**

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدي سنة ١٩٤٧ .

- **عمالقة و اقزام**

ساسة مصر قبل الثورة .

سنة ١٩٥١ ـ (نفدت) .

- **ليالي فاروق**

قصة حياة الملك السابق .

الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت) .

الجزء الثاني سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت) .

- **معبودة الجماهير**

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ـ (نفدت) .

مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية .

- **صاحبة الجلالة في الزنزانة**

قصة الصحافة المصرية في الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان .

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت) .

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت) .

الطبعة الثالثة ١٩٧٥ ـ (نفدت) .

● سنة أولى سجن

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت) .

الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت) .

الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ ـ (نفدت) .

الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ ـ (نفدت) .

الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ ـ (نفدت) .

وتوالت الطبعات السادسة والسابعة ثم الثامنة ١٩٨٥ .

● الكتاب الممنوع

أسرار ثورة ١٩١٩

الجزء الأول من الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ (نفدت) .

الطبعة الثانية ١٩٧٥ .

الجزء الثاني ١٩٧٥ .

● سنة أولى حب

يناير سنة ١٩٧٥

● ست الحسن

الطبعة الأولى ١٩٧٦ .

● من واحد إلى عشرة

١٩٧٧ .

● سنة خامسة سجن ١٩٨٤ .

صدر عن سلسلة كتاب « الشرق الأوسط » :

الكتاب	المؤلف
● الرؤية والتحول	عبدالرحمن عبدالعزيز الشبيلي
● السلام الضائع	محمد ابراهيم كامل (وزير خارجية مصر الأسبق)
● سنة أولى سجن	مصطفى أمين
● سنة خامسة سجن	مصطفى أمين
● « لماذا أعدموني » ؟	سيد قطب
● الأمة الإسلامية في مواجهة تحديات العصر	الحبيب الشطي (أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي السابق)
● خلجات بين الأبيض والأسود	عرفان نظام الدين
● لحظات لها تاريخ	شفيق الحوت

* * *

الكتاب	المؤلف
● العبادات في الإسلام	د . عبدالحليم عويس
● قضايا المرأة في الفقه الإسلامي	د . عبدالحليم عويس
● مشكلات الاقتصاد الإسلامي	د . عبدالحليم عويس
● الحدود في الشريعة الإسلامية	د . عبدالحليم عويس
● نظام الأسرة في الإسلام	د . عبدالحليم عويس
● تطبيق الشريعة الإسلامية	د . عبدالحليم عويس
● مشكلات الشباب في ضوء الإسلام	د . عبدالحليم عويس
● حقوق الإنسان في الإسلام	د . عبدالحليم عويس
● الطريق إلى اقتصاد إسلامي معاصر	د . عبدالحليم عويس
● التكافل الاجتماعي في ضوء الفقه الإسلامي	د . عبدالحليم عويس

الكتاب	المؤلف
● صباح الخير	جهاد الخازن
● ايدز ٨٦	د . محمد عبدالله القصيمي ود . أحمد نبيل ابو خطوة
● أنفاس على جدار القلب	عبدالله الجفري
● أيام مع المجاهدين الأفغان	عبدالله الرفاعي
● لا .. لم يعد حلماً	فؤاد مفتي
● البهائية .. رأس الأفعى	نتاج مجموعة من الكُتاب والمفكرين والصحفيين المسلمين
● محاوراتي مع السادات	أحمد بهاء الدين
● نحو مفهوم اقتصادي واضح	د . علي بن طلال الجهني
● المرأة الأخرى	فوزية سلامة
● علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ	د . محمد عبده يماني

* * *

الكتاب	المؤلف
● سلسلة حسن الاخضر ـ قرية النور	رجاء عالم

طبع بمطابع شركة المدينة للطباعة والنشر
ت ٦٦٩١٨٨٨